بيان

النَّظْم في القرآن الكريم

الربع الثالث من سورة مريم حتى سورة الزمر

محمد فاروق الزين

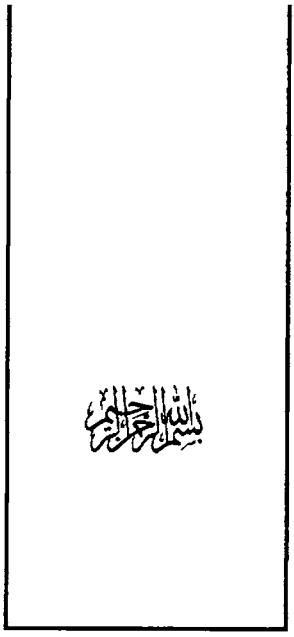

بيان
النَّظْم في القرآن الكريم

الربع الثالث

من سورة مريم (١٩)

حتى

سورة الزمر (٣٩)

الرقم الاصطلاحي: ٢٣٠٧,٠١١
الرقم الدولي : ISBN:1-59239-479-5
الرقم الموضوعي: ٢١٠
الموضوع: دراسات إسلامية
العنوان: بيان النظم في القرآن الكريم/الربع الثالث
التأليف: المهندس محمد فاروق فارس الزين
التنفيذ الطباعي: دار الفكر -دمشق
عدد الصفحات: ٤٠٥ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة
جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف
الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م
توزيع دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۞ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[الحجر ١٥/٩٠-٩٣]

المحتويات

الموضوع	الصفحة
❁ مقدمة الربع الثالث	٩
❁ مقدمة الربع الرابع	١١
❁ سورة مريم	١٩
❁ سورة طه	٤١
❁ سورة الأنبياء	٧٢
❁ سورة الحج	٩٨
❁ سورة المؤمنون	١٢٣
❁ سورة النور	١٤٤
❁ سورة الفرقان	١٦٨
❁ سورة الشعراء	١٨٦
❁ سورة النمل	٢٢٣
❁ سورة القصص	٢٤٩
❁ سورة العنكبوت	٢٧٧
❁ سورة الروم	٢٩٩
❁ سورة لقمان	٣١٨

الموضوع	الصفحة
❁ سورة السجدة	٣٣١
❁ سورة الأحزاب	٣٤٠
❁ سورة سبأ	٣٧٠
❁ سورة فاطر	٣٩٠
❁ سورة ياسين	٤٠٦
❁ سورة الصافات	٤٢٦
❁ سورة ص	٤٥٨
❁ سورة الزمر	٤٧٩

مُقَدِّمَة

الربع الثالث

القرآن الكريم منظومة متسلسلة من أوله حتى آخره، وهذا التسلسل ينطبق على الآيات القرآنية في كل سورة على حدة، كما ينطبق على ترتيب السور جميعاً من سورة الفاتحة حتى سورة الناس، وقد بدأ المؤلف في كتابه بيان النظم في القرآن الكريم بالربع الرابع منه، أي من سورة غافر (٤٠)، حتى سورة الناس (١١٤)، ونشره في كتابه (بيان النظم في القرآن الكريم)، ثم صدر بيان النظم في الربع الأول منه، أي من سورة الفاتحة (١)، حتى سورة الأنعام (٦)، كما صدر بيان النظم في الربع الثاني منه، أي من سورة الأعراف (٧)، حتى سورة الكهف (١٨)، وفي هذا الكتاب بيان النظم في الربع الثالث منه، أي من سورة مريم (١٩)، حتى سورة الزمر (٣٩)،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

جمادى الأولى ١٤٢٥هـ - تموز/يوليو ٢٠٠٤م

محمد فاروق الزين

البريد الإلكتروني faruk@zein.org

مراجع الكتاب:

١- رسالة القرآن - محمد أسد The Message of the Quran, Muhammad Asad

٢- تفسير المنار - الشيخ محمد رشيد رضا.

٣- التفسير الكبير - الرازي.

٤- الكشاف - الزمخشري.

٥- روح المعاني - الألوسي.

٦- تفهيم القرآن - سيد أبو الأعلى المودودي.

٧- جامع أحكام القرآن- القرطبي.

٨- معاني القرآن الكريم - عبد الله يوسف علي.

٩- أنوار التنزيل- البيضاوي.

* * *

مُقَدِّمَة

الربع الرابع

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت ٤١/٤٤]

تتسم معظم تفاسير القرآن الكريم بأنها تفسر القرآن آية آية بالتجزئة، كما لو كانت كل آية من الآيات مستقلة بذاتها عما قبلها وعما بليها، دون كثير اهتمام بترابط الآيات بعضها مع بعض، ودون التركيز على النظم القرآني المحكم، لدرجة أن بعضاً، في تجاهل واضح للنظم، قد يعتقد أن ليس هنالك من علاقة بين ترتيب الآيات وبين معانيها، ولا شك أن هذا الأمر وقف عائقاً بين بعض المستشرقين وبين فهم القرآن، حتى إنهم توصّلوا إلى استنتاجات خاطئة من قبيل أن القرآن كتاب غير مفهوم أو غير منتظم أو غير محكم، وأدّى هذا الأمر ببعضهم إلى محاولة إعادة ترتيب القرآن بحسب ترتيب النزول الزمني في مسعى منهم لمحاولة فهمه، وهذه الصعوبة ليست مقتصرة على المستشرقين وحدهم، بل تعم الكثير من المسلمين أنفسهم، ناهيك عن حديثي العهد بالإسلام منهم.

والمعروف أن للإعجاز القرآني الكثير من الوجوه اثنان منها على الأقل له علاقة بالنظم.

الوجه الأول أن القرآن الكريم نزل على النبي ﷺ على مدى ثلاثة وعشرين عاماً من البعثة النبوية بحسب الظروف المرحلية للبعثة، وطبقاً لمتطلباتها في كل

مرحلة من مراحلها، وكان الوحي يبيّن للنبيّ ﷺ عند نزول كل آية موضعها الصحيح من السورة الخاصة بها، كما كان يبيّن له ترتيب السور على النحو الذي نعرفه اليوم مما لا يطابق الترتيب الزمني للنزول، وبالتأكيد فإنّ ذلك لم يكن اعتباطاً، لأن القرآن لم ينزل فقط كي يوافق المتطلبات المرحلية للبعثة النبوية وحدها، وإنما نزل كي يلائم كل العصور والأمم وليس لوقت أو أمة بعينها، ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء ١٧/١٠٦]، مما يدل أن ترتيب الآيات والسور في المصحف ذو مغزى لا يمكن التغاضي عنه في تفسير القرآن الكريم، وقد أقر غالبية الفقهاء بإعجاز القرآن من هذه الزاوية، لكنهم لم يتجاوزوا هذا الإقرار إلى الاستفادة منه في التفسير، بل إن غالبية المفسرين لم يركزوا على هذه النقطة.

الوجه الثاني من هذا الإعجاز المذهل أن النبي الذي لم يكن يمتلك أي وسيلة من وسائل التحرير والتعديل والتنقيح، ولا أدنى وسيلة من وسائل التقانة المتاحة اليوم في هذا المضمار، وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاماً من بعثته، ما يجعل من المستحيل أن يستطيع من تلقاء نفسه ترتيب القرآن على النحو المُحكَم الذي نعرفه، والمُغاير لترتيب النزول الزمني، وبحيث يكون القرآن مناسباً لكل العصور، مما يدل على أن ترتيب المصحف الذي نعرفه توقيفي من الله تعالى.

فهنالك إذن نقطتان لا يمكن التغاضي عنهما:

الأولى أن تعريف السورة بهذه الكلمة: (سورة) يعني أنها بمثابة سور يحيط بموضوع معين أو مواضيع مترابطة، وبمعنى أن كل سورة ذات محور يدور حوله موضوعُها أو مواضيعها، ولولا ذلك لما كان هنالك مبرر لتقسيم القرآن إلى سور، ولكان كله سورة واحدة من أوله إلى آخره، ولا بد لكل قارىء للقرآن أن يلاحظ أن لكل سورة قرآنية شخصيتها المختلفة عن الأخرى، وهذا الأمر يبدو شديد الوضوح عندما ينتهي المرء من قراءة إحدى السور وينتقل إلى

الأخرى، ومن هنا يبدو أحد جوانب التحدي القرآني للكفار، أن يأتوا بسورة من مثله.

والنقطة الثانية أن ترتيب السور التوقيفي يقتضي أن لهذا الترتيب مغزى لطيفاً لا علاقة له بطول السورة أو قصرها، وهو ما اجتهد الكاتب فيما ببيان ارتباط السور المتتالية بعضها ببعض.

وإذا قرأ أحدهم القرآن دون محاولة التركيز على النظم فقد تبدو له الآيات مفككة المعاني، غير أن وضع كل آية في نصابها الصحيح من السورة ودراسة تعلقها بما قبلها وما بعدها يلقي المزيد من الضوء على معناها بما لا يقبل الخطأ.

وليس من شك أن بعض المفسرين فطن لهذا الموضوع، ولكن تصديهم له كان جزئياً كما هي الحال في التفسير الكبير للرازي (المتوفّى ٦٠٤هـ/١٢٠٨م) الذي حاول أن يجد العلاقة أحياناً بين بعض الآيات وبعضها الآخر أو العلاقة بين نهاية بعض السور وبداية السورة التي تليها، كما بذل الألوسي (المتوفّى ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م) في تفسيره (روح المعاني) المحاولة الجزئية ذاتها، غير أنهما معاً لم يستفيدا من إحكام النظم في تفسيرهما للسور القرآنية كل على حدة، ولا للقرآن بمجمله، وقد وردت هذه المحاولة الجزئية أيضاً في تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا.

وقد لفت الإمام الزركشي (المتوفّى ٧٩٤ هـ/١٣٩٢م) في كتابه (البرهان في علوم القرآن) النظر لهذا الموضوع، إذ عرّف النظم بعبارة: «معرفة المناسبات بين الآيات» فكتب: «وهذا النوع -من معرفة المناسبات بين الآيات- يهمله بعض المفسّرين أو كثير منهم، وفوائده كثيرة»، وكتب أيضاً: «قال بعض مشايخنا: قد وهمَ من قال: لا يُطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً، فالمصحف مرتّبة سوره كلها وآياته بالتوقيف، والذي ينبغي في كل آية أن يُبحث أوّل شيء عن كونها مكمّلة لما

قبلها أو مستقلّة، ثم المستقلّة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علمٌ جمّ، وهكذا في السور يُطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»، ونقلَ عن الشيخ أبي الحسن الشهرباني قولَه: «أوّل مَن أظهر ببغداد علم المناسبة ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري (المتوفّى ٣٢٤هـ/٩٣٦م) وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول إذا قُرئ عليه: لِم جُعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يُزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة» انتهى.

وقد بذل محاولة متكاملة في هذا الصدد الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (المتوفّى ٨٨٥هـ/١٤٨٠م) في تفسيره الذي سمّاه: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) وذكر في مقدمته: «هذا كتاب عُجاب، رفيع الجناب، في فنٍّ ما رأيتُ مَن سبقني إليه » فلم يخلُ من التصنّع والتكلّف.

ومن جهة أخرى لا بد أن يلاحظ المرء أن القرآن الكريم قد لا يستنفد موضوعاً من المواضيع في مكان واحد أو في سورة واحدة، بل يعود إليه في أكثر من سورة بما قد يعطي الانطباع أن هنالك تكراراً في المواضيع، غير أن التمعن في ذلك يبين أن الموضوع يتم بحثه في كل مرة من زاوية مختلفة عن الأخرى أو متممة لها وبما قد يتناسب مع محور السورة موضوع البحث، وهو ما يشير إليه القرآن الكريم بتصريف الآيات كما في قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام ٦/٤٦]، وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام ٦/٦٥]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام ٦/١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾ [الإسراء ١٧/٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ [الإسراء ١٧/٨٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ

كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف ١٨/٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ [الفرقان ٢٥/٥٠].

وهنالك أيضاً آيات الأحكام التي لا يسردها القرآن في موقع واحد أو سورة واحدة، بل نرى هذه الآيات متداخلة مع النص القرآني في مواضع مختلفة، فالنصوص القرآنية ليست مجرد أحكام، والقرآن كتاب دعوة للإسلام، وهو أيضاً كتاب دين ودنيا، مما يفسر هذا التداخل، فحياة الإنسان وحدة متكاملة لا يمكن فصل النواحي الروحية فيها عن النواحي الحياتية المعيشية.

وتبدو مبالغة بعض المفسرين في الاعتماد على (أسباب النزول) سبباً مهماً، من جملة أسباب أخرى، في تفكيك النص القرآني أو توهم تفككه، والانصراف عن نظمه المحكم ومن ثم عن معانيه، فغالباً ما تعطي أسبابُ النزول الانطباعَ بتفكك النص مع أن واقع السور يشهد بعكس ذلك.

معظم أسباب النزول جُمعت في مؤلَّفين، الأول كتبه أبو الحسن الواحدي النيسابوري (المتوفى ٤٦٧هـ/١٠٧٥م)، والثاني كتبه جلال الدين السيوطي (المتوفى٩١١ هـ/١٥٠٥م) - وهي مدوّنة كملاحظات بأسفل صفحات تفسير الجلالين-، علماً أن بعض هذه الأسباب - القصص- مذكور في كتب السير والمغازي، كما هي مذكورة أيضاً في كتب التفاسير المأثورة، ويعطي الواحدي النيسابوري أسباباً للنزول لبعض الآيات الواردة في ٨٣ سورة من مجموع سور القرآن الكريم ، في حين أن السيوطي يعطي أسباباً للنزول لبعض الآيات في كافة سور القرآن الكريم، عدا الفاتحة، فالأسباب في مجموعها لا تغطي سوى قسمٍ قليلٍ من القرآن، وقد أُحصيَتْ الآيات التي لها أسباب نزول عند الواحدي النيسابوري فوُجد عددها /٥٩٩/ آية من مجموع آي القرآن الكريم البالغ عددها /٦٢٣٦/ آية أي بنسبة مئوية من المجموع أقل من عشرة بالمئة، ومع ذلك يراها بعضهم ضرورة لا بد منها لتفسير القرآن! .

واليوم يرى بعض العلماء أن أسباب النزول ضعيفة الإسناد في معظمها، وحتى ما كان منها ذا إسناد جيد -وهو أقل القليل- فإن بعضاً منها قد يناقض بعضها الآخر، وفي الأغلب يجب النظر إلى الأسباب كتطبيقات لما نزل من القرآن الكريم، وليس كأسباب نزول، وفي ذلك كتب الإمام الزركشي في (البرهان، الجزء الأول ص ١٢٦) : «وقد عُرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: "نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها ».

والنتيجة أنّ أسباب النزول يمكن أن تؤخذ في الاعتبار فقط عندما تشير الآية أو الآيات إلى أحداث تاريخية معينة، انظر الملحق (أ) - في نهاية الربع الرابع - الذي يبين المناسبات التاريخية لنزول بعض النصوص القرآنية، وفيما عدا ذلك يلزم التمحيص فيها والتعامل معها بحذر شديد.

كما يبين الملحق (ب) - في نهاية الربع الرابع - أسماء الأعلام من مؤرخي السيرة والفقهاء وكتّاب الحديث والتفاسير وأسباب النزول، وأسماء الخلفاء المعاصرين لهم، لإعطاء فكرة عن بعد الفترة الزمنية -أو قربها- لهؤلاء الأعلام من البعثة النبوية الشريفة بما يتناسب مع العمل الذي كانوا بصدده.

وقد كتب أبو حامد الغزالي في مؤلّفه (إحياء علوم الدين) أن حُجُب فهم القرآن أربعة، أي التي تحجب فهم القرآن الكريم عن قارئه:

أولاً: حين ينصرف همّ القارىء إلى تحقيق الحروف ومخارجها، وهذا يتولّى حفظه شيطان يصرفه عن معاني كلام الله، فلا يزال يحمله على ترديد الحروف يخيل إليه أنْ لم تخرج من مخارجها، فيكون تأمّله مقتصراً على مخارج الحروف، فأنّى تنكشف له المعاني؟.

ثانياً: حين يكون القارىء مقلّداً لمذهب سمعه بالتقليد وجَمُد عقلُه عليه وتعصّب له.

ثالثاً: حين يكون مصرّاً على ذنب، أو متّصفاً بكِبْر، أو مبتلىً بهوى في الدنيا.

رابعاً: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أن لا معنى لكلمات القرآن إلاّ ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأنّ ما وراء ذلك تفسير بالرأي، وأنّ من فسّر القرآن برأيه فقد تبوّأ مقعدَه من النار، فهذا أيضاً من الحُجُب العظيمة.

ومن كل ذلك تنطلق محاولة هذا الكتاب لبيان النظم القرآني ومن ثمّ المعاني القرآنية، وقد بدأ الكاتب بالربع الأخير من القرآن الكريم، ويتضح الغرض من الكتاب في ثلاثة مواضيع:

١-بيان ارتباط السور القرآنية بعضها مع بعض.

٢- بيان موضوع كل سورة، أو ما اصطلح على تسميته محور السورة الذي تدور حوله.

٣- بيان النظم في الآيات لكل سورة على حدة.

وفي العصر الحديث، وفي الباكستان تحديداً، قام أحد علمائها وهو مولانا أمين إحسان إصلاحي (١٩٠٤-١٩٩٧) بمجهود كبير بهذا الصدد في مؤلفه الضخم المكون من ستة آلاف صفحة والذي سمّاه (تدبُّر القرآن)، غير أنّه كتَبَه بلغة الأوردو، ولم يترجم حتى الآن إلى أية لغة أخرى فلم يصل إلينا.

وقد لفت نظري الأخ الكريم المهندس نزار الكردي، الذي تضاهي معارفُه الفقهية علومَه الهندسية، أنّ كوْن ترتيب السور والآيات القرآنية توقيفي من الله تعالى، أي الترتيب إلزامي غير معلّل، يعفي المرء من البحث عن علّة مصطنعة عندما تنتقل السورة من موضوع لآخر قد لا يبدو هنالك رابط بينهما، وهو ما اصطنعه الشيخ برهان الدين البقاعي في كتابه (نظم الدرر) في كثير من الحالات، وكما هي الحال مثلاً عندما يتم الخلط بين واو العطف و واو

الاستئناف بين بعض الآيات كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف ٩٩/١٨]، فالواو في قوله: (وَتَرَكْنَا) واو الاستئناف وليست واو العطف إذ هي ابتداء لموضوع جديد بعد انتهاء قصة ذي القرنين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

شوال ١٤٢٣هـ - كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٢م

محمد فاروق الزين

البريد الإلكتروني faruk@zein.org

* * *

سورة مريم - ١٩-

مكية

مقدمة

نزلت حوالي السنة السابعة قبل الهجرة، أي قبل لجوء الدفعة الأولى من المسلمين إلى الحبشة، وفي سيرة ابن هشام أن جعفر بن أبي طالب، ابن عم الرسول ﷺ، تلاها على نجاشي الحبشة عندما شرح له خلفية الدعوة الإسلامية.

ارتباط السورة بما قبلها

افتتحت سورة الكهف المتقدمة بوجوب حمده تعالى أن أنزل القرآن على نبيّه مُعجزاً متجانساً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَاً﴾ (١/١٨)، ثم تختتم سورة مريم أنه تعالى يسّر القرآن على لسان نبيّه بشرى للمتقين وإنذاراً للمكابرين: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (٩٧/١٩).

واختتمت سورة الكهف بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ (١٠٧/١٨)، ثم تذكر سورة مريم من هؤلاء زكريا ويحيى، ومريم وعيسى، وإبراهيم وإسحاق ويعقوب، وموسى وهارون، وإسماعيل وإدريس وتجملهم جميعاً وذراريهم بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (٥٨/١٩)، ثم قوله تعالى في سورة مريم: إنه سينشر محبّتهم بين الناس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (٩٦/١٩).

وبالمقابل تذكر سورة الكهف أن أعمال الكفار تحبط يوم القيامة فلا وزن حتى لأعمالهم (الصالحة): ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (١٨/١٠٥)، وتفصيل عاقبتهم في سورة مريم: ﴿وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا * فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ (١٩/٦٦-٧٠).

وفي سورة الكهف أن من أهداف القرآن الكريم إنذار الذين زعموا لله ولداً: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (١٨/٤)، وتفصيله في سورة مريم: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١٩/٣٥)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (١٩/٨٨-٩٢).

وفي سورة الكهف إصرار المغترّين بالدنيا على إنكار الآخرة: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا﴾ (١٨/٣٥-٣٦)، ثم في سورة مريم أنهم يكتشفون في وقت متأخر نقيض ذلك، وأنّ على المؤمنين أن يدعوا لهم بالهداية قبل الفوات: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ (١٩/٧٥).

محور السورة

تتابع الرسالات السماوية في النبيين من ذرية آدم ونوح، وذرية إبراهيم، وسلالة النبوات من بني إسرائيل التي انتهت بآخر أنبيائهم عيسى عليه السلام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ

وَإِسْرَائِيلَ﴾، وسلالة النبوات من إسماعيل الولد الأول لإبراهيم والتي انتهت بختم النبوات في محمد ﷺ: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (٥٨)، وفي حين رفض اليهود رسالة آخر أنبيائهم عيسى عليه السلام وكفروا بها، فقد انشقت المسيحية عن النصرانية وألّهت عيسى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٧).

وتنقض السورة دعوى الكفار الذين يتحاهلون الرسالات السماوية ويعلّون نجاحهم المادي الدنيوي معياراً وحيداً في دنياهم بغض النظر عن أي معيار أخلاقي: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ (٧٣)، فهم يظنّون الدين عائقاً في سبيل تقدمهم المادي: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (٧٧)، وأن أمثالهم سوف يعانون من العذاب أشد من غيرهم في الآخرة لكونهم ضلّوا وأضلّوا غيرهم من ضعاف القوم: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ (٦٨-٧٠)، وأن الله تعالى أعطاهم فرص التوبة في الدنيا، وأن على المؤمنين أن يدعوا لهم بالهداية: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ (٧٥).

ثم تنقض السورة أيضاً العقيدة المسيحية التي تزعم أن المسيح ابن الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٨٨-٩٢)، وأنه تعالى يسّر نزول القرآن الكريم على لسان نبيه محمد ﷺ ختم النبوات ولوضع الأمور في نصابها الصحيح: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (٩٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كهيعص﴾(١)

١- ﴿كهيعص﴾ الله أعلم بمراده، انظر شرح آية [البقرة ٢/١].

﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾(٢)

٢- ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ أي هذا ذكر وشرح لِما تنزّلت به الرحمة من الله تعالى على عبده زكريا، والد النبي يحيى، عليهما السلام، وكان مِن كبار رجال الدين في معبد القدس، ورحمته تعالى لزكريا في هذه الحالة هي استجابته لدعائه كما سوف يرد.

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾(٣)

٣- ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ دعا زكريّا ربّه في السرّ، وليس جهراً، لأنّ مثل هذا الدعاء في السرّ أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرياء إن كان في جمعٍ من الناس، خاصةً أنه يطلب الولد على تقدّمه في السن، كما لم يرد أن يكون ذلك على مسمع من رجال الدين في المعبد الذين خاف أن يلوه، الآية (٥).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾(٤)

٤- ﴿قَالَ﴾ زكريا في دعائه ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ ضعفَ عظمُه لتقدّمه في السن ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ عمّ الشيبُ رأسَه ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ يعني أن الله تعالى كان يستجيب لدعائه على الدوام.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾(٥)

٥- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ الموالي هُم رجال الدين في المعبد، خافَ أن يلوه في عمله بسبب فسادهم وتردّي سلوكهم الأخلاقي ﴿وَكَانَتْ

امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ لا تلد، وهي إليزابيث، أخت مريم عليها السلام، وقيل بل هي ابنة عمها ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ولداً يليني في خدمة المعبد.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾(٦)

٦- ﴿يَرِثُنِي﴾ في أعمالي في المعبد ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يرث من أحسن خصالهم، ويعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وآل يعقوب هُم ذرّيته ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ مرضيّاً عندك قولاً وفعلاً.

﴿يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾(٧)

٧- ﴿يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾ استجاب تعالى لدعاء زكريا ﴿اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ ومن البشارة أيضاً أنّ الله تعالى اختار اسم يحيى تكريماً لما سيهب له من الولد، ولأن اسم يحيى مشتق من الحياة، بالنظر لبعثة يحيى التي سبقت بعثة عيسى عليه السلام بستة شهور.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾(٨)

٨- ﴿قَالَ﴾ زكريّا مستغرباً ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ كيف ومن أين؟ ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ لا تلد ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ مبلغاً كبيراً من السن.

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾(٩)

٩- ﴿قَالَ﴾ الملاك الذي حمل البشارة ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ لأنّ أمره تعالى في التكوين أن يقول له: كن، فيكون.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾(١٠)

١٠- ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً﴾ إشارة ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ﴾ تمتنع عن الكلام معهم ﴿سَوِيًّا﴾ أي مع كونك سوياً ليس بك أي مرض يمنعك من النطق.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾(١١)

١١- ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ بالإشارة ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ داوموا على ذكر الله.

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾(١٢)

١٢- ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ﴾ تحققت البشارة، وبلغ يحيى أشدّه، وبُعث نبياً إلى بني إسرائيل قبل عيسى، والكتاب المشار إليه هو التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ لأن اليهود تلاعبوا بالتوراة، وكتبوا من عندهم الكثير، فالمقصود أن يأخذ يحيى من التوراة الصحيح المتبقي منها فقط، ويتمسك به ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ﴾ الحكمة قبل النبوة عندما كان ﴿صَبِيًّا﴾.

﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾(١٣)

١٣- ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً﴾ رحمةً عليه وتزكيةً له وطهوراً من كل سوء ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ يتّقي كل ما لا ينبغي.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾(١٤)

١٤- ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ في إشارة إلى أن بر الوالدين يلي عبادة الله، انظر آية [الإسراء ٢٣/١٧]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ بل متواضعاً ليّن الجانب.

﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾(١٥)

١٥- ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ فيتنزّل عليه السلام الروحاني في كل هذه المراحل، وذلك قصارى ما يتمنّاه كل عاقل.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾(١٦)

١٦- وهذه القصة الثانية بعد قصة زكريا ويحيى، والترابط بينهما لأنّ بعثتي يحيى وعيسى متقاربتان زمنياً، ولأنّ يحيى ابن خالة عيسى كما ذكرنا أعلاه، ولأنّ ولادة يحيى وعيسى كليهما كانت معجزة:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ أي اذكر أيها الرسول، أو أيها القارئ قصة مريم كما وردت في هذا القرآن، تصحيحاً لما ورد عنها في قصص العهدين القديم والجديد المشوّهة ﴿إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ اعتزلتهم ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ من بيت المعبد، أو من بيت المقدس، لأنّ والدتها امرأة عمران كانت نذرتها لخدمة المعبد، انظر [آل عمران ٣/٣٥-٣٦].

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾(١٧)

١٧- ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ اعتكفت للعبادة ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ روح من الله تعالى تمثّل لمريم على شكل بشر.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا﴾(١٨)

١٨- ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ﴾ فلا تقربني ﴿إِنْ كُنتَ تَقِيًّا﴾ تخاف الله تعالى، وقد علمت مريم أنّ الاستعاذة لا تؤثر إلاّ في الأتقياء.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾(١٩)

١٩- ﴿قَالَ﴾ يطمئنها ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ جئتك بهذه البشارة.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾(٢٠)

٢٠- ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ فكيف ومن أين؟ ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ بل امرأة طاهرة.

﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾(٢١)

٢١- ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴿وَلِنَجْعَلَهُ﴾ أي عيسى عليه السلام ﴿آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ معجزة ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ للناس، بما سوف يتنزّل عليه من الوحي بما يفيدهم ويصحح انحرافاتهم ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ في حملها عيسى عليه السلام، محقق قضاؤه حتماً منذ خلق الله السماوات والأرض.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾(٢٢)

٢٢- ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ﴾ بالمسيح ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيداً من أهلها، خارج المعبد.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾(٢٣)

٢٣- ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ نخلة ذهبت إليها لدى شعورها بالمخاض ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ قالته لشدّة ما كانت عليه من مشقة المخاض من جهة، ولما سوف تواجه به الناس بعد الولادة من جهة ثانية.

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾(٢٤)

٢٤- ﴿فَنَادَاهَا﴾ صوتٌ ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ من تحت النخلة ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ جدولاً يسري ماؤه، وتحتها بمعنى تحت ناظرها، وذلك أيضاً على سبيل الإعجاز.

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾(٢٥)

٢٥- ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ في مزيد من الإعجاز؛ لأن اهتزاز النخلة من جذعها يحتاج لقوة كبيرة، خاصة أن النخلة كبيرة ومثمرة.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً﴾(٢٦)

٢٦- ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً﴾ طيبي نفساً ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْماً﴾ عن الكلام ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ لأنني في حالة أناجي بها ربي.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾(٢٧)

٢٧- ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ في وقت ما، بعدما استعادت قواها ﴿قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا﴾ عظيماً عجيباً.

﴿يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾(٢٨)

٢٨- ﴿يَاأُخْتَ هَارُونَ﴾ لأن مريم من سلالة الكهنة الذين انحدروا من هارون أخي موسى عليهما السلام، وتلك عادة معروفة لدى القبائل السامية في انتساب الأفراد إلى أجدادهم ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ بل أنتِ من سلالة عفيفة شريفة.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾(٢٩)

٢٩- ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ إلى عيسى عليه السلام، والمعنى اسألوه ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ فذلك من العجب.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾(٣٠)

٣٠- ﴿قَالَ﴾ عيسى ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ الإنجيل، واستخدامه للفعل الماضي لأنه محقق لا محالة في علم الله القديم ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إلى بني إسرائيل.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾(٣١)

٣١- ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ في زيادة من الخير والعلو ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ﴾ بالدعاء ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ بأعمال الخير ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾(٣٢)

٣٢- ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ بل متواضعاً مرضياً.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾(٣٣)

٣٣- ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ وذلك غاية ما يطمح إليه المرء العاقل من السلام الروحاني في كافة مراحل حياته وبعثه.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾(٣٤)

٣٤- ﴿ذَلِكَ﴾ ما تقدّم من قصّته ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ وُلد بكلمة الحق سبحانه ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يشكّكون ويتنازعون في المسيح، فاليهود رفضوه وزعموا أنه دعيّ، والمسيحية المحرفت عن رسالته إلى دعوة بولس فجعلته إلهاً أو ابن إله.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(٣٥)

٣٥- ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ كما زعم بولس وأتباعه ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزّه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ولا يعجزه شيء.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾(٣٦)

٣٦- قال لهم عيسى، وهو استمرار خطابه من الآية (٣٠): ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وفي ذلك نفي لما زعموه عنه في أوقات لاحقة من الألوهية أو نصف الألوهية.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٣٧)

٣٧- ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ وهي الطوائف المسيحية المتعددة جداً والتي لا تزال تتكاثر حتى اليوم توغل في التنظير لمعرفة (طبيعة) المسيح، لا تريد الإقرار بأنه مجرد بشر ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا على الكفر ﴿مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الآخرة.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٣٨)

٣٨- ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ بعد انكشاف الحجب يوم القيامة لا يبقى لديهم أدنى شك في الحقيقة، ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الغشاوة على أسماعهم وعلى أبصارهم في الدنيا بنتيجة ظلمهم أنفسهم وعدم استخدام مداركهم.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾(٣٩)

٣٩- ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يوم القيامة حيث يكثر التحسّر من الكفار ﴿إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ﴾ بفناء الدنيا وزوال التكليف ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عنه اليوم ﴿وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ بل مصرّون على كفرهم.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾(٤٠)

٤٠- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ تؤول الأمور إلى مَن لا يملك النفع والضرر إلاّ الله تعالى ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ للحساب.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾(٤١)

٤١- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ أي اذكر أيها الرسول، أو أيها القارئ قصة إبراهيم كما وردت في هذا القرآن، الذي يصحح ما ورد في كتب اليهود والنصارى ويهيمن عليها، وهذه القصة الثالثة في السورة بعد قصتيْ زكريا وولده يحيى، وقصة مريم وعيسى، وارتباطها مع ما قبلها أنّ إبراهيم أبا الأنبياء كان يدعو للتوحيد كما دعا إليه المسيح خلافاً لما زعموه عنه.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾(٤٢)

٤٢- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ من الأصنام ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ لا يضرّك ولا ينفعك.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾(٤٣)

٤٣- ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ سواء بالاستدلال العقلاني، أو عن طريق الوحي، انظر شرح آيات [الأنعام ٦/٧٤-٨٢]، ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ مستقيماً.

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا﴾(٤٤)

٤٤- ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا﴾ المغزى؛ إنّ نسب أي من صفات الألوهية لغير الله تعالى، وما في ذلك من إسفاف، ليس سوى عبادة للشيطان رمز المعصية منذ الخليقة، والمشتق اسمه من (شَطَنَ) أي ابتعد كثيراً عن الصواب والمنطق والأخلاق.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾(٤٥)

٤٥- ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ المغزى؛ إنّ ولاية الشيطان التي هي اتّباع وعبادة القيم الزائفة، ونسب من صفات الألوهية لغيره تعالى، والتهالك على دنيا المادة، كلّ ذلك ليس سوى معارضة رضوان الله، فهي أكبر من العذاب نفسه.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾(٤٦)

٤٦- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ تنبذ الآلهة التي نقلّد بها ما عبد الآباء والأجداد ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ عن دعوتك ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بالحجارة ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ دعني وشأني زماناً طويلاً.

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾(٤٧)

٤٧- ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ لطيفاً رفيقاً.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾(٤٨)

٤٨- ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أفارقكم ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان والأوهام ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ وحده ﴿عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ حتى أكون جديراً باستجابة ربّي للدعاء.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾(٤٩)

٤٩- ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ﴾ فارقهم وهاجر إلى بلاد الشام ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهجرَ ما يعبدون من الزيف ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ في بلاد الشام.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾(٥٠)

٥٠- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ أي من الوحي، لأن الرحمة هنا بمعنى الوحي، انظر [هود ٦٣/١١]، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ صاروا قدوة للناس حتى ادّعاهم أهل الأديان كلهم، من يهود ونصارى ومسلمين.

بعد أن ذكرت السورة ببعض التفصيل قصص كل من زكريا ويحيى، ومريم وعيسى، وقصة ابراهيم، تنتقل في الآيات التالية (٥١-٥٨) إلى ذكر بعض أنبياء بني إسرائيل من سلالة إسحاق بن ابراهيم، ثم من جهة ثانية اسماعيل بن إبراهيم الذي من سلالته ختمت النبوّات بالنبي ﷺ، انظر شرح آية [البقرة ١٢٢/٢].

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾(٥١)

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾(٥٢)

٥٢- ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾ جبل الطور في سيناء، والأيمن بمعنى المبارك ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ حتى ناجى ربّه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾(٥٣)

٥٣- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ استجابةً لدعاء موسى، انظر آية [طه ٢٩/٢٠].

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾(٥٤)

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾(٥٥)

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾(٥٦)

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾(٥٧)

٥٧- ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ انظر شرح آية [البقرة ١٤٤/٢] عن رؤيا إدريس.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾ (٥٨)

٥٨- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ لأنهم كانوا يعلمون حق العلم أنهم بمجرد بشر متواضعين حملوا عبء الرسالات الإلهية.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾(٥٩)

٥٩- ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ لم تنتفع الأقوام برسالات الرسل، فتخلّت عنها، بل انحرفت عنها وانكبّت على الدنيا ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ ضلالاً تامّاً وخيبةً ممّا كانوا يظنونه من الصواب، والمعنى أنهم يلقون جزاء هذا الغيّ، إن في دنياهم أو في آخرتهم.

﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾(٦٠)

٦٠- ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ قبل أن يفوت أوان التوبة ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَانُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾(٦١)

٦١- ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ جنات الخلد ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَانُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي بما غاب عن إدراك البشر الدنيوي، فهي فوق كل تصور أو إدراك ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ لا محالة.

﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾(٦٢)

٦٢- ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ لغو الكلام من الذي لا طائل تحته، يصيب الإنسان السوي بالسقم ﴿إِلاَّ سَلامًا﴾ بل يتمتعون بالسلام والهدوء الروحاني الذي يفوق كل سلام ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ من الرزق الروحاني والمادي معاً.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾(٦٣)

٦٣- ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ مَن اتّقى الضلال في حياته، واتّبع الدلائل العقلية والنقلية من رسالات الرسل المشار إليها.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾(٦٤)

٦٤- استمرار الخطاب من الآيات (٥١-٥٧)، بأن ملائكة الوحي تتنزّل على الرسل المشار إليهم:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ رمز قول الملائكة ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من عالم المشاهدة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ من عالم الغيب الذي لا تدركه حتى الملائكة، فكيف

بإدراك البشر؟ ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ من عالم المشاهدة وعالم الغيب ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ لا يفوت من حساب عباده شيء.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾(٦٥)

٦٥- ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ ومن ذلك الصبر على عناد المعاندين والمكابرين والمصرّين على الكفر ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ فهو الله وحده المتفرد بألوهيته، بخلاف ما يزعمون.

﴿وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾(٦٦)

٦٦- بعد أن خصت الآيات المتقدمة من بداية السورة بعث الأنبياء والرسل، تبين هذه الآية وحتى آخر السورة أن الكثرة من الناس لم تنتفع بذلك:

﴿وَيَقُولُ الإِنْسَانُ﴾ المكابر المعاند رغم بعث الأنبياء والرسل ﴿أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ وهو سؤال ينمّ عن استكبار وعنجهية وقصر نظر، لأن القائل يود أن يتصرف في الدنيا على هواه، حيث تكون نهاية المطاف.

﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾(٦٧)

٦٧- ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ فما الذي يمنع من بعثه وحسابه؟ خلافاً لما يتمنّى؟

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾(٦٨)

٦٨- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ المشار إليهم آنفاً ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ مع شياطين أهوائهم التي كانوا يميلون إليها ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ على الركب، مستسلمين لها خانعين.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَانِ عِتِيًّا﴾(٦٩)

٦٩- ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من الخاطئين ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَانِ عِتِيًّا﴾ من العتاة المتجبّرين من كبار القوم الذين لم يكتفوا بالضلال، وإنكار المسؤولية الأخلاقية، بل أضلّوا أتباعهم من الضعفاء والمستضعفين.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾(٧٠)

٧٠- ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا﴾ بنار جهنم ﴿صِلِيًّا﴾ من الأتباع والمتبوعين، كلّ بحسب دوافعه وما يستحقه من عقاب.

﴿وَإِنْ مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾(٧١)

٧١- ﴿وَإِنْ مِنكُمْ﴾ أيها الخاطئون ﴿إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ لأن ارتباط العقاب في الآخرة نتيجة طبيعية لما كانوا عليه في دنياهم، فهو كارتباط السبب بالمسبب، وليس أمراً اعتباطياً.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾(٧٢)

٧٢- ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ثمّ، ليست للتتابع الزمني، بل تفيد العطف، وقد تفيد التكرار، أي إنّ المتقين في منجاة من النار، بدليل الآيتين (٨٥-٨٦)، ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ جزاء وفاقاً.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾(٧٣)

٧٣- هذه الآية بيان لما كان عليه عتاة المجرمين من إنكار وإصرار في دنياهم:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من العتاة الظالمين ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ من المستضعفين ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ الفريق المادي الذي ينكر للدين أي دور؟ أم الفريق الذي يقر به وبالمسؤولية الأخروية؟ ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ يقولون لهم ذلك على سبيل السخرية، لأنهم زعموا أنّ الدين (أفيون) الشعوب، ولأنّ مقاييسهم قريبة الأجل، مادية محضة، يرَوْن الدين عائقاً في سبيل

التقدم، بل في سبيل المنجزات التي لا حدود أخلاقية لها، والتي لم ينتج عنها سوى تخريب البيئة والمجتمعات.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾(٧٤)

٧٤- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا﴾ في الحضارات المادية ﴿وَرِئْيًا﴾ في التقدم المادي، فلم ينفعهم ذلك، لاقتصار سلوكهم وتوجهاتهم عليها.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَانُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾(٧٥)

٧٥- ﴿قُلْ﴾ أيها النبي، وأيها المسلم ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَانُ مَدًّا﴾ وهو دعاء للضالّين بمزيد من الفرص لعلهم يتوبون ويدركون الحقيقة قبل فوات الأوان ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ عندما يفوت كل أمل بالتوبة ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ وذلك الجواب على كلامهم وسخريتهم المشار إليهما بالآية (٧٣).

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾(٧٦)

٧٦- ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ بما يتناسب مع ميولهم الخيّرة وحبلتهم الصالحة ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ من أعمالهم ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ تثمر في الدنيا رزقاً مادياً أو معنوياً، وثوابها في الآخرة، بالمقابل مع أعمال المذكورين بالآية المتقدمة الذين تحبط أعمالهم (الحسنة) منها والقبيحة.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾(٧٧)

٧٧- ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ من أمثال المشار إليهم بالآية (٧٣)، ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ظاناً أن الأمور تقاس بالنجاح الدنيوي المادي لا غير، وأن لا مسؤولية ولا ثواب ولا عواقب.

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾(٧٨)

٧٨- ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ حتى صار على معرفة بمستقبله القريب والبعيد؟ فقد يبور ماله، وقد يخذله أولاده ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَانِ عَهْدًا﴾ المعنى إنّ الغيب بيد الله، فلا يغتر الكافر بحاضره القريب.

﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾(٧٩)

٧٩- ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ من ضلال ومزاعم، والكتابة مجاز مما لا يلزم السؤال عنه، انظر آية [الإسراء ١٣/١٧]، ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ فيكابد العذاب الدنيوي بانهماكه في الماديات، عدا ما ينتظره من عذاب الآخرة.

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾(٨٠)

٨٠- ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ من أموال وأولاد، فلا ينفعونه بعد موته البتّة ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ في منتهى العجز، ليس أمامه سوى العناية الإلهية، إذ هو معتمد عليها بالكليّة.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾(٨١)

٨١- استمرار الخطاب عن أمثال المشار إليهم بالآية (٧٣):

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ والآلهة ليست بالضرورة من الأوثان، فقد تكون آلهتهم من القوى والإمكانات المادية، كالثروات والسلطات الدنيوية التي يتمتعون بها، والقيم الزائفة التي أقنعوا أنفسهم بها، حتى صار تمسكهم بها نوعاً من العبادة.

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾(٨٢)

٨٢- ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ المغزى؛ إنّ القيم الزائفة سوف تخذلهم، كما إن إمكاناتهم المادية لن تدوم ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾ معتقداتهم الباطلة سوف تكون وبالاً عليهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾(٨٣)

٨٣- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ المصرّين على الكفر ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾ تحثهم على المعاصي، لأن حكمته تعالى في الخليقة اقتضت أن تكون الدنيا مسرحاً لصراع الحق والباطل، وأن يكون للمرء مطلق الحرية في قبول الحق أو اتّباع الباطل، باستخدام مداركه العقلية التي كرّمه بها الله تعالى، انظر آية [الإسراء ٧٠/١٧]، ولو شاء تعالى لجعل الناس أمّة واحدة على الهدى، لكن ذلك ينافي الحكمة من التكليف، انظر آية [هود ١١٨/١١]، والشياطين ليس لها من سلطة حقيقية إلاّ على مَن يستجيب لها، انظر آية [إبراهيم ٢٢/١٤].

﴿فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾(٨٤)

٨٤- ﴿فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أيها المؤمن، ولا تغتر بما هم عليه من دنياهم، فذلك ليس بدائم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾ حتى يحين موعد حسابهم.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْداً﴾(٨٥)

٨٥- ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْداً﴾ وفوداً مكرمة.

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ (٨٦)

٨٦- ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ كما لو كانوا قطعاناً عطاشاً يردون البئر.

﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾(٨٧)

٨٧- ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَانِ عَهْداً﴾ المغزى أنّ الحجّة قائمة على كل من وُهب نعمة العقل أن يُفهم السنن الكونية ويتفكّر في هدي الرسل، انظر شرح آية [البقرة ٢٧/٢]، والشفاعة تكون للمرتضى والتائب.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا﴾(٨٨)

٨٨- استمرار الخطاب من الآية (٨١): ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا﴾ وهي الطوائف المسيحية، زعمت أن المسيح ابن الله بعد أن انحرفت عن نصرانية عيسى عليه السلام إلى الديانة المسيحية التي ابتدعها بولس، انظر شرح آية [آل عمران ٣/٣].

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾(٨٩)

٨٩- ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ منكراً عظيماً.

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾(٩٠)

٩٠- ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ من قول هذا المنكر ﴿وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾.

﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا﴾ (٩١)

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾(٩٢)

٩٢- ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ لأن مثل هذا القول يفترض النقص في ذات الله، تعالى عمّا يقولون علواً كبيراً.

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَانِ عَبْدًا﴾ (٩٣)

٩٣- ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَانِ عَبْدًا﴾ بمن فيهم عيسى المسيح الذي زعموا فيه الألوهية، وزعموا أنه ابن الله.

﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾(٩٤)

٩٤- ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ﴾ أحصى أعمالهم ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ لا يفوته منهم أحد.

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾(٩٥)

٩٥- ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا﴾(٩٦)

٩٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا﴾ فينشر محبتهم بين الناس، ومن جهتهم يحبون ويتمنّون الخير والهداية لغيرهم من خلق الله.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾(٩٧)

٩٧- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ أي القرآن الكريم ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أيها النبي ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ من أمثال المشار إليهم بالآية (٨٧)، ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ الذين يختلقون شتّى الحجج الواهية لمحاولة دحض رسالة القرآن.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾(٩٨)

٩٨- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ من المجتمعات هلكت بسوء أعمالها ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ المعنى لا تسمع لهم صوتاً خفياً ولا ظاهراً.

سورة طه -٢٠-

مكية

مقدمة

نزلت خلال السنة السادسة من بعثة النبي ﷺ، أي حوالي سبع سنوات قبل الهجرة.

ارتباط السورة بما قبلها

اختتمت سورة مريم المتقدمة بأنه تعالى يسّر نزول القرآن الكريم على البشرية بلسان نبيه محمد ﷺ بشيراً ونذيراً: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ (٩٧/١٩)، ثم افتتحت سورة طه بأن نزول القرآن على البشرية لم يكن تضييقاً لها، وإنما تعميقاً لشعورها بالحق والباطل: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (٢٠/١-٣)، ولبيان أخبار ما سبق من بعث الرسل: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ (٩٩/٢٠)، وعاقبة الإعراض عن هدي القرآن: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ (١٠٠/٢٠)، وحث الناس على التقوى، وتذكرة بالميثاق الفطري المأخوذ عليهم في الأصلاب: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (١١٣/٢٠).

وقد أجملت سورة مريم تتابع الرسالات بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (٥٨/١٩)، كما فصّلت في بعثتيْ يحيى وعيسى عليهما السلام بالآيات (٢/١٩-٣٧)، وقدّمت لبعثتيْ موسى وهارون عليهما السلام بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ

الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (١٩/٥١-٥٣)، ثمّ في سورة طه تفصيل بعثتيْ موسى وهارون بالآيات (٢٠/٩-٩٨).

وفي سورة مريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا﴾ (١٩/٩٦)، ومِن تفصيله قوله تعالى في سورة طه مخاطباً موسى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ (٢٠/٣٩)، فيكون العبد الصالح محبوباً من الله ومن الناس.

وفي سورة مريم إن الكفار يعدّون ازدهارهم ومتاعهم الدنيوي مقياساً وحيداً لنجاحهم، دون النظر لأي مقاييس أخلاقية: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ (١٩/٧٣)، وفي سورة طه تحذير من الاغترار بما ينعمون به من الدنيا: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (٢٠/١٣١).

محور السورة

القرآن الكريم نزل على البشرية فرقاناً لتعميق شعورها بالحق والباطل وليس تضييقاً لها: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (١-٣)، والخطاب في قوله تعالى: ﴿طه﴾ بمعنى أيها الإنسان.

والمقصود من العبادة تكييف النفس الإنسانية لما خُلقت لأجله، ولكيْ يعرف الإنسان خالقه ويكيّف وجوده الدنيوي بحسب إرادته تعالى المبيّنة فيما نزل على الأنبياء والرسل من الوحي، وهو ما تؤكده السورة بقوله تعالى مخاطباً موسى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤)، ولأن العبادة لا يستفيد منها سوى المخلوق مما ينمّي مداركه الفكرية، انظر آيات الذاريات (٥١/٥٦-٥٧)، وأن مغزى الخلق لا يتضح ولا يكتمل إلا على خلفية الدار الآخرة: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ (١٥).

ولذا وجَبَ أن تتسم الدعوة بالرفق وباللين وبدافع الأمل والرجاء من قبل الداعي: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٤٣-٤٤)، وبالمقابل يكون التكالب على مكاسب الدنيا سبباً للمكابرة والجحود: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى﴾ (٥٧)، وأن مفهوم الإنسان للزمن الدنيوي ليس سوى وهم، ما قد يودي به إلى الهاوية: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ (١٠٣-١٠٤)، لأنّ الجاحد يجري وراء مادية الدنيا ظانّاً أنه يخلد أبد الدهر ناسياً آخرته: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ (١٢٠).

فَعَلى المرء أن يستوعب القرآن بنظرة شمولية متكاملة، وليس بنظرة مجتزأة لبعض الآيات والسور: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١١٤)، وأن من يُعرض عن الذكر يحيا حياةً دنيوية مادية عقيمة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ (١٢٤)، وأن القرآن الكريم نزل على البشرية مبيناً لها حقيقة ما سبق من الكتب المُنزَلة: ﴿وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ (١٣٣).

وإنّ من طبيعة النفس البشرية أن يظن كل امرئ، بغض النظر عن معتقده، أن أسلوبه في الحياة هو الصحيح ثم لا يدرك الحقيقة وعاقبة أمره إلا بعد الفوات: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنْ اهْتَدَى﴾ (١٣٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه﴾(١)

١- ﴿طه﴾ قال بعض المفسرين إنّ طه من الحروف المقطّعات، انظر شرح آية [البقرة ٢/١]، ومع ذلك فإنّ كلمة (طه) ذات معنى في اللهجات السريانية

والنبطية والحبشية والعبرية المنبثقة عن العربية، ولا بد أنها مطابقة أيضاً للغة قريش، ومعناها: (يا رجل)، وبعبارة أخرى: (أيها الإنسان).

﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾(٢)

٢- ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أيها الإنسان ﴿لِتَشْقَى﴾ لم ينزل القرآن الكريم على البشرية تضييقاً عليها ولا تقييداً لها.

﴿إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾(٣)

٣- ﴿إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ وذلك المقصود من النظام الأخلاقي الذي نزل به القرآن الكريم، أي لتعميق شعور الإنسان بمقاييس الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، فهو لتحقيق سعادة البشر وليس لشقائهم، وهو أيضاً تذكرة للعباد وليس قسراً، وذلك من جملة تكريمه تعالى لبني آدم، انظر آية [الإسراء ٧٠/١٧].

﴿تَنزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلا﴾(٤)

٤- ﴿تَنزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلا﴾ القرآن الكريم نُزّل تنزيلاً، أي منجّماً على مدة البعثة النبوية، من خالق الأرض والسماوات، لتحقيق مصالح العباد.

﴿الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(٥)

٥- ﴿الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كناية عن هيمنته تعالى على خلقه، وتدبيره له بلا حدود، ومن ذلك نزول القرآن، وقد تكرر تعبير الاستواء على العرش في القرآن الكريم سبع مرات، انظر آيات [الأعراف ٥٤/٧]، [يونس ٣/١٠]، [الرعد ٢/١٣]، [طه ٥/٢٠]، [الفرقان ٥٩/٢٥]، [السجدة ٤/٣٢]، [الحديد ٤/٥٧].

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾(٦)

٦- ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ من عالَم المشاهدة ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من عالَم الغيب، ما يغيب عن إدراك البشر ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ما لا يُرى بالمشاهدة.

﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾(٧)

٧- ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ أيها الإنسان ﴿فَإِنَّهُ﴾ تعالى ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ ما يدور في خاطرك من أفكار ﴿وَأَخْفَى﴾ كما يعلم ما يدور في عقلك الباطن من نوايا، فلا تخفى على مُنزّل القرآن خافية.

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(٨)

٨- ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ صفات الكمال لُمنزّل القرآن وحده، وقد تكرّر تعبير الأسماء الحسنى في القرآن الكريم أربع مرات، انظر قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف ١٨٠/٧]، أيضاً في آيات [الإسراء ١١٠/١٧]، [طه ٨/٢٠]، [الحشر ٢٤/٥٩].

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾(٩)

٩- استمرار الخطاب من الآيات (٢-٤) في التنزيل الحكيم: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ أيها النبي، أو أيها القارئ، أو أيها المستمع ﴿حَدِيثُ مُوسَى﴾ فيما يرويه القرآن الكريم تصحيحاً لما ورد عن قصة موسى في كتب اليهود، وبياناً لوحدة الرسالات السماوية إلى بني البشر؟.

﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾(١٠)

١٠- ﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ وهو في طريق عودته من مَدين بعد هروبه من مصر، ثمّ قضائه الأجل المتفق عليه مع حميه، انظر سورة [القصص ٢١/٢٨-٢٩]، ﴿فَقَالَ لأَهْلِهِ﴾ لعائلته ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أبصرتُ ناراً عن بُعد ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ جذوة من النار ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ المغزى؛ إنه

كان تائهاً ليس فقط في الصحراء، فقد يكون التيه روحانيّاً، وقد يكون ذلك بداية إدراك موسى أنه بحاجة إلى الهداية الروحانية.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى﴾(١١)

١١- ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ بعد وصوله إلى النار ﴿نُودِيَ﴾ بنداء النبوّة ﴿يَامُوسَى﴾.

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾(١٢)

١٢- ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ تشريفاً للوادي وتواضعاً لله تعالى، قال الألوسي: المعنى أيضاً على المجاز؛ أي فرّغ قلبك من الدنيا ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ قال الزمخشري: الوادي طُوى بمعنى ثنى، لأنه قُدّس مرّتين، الأولى بندائه تعالى إلى موسى، والثانية برفع موسى إلى مصاف النبوّة.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾(١٣)

١٣- ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ رسولاً ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ سوف يوحى إليك.

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾(١٤)

١٤- ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ تأكيداً على التوحيد ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ لمعنى العبادة انظر شرح آيات [الذاريات ٥١/٥٦-٥٨]، ﴿وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ وهكذا تُقرّر الآية أنّ التوحيد وذكر الله هو المغزى، كما أنّه المبرر الفكري للعبادة والصلاة الحقيقية، في كل الأديان.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾(١٥)

١٥- ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ تكاد تكون خافية عن الغافلين، مع أنّ كل ما في الكون يشير إليها، فلا يعقل أن تكون الدنيا نهاية المطاف، إذ لا تستقيم العدالة إلا بوجودها: ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ كل ما يتعمّد

المرء القيام به، أو ما يتعمّد تجنب القيام به من أفعال أخلاقية أو لا أخلاقية، يُجزى عليه، إن خيراً فخير، أو شراً فشر، انظر آية [الزلزلة ٩٩/٧-٨].

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾(١٦)

١٦- ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ ياموسى، أو أيها الإنسان، لأن الخطاب في أول السورة إلى ﴿طه﴾، المعنى: لا يصدّنّك عن الإيمان بالآخرة ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ فظنّ أنّ الدنيا نهاية المطاف ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ظانّاً أن لا حساب ولا ثواب ولا عقاب، فانهمك في دنياه ونسي آخرته ﴿فَتَرْدَى﴾ تصل إلى الهلاك المحتوم، بالدمار الروحاني في الدنيا، إضافة إلى عذاب الآخرة.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى﴾(١٧)

١٧- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى﴾ انتقال الخطاب لبيان المعجزات التي سيقوم بها موسى، والسؤال سؤال تقرير، وهو بداية الحوار عندما كلم الله موسى تكليماً، انظر [النساء ٤/١٦٤].

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾(١٨)

١٨- ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ عندما يثقلني الجهد ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ أخبط بها أغصان الشجر حتى تتساقط فتأكله الغنم ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ كالدفاع عن النفس، وحمل الزاد والماء.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى﴾(١٩)

١٩- ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى﴾ قال الرازي إلقاء العصا كناية عن ترك الطلب، أي الاستغناء عن الدنيا، كما كان خلع النعلين كناية عن تحمل المسؤولية وترك الهرب.

﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾(٢٠)

٢٠- ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ وهذه المعجزة الأولى لموسى استعداداً لبعثته إلى فرعون، لأن المصريين كانوا يعتقدون أن الثعبان المسمى أبوفيس Apophis كان عدواً لإله الشمس (رع) عندهم، إذ كان الثعبان أبوفيس يلاحق الإله (رع) يومياً وهو في رحلته حول الشمس، ولم يفلح (رع) في قتله، لذا كان المصريون يقومون ببعض الطقوس ضد الثعبان تفادياً للفوضى التي كان يمكن أن يحدثها في عالمهم!! فكان في معجزة موسى بتحويل العصا إلى ثعبان تعريض بثعبانهم أبوفيس.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾(٢١)

٢١- ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ عصا كما كانت.

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾(٢٢)

٢٢- ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ يشع البياض منها دون أن يكون بها ما يسيء الناظرين إليها ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ معجزة أخرى، بعد معجزة العصا.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾(٢٣)

٢٣- ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ طمأنة لك، و ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، أي هذا غيض من فيض.

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾(٢٤)

٢٤- ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ بادعائه الألوهية، وهي أكبر خطيئة يمكن لإنسان أن يرتكبها.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾(٢٥)

٢٥- ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ العرب تسمي الغم والهم ضيق صدر، ونقيضه شرح الصدر، أي إن موسى أراد أن يقابل فرعون وهو في حالة من

الانشراح النفسي، ونزول السكينة والطمأنينة عليه، وذلك نقيض الرهبة والقلق، انظر آية [الرعد ٢٨/١٣].

﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾(٢٦)

٢٦- ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ بالألطاف الإلهية، بعد طلب الانشراح النفسي، أراد موسى أن تكون أموره مع موسى ميسورة غير متعثرة ولا صعبة المنال.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾(٢٧)

٢٧- ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ لأن موسى لم يكن طليق اللسان، ولا مفوّهاً في الخطاب، فدعا ربّه ألاّ تكون هذه الخصلة عائقاً في دعوته فرعون إلى الحق.

﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾(٢٨)

٢٨- ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ لكي يفقه فرعون وآله دعوته لهم بوضوح، دون التباس أو غموض.

﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾(٢٩)

٢٩- ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ معاوناً يحمل معي الوزر، أي الحمل الثقيل، وهذا هو معنى الوزير أي الذي يساهم في الحمل.

﴿هَارُونَ أَخِي﴾ (٣٠)

٣٠- ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ ذاته.

﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾(٣١)

٣١- ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ أي ظهري، فيضم إمكاناته إلى إمكاناتي، وهو أفصح لساناً مني، انظر آية [القصص ٣٤/٢٨].

﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾(٣٢)

٣٢- ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ في أمر النبوة والرسالة إلى فرعون، وإلى بني إسرائيل من بعده.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾(٣٣)

٣٣- ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ بالقول وبالفعل وبالاعتقاد.

﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾(٣٤)

٣٤- ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ بصفات الجلال والكبرياء.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾(٣٥)

٣٥- ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ بصيراً بوجوه مصالحنا، فأعطنا ما هو أصلح لنا، تفويضاً لأمورنا لك بالكلية.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى﴾(٣٦)

٣٦- ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى﴾ قد استجبنا لطلبك، لأن السؤل هو الطلب.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾(٣٧)

٣٧- ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ بأن أحببناك إلى طلبك، وتلك الاستحابة من عظيم نعمه تعالى على موسى، إضافة إلى ما سبق من نعمه العظام عليه منذ ولادته، كما سيرد بالآيات التالية، والقصة مذكورة بمزيد من التفصيل في آيات [القصص ٢٨/٣-٢١].

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾(٣٨)

٣٨- ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ ما يجب أن يوحى بالإلهام.

﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾(٣٩)

٣٩- ﴿أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ في صندوق ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ في نهر النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ بفعل التيار والأمواج ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ وهو فرعون ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ﴾ يا موسى ﴿مَحَبَّةً مِنِّي﴾ فاحبه الناس، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا﴾ [مريم ١٩/٩٦]، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ بالألطاف الإلهية.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى﴾(٤٠)

٤٠- ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ فتقوم بإرضاعك ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ في مصر بعد أن بلغت أشدّك ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ بهروبك إلى أرض مدين ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ بهذه الأحداث ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ حيث قضيت الأجل من ثماني إلى عشر سنين ﴿ثُمَّ جِئْتَ﴾ سيناء بالوادي المقدس طوى ﴿عَلَى قَدَرٍ﴾ في علم الله القديم ﴿يَامُوسَى﴾.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(٤١)

٤١- ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ رسولاً لبعثتك إلى فرعون أولاً، ثم رسولاً إلى بني إسرائيل ثانياً.

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾(٤٢)

٤٢- ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ برسالاتي ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ لا يعتريكما الفتور ولا الضعف في ذكري على الدوام.

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾(٤٣)

٤٣- ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ فقد تجاوز كل الحدود بادعاء الألوهية، واستعبد الناس.

﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(٤٤)

٤٤- ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ إشارة إلى تعليم كيفية الإرشاد، وإلاّ فإن علم الله القديم محيط بأنّ فرعون لن يؤمن، وهذا أحد جوانب مغزى القصة، لأن اللين والرفق في الدعوة مطلوب في كل الأوقات والعصور.

﴿قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾(٤٥)

٤٥- ﴿قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ قد يعجل علينا بالعقوبة والأذية، وقد يقتلنا على الفور، وقد ينفينا أو يطردنا، قبل أن نتمكن من إبلاغه الرسالة أولاً ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ فيتخطى حدوده ويقول في الله تعالى ما لا ينبغي.

﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾(٤٦)

٤٦- ﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ فلا يصل إليكما بما تخافا.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾(٤٧)

٤٧- ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ أي لك ربٌّ، هو ربّ الأرباب، ولست إلهاً كما تظنّ وتدّعي ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أطلقهم من عبوديتك في مصر ﴿وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾ العذاب الذي لبثوا فيه بعد وفاة يوسف عليه السلام، وخروج الهكسوس من مصر، قرابة ثلاث مئة عام ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ برسالة ﴿وَالسَّلامُ﴾ الروحاني في هذه الدنيا ﴿عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ مَن اتّبع هدى ربّه، أمّا مَن تهالك على دنياه، وادّعى فيها الألوهية فإن له فيها معيشة ضنكاً.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾(٤٨)

٤٨- ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ﴾ الأنبياء والرسل ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الذكر.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى﴾(٤٩)

٤٩- ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى﴾ خطاب فرعون موجّه إلى موسى، لأن فرعون سبق أن زعم أنه الرب لقوله: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات ٢٤/٧٩].

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(٥٠)

٥٠- ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ فهذا ظاهر في عملية الخلق المستمرة والمتجددة على مر العصور والأزمان، وما على فرعون سوى أن يلتفت حوله ويتأمل ويشاهد الآيات الآفاقية حتى يفيق من غفلته، ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ هدى تعالى مَن شاء الهداية، وهدى كل مخلوق لتحقيق ما هو مقدر له في دنياه على قدره، ونظيره قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (*) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (*) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٨٧/١-٣].

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾(٥١)

٥١- ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ يعني الأمم البائدة التي عبدت العديد من الآلهة؟ حيث تزعم الآن يا موسى أنها لن تنجوا من العقاب؟

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾(٥٢)

٥٢- ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ لا شأن لي بها، فهذا من أمور الغيب، استأثر الله بعلمه، وليست وظيفتي أن أخبرك بمصيرها، ولا عقابها، أو إن كان قد غُفر لها، فهذا من شأن ربّ الأرباب وحده، يقرر مصيرها في الحياة الآخرة، فهو يعلم دوافعها وأخطاءها ويقرر أخلاقياتها من عدمها ﴿فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ لا يغيب عن علمه القديم شيء.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾(٥٣)

٥٣- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ الخطاب تعريض بمدّعي الألوهية فرعون الذي لا يقدر على شيء من ذلك.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾(٥٤)

٥٤- ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾ أي ذوي العقول الراجحة، وفرعون ليس منهم.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾(٥٥)

٥٥- ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ من الأرض، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر ١٥/٢٦]، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بعد وفاتكم ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ للبعث والحساب.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾(٥٦)

٥٦- ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ رسالاتنا، ومعجزاتنا ﴿كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ الاستجابة.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى﴾(٥٧)

٥٧- ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى﴾ أي لتحرمنا من حكم مصر؟ وتستولي عليها، وتخرج أهلها منها؟ وهكذا كان تركيز فرعون على مكاسبه الذاتية وموقعه الطغياني الذي تمسّك به.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾(٥٨)

٥٨- ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ سوف نتحدى سحرك ولك الخيار أن تحدد الموعد والمكان.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾(٥٩)

٥٩- ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ يبدو أنه يوم رأس السنة عند قدامى المصريين ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ على رؤوس الأشهاد.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾(٦٠)

٦٠- ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ ما يكاد به من السحرة ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ الموعد ومعه جمعه.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾(٦١)

٦١- ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تتعمّدوا، أيها السحرة، تكذيب الرسالة الإلهية ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ يستأصلكم ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ الكذب على الله.

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾(٦٢)

٦٢- ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ للتشاور سرًّا فيما بينهم.

﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾(٦٣)

٦٣- ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ موسى وهارون ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾ فيستولوا على أرض مصر، أو يحلوا مكانكم عند فرعون ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ التي تتلاعبون بواسطتها بالجماهير وتعززون حكم فرعون.

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾(٦٤)

٦٤- ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ ما تكيدون به موسى وهارون ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ واحداً ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ على الطرف الآخر.

﴿قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾(٦٥)

٦٥- ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ عصاك أوّلاً ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ حبالنا وعصيّنا.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾(٦٦)

٦٦- ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ إظهاراً لعدم المبالاة ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ أي إن السحر مجرد خيال، وما قام به السحرة لم يكن سوى تخييل وهلوسة وقعت الجماهير تحت وطأتهما، حتى موسى نفسه وقع تحت وطأتها موقتاً.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾(٦٧)

٦٧- ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ استشعر في نفسه الخوف، لما شعر به من الهلوسة.

﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾(٦٨)

٦٨- ﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ لأنهم يتلاعبون بالسحر، وأنت جئتهم بالرسالة الإلهية.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾(٦٩)

٦٩- ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ عصاك ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ تأخذه بسرعة وتبطل السحر، انظر شرح [الشعراء ٢٦/٤٥]، ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ ليس سوى تخييل ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ سواء كان يهدف إلى الخير أو إلى الشرّ، والمغزى؛ إدانة السحر بكل أشكاله بغض النظر عن قصد صاحبه إن كان خيراً أو شراً.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾(٧٠)

٧٠- ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ لشدة ذهولهم إذ اكتشفوا الفرق بين الدجل والحقيقة ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ المبعوثين من العناية الإلهية الحقيقية.

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾(٧١)

٧١- ﴿قَالَ﴾ لهم فرعون ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أن تستسلموا له ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ عدَّ فرعون موسى كبير السحرة، قد تآمر مع مجموعته ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ لشدة مخالفتكم لي ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ التقطيع والتصليب، غير القتل والصلب، وهو دليل على كثرة السحرة الذين حشدهم فرعون للمواجهة.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾(٧٢)

٧٢- ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ لن نفضلك ﴿عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ من الحق ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ أبدعنا وأوجدنا، الله سبحانه ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ فلا سيطرة لك على أفكارنا وعقيدتنا ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ولا تدري ما الآخرة؟

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(٧٣)

٧٣- ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ التي ارتكبناها قبل أن ندرك الرسالة الإلهية ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ لأن إتيان السحر مُدان ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ من ملكك الفاني.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾(٧٤)

٧٤- ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا﴾ لا يُقضى عليه ويجد السلام في الفناء، بل يعاني فيها من الغم والهم، انظر [الحج ٢٢/٢٢]، ﴿وَلا يَحْيَا﴾ ولا يجد السلام في ولادة روحانية جديدة.

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلا﴾(٧٥)

٧٥- ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ الإيمان لا يستقيم ولا ينفع صاحبه من دون العمل الصالح ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلا﴾ في الآخرة، انظر [الأنعام ١٥٨/٦].

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾(٧٦)

٧٦- بيان الدرجات العلا: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ النعيم الخالد ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ مَن توصّل إلى الطهارة الروحية من كل أنجاس الباطل والشهوات والضلال.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى﴾(٧٧)

٧٧- ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ إلى أرض الحرية فلسطين، بعد انقطاع الأمل في إيمان فرعون وصحبه، انظر [الأعراف ١٣٠/٧]، ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا﴾ فلا يدركك فرعون بالمطاردة ﴿وَلا تَخْشَى﴾ بأسه.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾(٧٨)

٧٨- ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ ما لايمكن مقاومته من طغيان البحر، ولم ينفع فرعون إيمانه عند الغرغرة، عندما غرق مع جيشه في البحر، انظر [يونس ٩١/١٠].

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾(٧٩)

٧٩- ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ أصرّ المتبوعون على الضلال، فضلّ الأتباع.

﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾(٨٠)

٨٠- ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾ جبل الطور، والأيمن أي المبارك، لأن العرب تقول أيمن وميمون تفاؤلاً، وهو الجبل الذي نزلت فيه التوراة على موسى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ بلا أي مجهود منكم، منّةً من الله تعالى، وهو معنى أو مغزى المَنّ، أي الرزق المادي، بغض النظر عن كونها قد تعني طيور السمّان.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾(٨١)

٨١- ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ فيما رزقناكم من النعم، فتظنّون أنكم مستحقوها بجدارتكم، أو بنسبكم إلى أبيكم إبراهيم ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ فكأنه وقع في الهاوية.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾(٨٢)

٨٢- ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ عن خطاياه ﴿وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ إلى الحق.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى﴾(٨٣)

٨٣- ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى﴾ يعني تركتهم وحثت إلى الطور قبل أن تستقر الرسالة في نفوسهم، وتختمر في عقولهم، استعجلت وتركتهم، بعد طول عبوديتهم لفرعون، وكان الأحدر بك ألاّ تفعل ذلك.

﴿قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾(٨٤)

٨٤- ﴿قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ قد يكون قالها مجازاً يقصد أن قومه تفهموا الرسالة واستوعبوها بعد أن لقنهم إياها، أي هم على أثره في فهمها وفهم التوحيد ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ فلا خوف أن تركتهم بمفردهم.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾(٨٥)

٨٥- ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ أي على عكس ما تظنّ، فالإيمان لم يتأصلّ فيهم، بل إن السامري أضلّهم: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ وهو أحد المصريين الذين انضموا إليكم من مصر، لأن (شمر) باللغة المصرية القديمة معناها الأجنبي أو الغريب، أي هو أجنبي عن بقية بني إسرائيل، وإن اعتنق ديانتهم، ويحتمل أن تكون الطائفة اليهودية السامرية المعروفة، والتي لا تزال بقاياها تعيش إلى اليوم في نابلس من السلالة المصرية، مما يفسر إلى حدّ ما العداوة المتأصلة بين السامريين وبين باقي المجتمع الإسرائيلي.

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾(٨٦)

٨٦- ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ في الدنيا بنجاتكم من فرعون، وما كان ينتظركم من ثواب الآخرة؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ مازلتم حديثي العهد بالرسالة، فما بالكم تخليتم عنها؟ ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بدلاً من ثوابه ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ ولم تكترثوا بالرسالة الإلهية.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾(٨٧)

٨٧- ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ لم يكن ذلك بملء إرادتنا ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ من حلي المصريين، أخذناها منهم قبل رحيلنا على محمل بأعذار كاذبة زاعمين أنها برسم الإعارة، ولذا فهي أوزار، ذنوب، نحمل

وزرها فوق ظهورنا ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ في النار التي أوقدها السامري ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أيضاً ما لديه من حليّ الذهب.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾(٨٨)

٨٨- ﴿فَأَخْرَجَ﴾ السامريّ ﴿لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ كالعجل الذهبي Apis الذي كان يعبده المصريون في معبد ممفيس Memphis ﴿فَقَالُوا﴾ الذين عبدوا العجل الذهبي ﴿هَـذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ لأن موسى نفسه كان في بلاط فرعون قبل هروبه إلى مدين ﴿فَنَسِيَ﴾ زعمَ السامريّ أن موسى نسي ماضيه في البلاط حيث كانوا يعبدون العجل.

﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾(٨٩)

٨٩- ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾ لا يستجيب لهم ﴿وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـانُ فَـاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾(٩٠)

٩٠- ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ على النقيض من مزاعم السامري ﴿يَـاقَوْمِ إِنَّمَـا فُتِنتُـمْ بِهِ﴾ بالعجل الذهبي ﴿وَإِنَّ رَبَّكُـمُ الرَّحْمَـانُ﴾ وحده ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾(٩١)

٩١- ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ على العجل الذهبي ﴿عَاكِفِينَ﴾ نعبده ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾.

﴿قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾(٩٢)

٩٢- ﴿قَالَ﴾ موسى لأخيه بعد عودته ﴿يَاهَارُونُ مَـا مَنَعَـكَ﴾ ألاّ تتبعني، وتمنعهم من غيّهم ﴿إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ عن الصواب.

﴿أَلاَّ تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾(٩٣)

٩٣- ﴿أَلاَّ تَتَّبِعَنِي﴾ لماذا لم تتبعني ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾؟

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾(٩٤)

٩٤- ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ يا بن أمي، أي يا أخي ﴿لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قد يكون قصده التفريق بين المصريين منهم وبين العبرانيين ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ في بقائهم موحّدين.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ﴾(٩٥)

٩٥- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ﴾ ما سبب هذا العمل الذي عملته؟

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾(٩٦)

٩٦- ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ من حاجة القوم إلى تجسيد الإله ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ الرسول هو موسى نفسه، وأثره هو جانب من الرسالة الإلهية التي جاء بها ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي نبذتُ بعضاً من رسالته، وتجاهلتها ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ زينت لي نفسي ذلك وحسّنته في نظري.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾(٩٧)

٩٧- ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ﴾ سوف تعيش منبوذاً وحيداً معزولاً عن الناس ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ في الآخرة ﴿وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾ العجل الذهبي ﴿الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾ تعبده ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾ فنلقي ما تبقّى منه في البحر.

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾(٩٨)

٩٨- ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ لا شريك له ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ينقذ عباده من مذلة الشرك.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾(٩٩)

٩٩- ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أيها النبي، وأيها القارئ والسامع ﴿مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ ما لم تكن تعرف ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ أي القرآن الكريم، يذكر الناس بميثاقهم الفطري، انظر [الأعراف ١٧٢/٧]، وفيه عودة لأول السورة بعد انتهاء قصة موسى وفرعون وبني إسرائيل.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾(١٠٠)

١٠٠- الخطاب في الآيات (١٠٠-١١٤) في القرآن الكريم، ووصف أحوال الآخرة: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ عن القرآن الكريم ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ حملاً وإثماً كبيراً.

﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾(١٠١)

١٠١- ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ في وزر تجاهلهم القرآن الكريم وإعراضهم عنه ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ لأنهم عموا حقيقة القرآن في دنياهم.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾(١٠٢)

١٠٢- ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ على عيونهم غشاوة زرقاء، فكأنهم عميٌ.

﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا﴾(١٠٣)

١٠٣- ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يهمسون بصوت منخفض ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا﴾ يفوتهم مفهوم الزمن ونسبيته.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾(١٠٤)

١٠٤- ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ الله سبحانه وتعالى وحده أعلم بما يدور في نفوسهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أعدلهم رأياً وأرجحهم عقلاً ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ يتخبّطون في مفهوم الزمن.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾(١٠٥)

١٠٥- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ أيها النبي ﴿عَنِ الْجِبَالِ﴾ يوم القيامة كيف تكون؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ حتى تصبح غباراً.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾(١٠٦)

١٠٦- ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ تصبح أرضاً مستوية عارية عن النبات.

﴿لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾(١٠٧)

١٠٧- ﴿لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ تصير في تمام الاستواء، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم ٤٨/١٤]، أي هي من أمور الغيب وخارج تصور البشر.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾(١٠٨)

١٠٨- ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ صوت الداعي ﴿لا عِوَجَ لَهُ﴾ لا ينفك عنه أحد ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾(١٠٩)

١٠٩- ﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ وهي شفاعة رمزية يشرّف بها تعالى الأنبياء والتقاة، ولا تكون إلاّ لمن يستحقها من التالبين.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾(١١٠)

١١٠- ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من عالم المشاهدة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾من عالم الغيب ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ لا يحيط علمهم بعلمه تعالى، لاتصافه سبحانه بالكمال والعلم الشامل القديم.

﴿وَعَنَتْ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾(١١١)

١١١- ﴿وَعَنَتْ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ ذلّت وخضعت ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ إلى آخره.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾(١١٢)

١١٢- ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن الإيمان شرط في صحة الطاعات وقبول الأعمال والحسنات، انظر [النور ٣٩/٢٤]، ﴿فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾ لا يهضم له حق بل يوفّاه، ويجزى بأحسن ما عمل، انظر [النحل ٩٦/١٦].

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾(١١٣)

١١٣- ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بلسانهم، أي العرب أحدر بفهمه من غيرهم، ومن ثم هم على مستوى أعلى من المسؤولية والحساب ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ذوو العقول الراجحة منهم ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ في قلوبهم، فيتذكروا الميثاق الذي فُطروا عليه.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(١١٤)

١١٤- ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ عن كل ما لا يليق بجلاله ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ الخطاب عام كما هو واضح من أول السورة بقوله ﴿طه﴾، والمعنى: احذر أيها القارئ من قراءة القرآن قراءة مجتزأة،

بل عليك النظر إليه نظرة كلية شاملة، لأنه يفسر بعضه بعضاً ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ في علوم القرآن وغيره.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾(١١٥)

١١٥- عودة الخطاب إلى الآية (٩٩)، وقصة الخليقة حتى الآية (١٢٧)، وما فيها من عبر:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ﴾ إشارة للآية (١١٧)، ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ كناية عن ضعف النفس البشرية، انظر آية [النساء ٢٨/٤].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾(١١٦)

١١٦- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ سجود تكريم لجنس البشر لما علّمه من الأسماء كلها ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ لأن الحكمة الإلهية اقتضت أن تبقى الدنيا مسرحاً لصراع الحق والباطل.

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾(١١٧)

١١٧- ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا﴾ إبليس ﴿عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يحاول الإيقاع بكما ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾(١١٨)

١١٨- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ لا تشعر بالجوع في الجنة ﴿وَلَا تَعْرَى﴾ ولا تشعر بالعري، أي على النقيض مما هو مذكور بالآية (١٢١) حيث بدت لهما سوءاتهما.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾(١١٩)

١١٩- ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ فلا تعاني من أشعة الشمس.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾(١٢٠)

١٢٠- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ ممّا يدل أنّ هاجس الإنسان من البداية كان توقه إلى الخلود، انظر [الأعراف ٢٠/٧]، وأنّ شجرة الخلد المشار لها ليست سوى رمز للحدود التي وضعها تعالى لرغبات الإنسان التي إن تجاوزها لم يضر سوى نفسه وطبيعته التي خلق لأجلها، وأنّ توق الإنسان للخلود ليس سوى رغبة منه في إنكار الموت، ومن ثم إنكار البعث والحساب والمسؤولية، ومن ثم التوصل إلى ما أشار إليه الشيطان بقوله: وملك لا يبلى، وما في ذلك من إنكار الإله وإنكار المغزى من الحياة.

﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾(١٢١)

١٢١- ﴿فَأَكَلا مِنْهَا﴾ من شجرة الخلد المزعومة ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ ما يسوؤهما النظر إليه ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ ولباس التقوى ذلك خير، انظر [الأعراف ٢٦/٧]، والعري هنا كناية عن الإخفاق والعجز ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ خاب عمله وضلّ، واكتشف عجزه المطلق واعتماده الكليّ على الخالق.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾(١٢٢)

١٢٢- ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ اصطفاه ووفقه للتوبة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قبل توبته ﴿وَهَدَى﴾ هداه إلى الصراط المستقيم.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾(١٢٣)

١٢٣- ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ انتقال الخطاب إلى الجمع، كناية عن الجنس البشري بكامله ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأن الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون الدنيا مسرحاً لصراع الحق مع الباطل ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ﴾ عن الصراط المستقيم ﴿وَلا يَشْقَى﴾ في دنياه وآخرته، بخلاف مَن يُعرض عن هدي الأنبياء والرسل.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾(١٢٤)

١٢٤- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ عن القرآن الكريم، وعن هدي الرسل من قبله ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ ضيقة شديدة، مادية عقيمة خالية من أي مغزى روحاني ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ استمراراً لما كان عليه في دنياه من عمى البصيرة.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾(١٢٥)

١٢٥- ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ لم يدرك عمى بصيرته في دنياه.

﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾(١٢٦)

١٢٦- ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا﴾ رسالات الرسل ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ أعرضت عنها، ولم تكترث بها ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ بما نسيت في دنياك، فُتترك في العمى الروحاني، والمعنى أن حياة الآخرة أو ثوابها أو عقابها ليست سوى استمرارية، بل مرحلة ثانية من الحياة، تكمل الحياة الدنيا.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾(١٢٧)

١٢٧- ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ تجاوز الحدود في دنياه ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ بل أنكر رسالات الرسل، ولم يتفكر في الآيات الآفاقية ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ من عذاب الدنيا، ومن الانهماك بها والجري وراء مادتها.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾(١٢٨)

١٢٨- ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي الكفار الذين يحجبون الحقيقة عن ناظرهم رغم الآيات والوحي ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ فيعتبرون ويهتدون بما حلّ بالأمم والمجتمعات قبلهم ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ في قراهم ومدنهم وآثارهم التي صارت خاوية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ دلائل وعبر لذوي العقول الراجحة.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾(١٢٩)

١٢٩- ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بالإمهال ليوم الحساب، وإعطاء فرص التوبة ﴿لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي لكان العقاب فورياً، ولكن رحمته تعالى وسعت كل شيء، انظر [الأعراف ١٥٦/٧]، ولولاها لهلك كل كافر وعاصٍ على الفور.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾(١٣٠)

١٣٠- الخطاب من هذه الآية حتى آخر السورة إرشاد للمؤمنين لما يجب أن يكونوا عليه تجاه إصرار الكفار على الكفر:

﴿فَاصْبِرْ﴾ أيها المؤمن ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ما على المسلم سوى الصبر تجاههم، وليس عليه إكراههم، انظر [الغاشية ٢١/٨٨-٢٦]، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ تحديد لمواعيد الصلاة كما فصّلتها السنة الشريفة، والمعنى أن يستعين المرء على الكفار وعلى الغافلين بالصبر والصلاة.

﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(١٣١)

١٣١- ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ نهي عن الغيرة والحسد ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ ما يتمتع به الكفار والغافلون من مادة الدنيا ليس سوى اختبار وابتلاء لهم ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ للمؤمنين، بما فيه الرزق المادي والمعنوي ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ لما يتمتعون به من السلام الروحاني في دنياهم، ثم ما ينتظرهم من ثواب الأخرة.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾(١٣٢)

١٣٢- ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أيها النبي، وأيها المسلم ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ لأن العبادة يعود مردودها على المرء وحده، ولا يستفيد منها الخالق عزّ وجلّ، انظر [الذاريات ٥١/٥٦-٥٧].

﴿وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾(١٣٣)

١٣٣- ﴿وَقَالُوا﴾ المصرّون على الكفر ﴿لَوْلا يَأْتِينَا﴾ محمد ﴿بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ يريدون معجزة مادية تلمسها حواسهم لأنهم عطّلوا عقولهم عن الفكر والنظر ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ جاءهم القرآن الكريم مبيناً لهم صحة ما جاءت به الكتب المقدّسة من قبل، ومغربلاً الصحيح منها من الزائف، ومصدقاً ما بقي فيها من الوحي الصحيح، ومهيمناً عليها، انظر [المائدة ٥/٤٨]، ومحققاً النبوءات التي وردت فيها عن مبعث خاتم الأنبياء والرسل، فماذا يريد المكابرون أكثر من ذلك؟

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾(١٣٤)

١٣٤- ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ الله تعالى لم يترك الأعذار للناس بعد أن هداهم بالفطرة، ثم بعث لهم الأنبياء والرسل، وتبيّن لهم الحق من الباطل، فلا يعاقبهم تعالى قبل أن تبلغهم الرسالة، انظر [التوبة ١١٥/٩].

﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾(١٣٥)

١٣٥- ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾ الكفار ينتظرون تحقق ما يعتقدون أنه الصواب، وكذا المؤمنون ينتظرون تحقق معتقدهم، وتلك الطبيعة البشرية أن يعتقد كل امرئ أنّ طريقته في الحياة هي الصحيحة ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ في الوقت المناسب أن في الدنيا ﴿مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ المستقيم ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ منّا من الضلالة، ومَن بقي عليها؟

سورة الأنبياء - ٢١-

مكية

مقدمة

نزلت في النصف الثاني من الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

اختتمت سورة ﴿طه﴾ بأن كل امرئ يعيش ما يظن أنه السبيل القويم في الحياة، وينتظر تحقق معتقده، ثم لا يدرك الحقيقة والعاقبة إلاّ بعد كشف الغطاء: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنْ اهْتَدَى﴾ (٢٠/١٣٥)، ثم تفتتح سورة الأنبياء بأن حساب الناس قد اقترب وهم غافلون: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ (٢١/١).

محور السورة

إن الناس في غفلة لاهون، رغم نزول القرآن الكريم عليهم: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٢)، وذلك سبب انحطاط الأمم وزوالها لإصرارها على تجاهل حقائق الوحي التي تتعارض مع مفهومها المادي للحياة: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦)، وإن القرآن الكريم نزل على البشرية من أجل سعادتها وحفظاً لكرامتها من اتّباع الأوهام ومن ذلّ عبادة المادة والأفراد: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (١٠).

وإن معجزة (الانفجار الكبير) للكون وجعل الأحياء من الماء معجزات جديرة بالإيمان: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا

فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٠)، وإن عناد المصرّين على الكفر سببه أنّ حقائق الوحي غير معروفة لديهم، كما أنهم لا يبذلون المجهود الكافي للاطلاع عليها وتقويم الرسالة من حيث جدارتها: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٤)، وإن الإنسان مبتلى في دنياه بالشر والخير، ثم لا مفر له من المعاد والحساب: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٥)، وإنه عجول قليل الصبر يستبق الأمور فيرفض الإيمان بالمعاد والحساب: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٣٧)، رغم أن الرحمن وحده حافظٌ للناس على الدوام: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٤٢).

وأنّ الإنسان يغتر بطول العمر حتى يظنّ أن الرخاء الذي يتمتع به دائم إلى الأبد وينسى أن الأيام دُوَل: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٤)، ولكن لا سبيل لسماع من صمّوا آذانهم عن الحق: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ (٤٥)، إذ ينكرون القرآن الكريم رغم كثرة خيراته: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ (٥٠)، وإن الله تعالى لا يُهلك المجتمعات ببعض أخطائها، بل لإصرارها على الاستغراق بضلالها، فلا ترجع إلى جادة الصواب فتهلك: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي لا يرجعون عن غيّهم (٩٥)، وإن رحمة الرحمن وحده، الذي وسعت رحمته كلَّ شيء، تحفظ الإنسان رغم محاولاته تجسيد الإله وعبادة الأوهام والأصنام: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (١١٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾(١)

١- ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ الموت والبعث والحساب، أقرب بعيد ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ في دنياهم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ أكثرهم معرضون عن الوحي.

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾(٢)

٢- ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ القرآن الكريم خُتمت به الرسالات السماوية ﴿إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ بشيء من اللهو وعدم الاكتراث.

﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾(٣)

٣- ﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ عن الوحي، مستغرقين في دنياهم ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ظلموا أنفسهم بإنكار الوحي ﴿هَلْ هَذَا﴾ أي محمد ﴿إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فكيف نؤمن لبشر؟ ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ينسبون إعجاز القرآن إلى السحر، ويزعمون إنهم مبصرون للحقيقة، في حين أنهم يكتمون ملكاتهم الفكرية في تقويم القرآن الكريم من حيث جدارته، وتهرباً من أي مسؤولية أخلاقية يفرضها عليهم قبول الإسلام.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٤)

٤- ﴿قَالَ﴾ النبي ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ ما تنزّل به الوحي ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاء عباده ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾(٥)

٥- ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ زعموا أن القرآن الكريم ليس سوى أخلاط أحلام ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ وزعموا أن النبي افتراه من عنده ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أو أن النبي ليس سوى شاعر، والقرآن من جنس الشعر ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ بمعجزات مادية تلمسها أيدينا، لأن ذوي العقليات الطفولية عطّلوا عقولهم عن دراسة القرآن دراسة جدية، وأعرضوا عن تقويمه من حيث جدارته.

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾(٦)

٦- ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ مجتمع من المجتمعات ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بإعراضها عن الوحي، وعن القيم الروحانية، وانهماكها في الدنيا والقيم المادية ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لا يؤمنون إذ يسيرون على خطا سابقيهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(٧)

٧- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ اسألوا أهل الكتاب من قبلكم، من يهود ونصارى، قبل تحريف كتبهم وتبديلها وتغييرها، إن الرسل كانت من جنس البشر، ولم تكن آلهة أو ملائكة، ولم يكن لها من صفات الألوهية ﴿إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ الحقائق، بل تتخبطون فيما لا تعلمون.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾(٨)

٨- ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ﴾ أي الرسل ﴿جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ بل بشراً يأكلون الطعام، ويذوقون الموت.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾(٩)

٩- ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ بنصرهم وعلو رسالتهم ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ من صحابتهم ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ الذين أهدروا طاقاتهم الفكرية بمقاومة الرسالة السماوية.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(١٠)

١٠- ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿كِتَابًا﴾ القرآن الكريم ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ يذكركم بميثاقكم الفطري عندما كنتم في الأصلاب، كما يذكركم بتطابق الأدلة العقلية مع الأدلة النقلية، وما يؤدي به إلى سعادتكم ورفعتكم، في الحياة الدنيا، إضافة إلى ثواب الآخرة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ألا تستخدمون عقولكم للتوصل إلى هذه النتيجة؟

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾(١١)

١١- ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ المجتمعات التي ظلمت أنفسها بالتكذيب، تنحط وتنهار حضاراتها ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أفضل من سابقيهم.

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾(١٢)

١٢- ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ حانت نهايتهم، إما بالاستئصال كما في الأمم البائدة، أو بالانحطاط التدريجي ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يحاولون النجاة بشتى الوسائل، ولكن أعمار الأمم كالأفراد تحين بآجالها، وقد لا تنفع بها المحاولات الإصلاحية اليائسة.

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾(١٣)

١٣- ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ لا فائدة بعد فوات الأوان ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ لأنكم أهلكتم أنفسكم بالترف ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ عما جاءت به الرسل، وما فعلتم به.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾(١٤)

١٤- ﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أقرّوا بظلمهم بعد فـوات الأوان، فلـم ينفعهم.

﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾(١٥)

١٥- ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ يقـرّون بهـا ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيـدًا﴾ حصيد الزرع ﴿خَامِدِينَ﴾ كالرماد.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾(١٦)

١٦- ﴿وَمَا خَلَقْنَـا السَّـمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَـا بَيْنَهُمَـا لاعِبِـينَ﴾ لأن الحيـاة ذات مغزى لا تتضح إلا على خلفية الدار الآخرة.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾(١٧)

١٧- ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ لكـن الله تعالى غني عن العالمين.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَـإِذَا هُـوَ زَاهِـقٌ وَلَكُـمُ الْوَيْـلُ مِمَّـا تَصِفُونَ﴾(١٨)

١٨- ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ اقتضـت الحكمـة الإلهيـة أن تكون الدنيا مسرحاً لصراع الحق مع الباطل ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ لأن الباطل ليـس له قرار ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّـا تَصِفُـونَ﴾ مـا تنكـرون من سـمو الصفـات الإلهيـة والأسماء الحسنى، وما تزعمون من أنّ الإله ليس سوى مادة الكون المتجسدة.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْـتَكْبِرُونَ عَـنْ عِبَادَتِـهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾(١٩)

١٩- ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ بلا حدود، فالكون متنـاهٍ ﴿وَمَـنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ما يدحـض مزاعمهـم إن الله تعالى ليس سوى انعكاس للموجودات، فالله تعالى لا متناهٍ، فوق الوجود المادي، وفوق نطاق الخبرة والمعرفة.

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ (٢٠)

٢٠- ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ المخلوقات لا تكف عن التسبيح، وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، انظر [الإسراء ١٧/٤٤].

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾(٢١)

٢١- ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ هل لهم مقدرة على البعث والنشور؟ فقد جعلوا من آلهتهم كل أنواع الأوثان، ورموز العبادة الزائفة، وألّهوا الأفراد والزعماء، بل عبدوا السلطة والمادة.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٢٢)

٢٢- ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ السماوات والأرض، ولذهب كل إله بما عنده ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ تنزّه عمّا لا يليق به ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من شرك.

﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (٢٣)

٢٣- ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ في منتهى الحكمة ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ويحاسبون.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٤)

٢٤- ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ المسيحية زعمت المسيح إلهاً بل جعلته ابن الله ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ﴾ القرآن الكريم ﴿وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ الكتب المنزلة من قبل، قبل تحريفها ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ بل يتخبطون ويتبعون الظن ﴿فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن القرآن الكريم خاتم الرسالات السماوية.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٢٥)

٢٥- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِي﴾ رسالة التوحيد جاءت بها جميع الرسل.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾(٢٦)

٢٦- ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا﴾ وهو قول المسيحية؛ زعمت المسيح ابن الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تعالى، تنزّه عمّا يقولون ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ الرسل والأنبياء مكرمون بالرسالة وبالنبوة.

﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾(٢٧)

٢٧- ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ بل يتلقّون الوحي ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ يبلّغون الرسالة.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾(٢٨)

٢٨- ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من عالم المشاهدة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من عالم الغيب ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ من المرضي عنهم ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ خيفة عذابه ﴿مُشْفِقُونَ﴾ لا يأمنون مكر الله.

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾(٢٩)

٢٩- ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ يدّعي الألوهية ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾(٣٠)

٣٠- الآيات (٣٠-٣٣) تشير إلى بعض نواحي الإعجاز الذي عمي عنه الكفار:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المصرّون على الكفر ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ واحداً ملتحماً ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ بعضهما عن بعض بالانفطار الكبير الذي نتجت عنه ملايين المجرات والنجوم ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وهي المعجزة الكبرى الأخرى في الخليقة ﴿أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ كيف يكفرون بعد هذا الإعجاز؟

﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾(٣١)

٣١- ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ حبالاً ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ كي لا تميد الأرض بهم وتهتز، بل تكون عامل استقرار ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً﴾ طرقاً ومسالك ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ الهداية الروحانية المعنوية، والهداية الدنيوية لمبتغاهم.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾(٣٢)

٣٢- ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ لا يصلون إلى أطرافها، لأن أبعادها تصل إلى ملايين السنين الضوئية، ولا يرجمون بها رجوم الغيب، ولا رجوم الشياطين، انظر [الملك ٦٧/٥]، ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا﴾ معجزاتها ﴿مُعْرِضُونَ﴾ ما يشاهدون منها أقل القليل.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٣٣)

٣٣- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ في إعجاز متناسق يبهر العقول.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾(٣٤)

٣٤- ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ فالرسول ليس استثناء من ذلك، وهذا من جملة اعتراضاتهم السخيفة أن الرسول فان ومن جنس البشر ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ لا يلبثون أن يموتوا، فيعثوا فيحاسبوا.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٣٥)

٣٥- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ لا تنفك عنه ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ اختباراً لكم في دنياكم ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ للبعث والحساب.

﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَـذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَانِ هُمْ كَافِرُونَ﴾(٣٦)

٣٦- ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا﴾ سخرية واستخفافاً ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ بأنهم لا ينفعون عبدتهم ولا يضرّون ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَانِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ مصرّون على إنكار القرآن الكريم.

﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾(٣٧)

٣٧- ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ جنس الإنسان يستعجل الأمور فيطلب الشيء قبل أوانه، فكأنه مخلوق من العَجَل نفسه ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ الخطاب للكفرة المستعجلين، يستعجلون الوعد الله بنصرة الرسل، أو بوقوع العذاب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٣٨)

٣٨- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَـذَا الْوَعْـدُ﴾ متى وقت وقوع الساعة؟ يقولونها استهزاءً ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم؟

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾(٣٩)

٤٠- ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّـونَ عَـنْ وُجُوهِهِـمُ النَّـارَ وَلا عَـنْ ظُهُورِهِمْ﴾ وقت وقوع الساعة ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من جهة الغير.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾(٤٠)

٤٠- ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ الساعةُ ﴿بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ تدهشهم وتحيرهم ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لا يُمهلون ليستريحوا طرفة عين، وفيه تذكير بإمهالهم في دنياهم.

﴿وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(٤١)

٤١- ﴿وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أيها النبي ﴿فَحَاقَ﴾ أحاط ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أحاط استهزاؤهم بهم، فأوردهم موارد الهلاك.

﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَانِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾(٤٢)

٤٢- ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَانِ﴾ من بأس الرحمن ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ معرضون عن القرآن الكريم، فهم ليسوا من أهل الفكر والسماع.

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾(٤٣)

٤٣- ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ فضلاً عن نصر غيرهم ﴿وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ فهم في غاية العجز.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾(٤٤)

٤٤- ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ﴾ الناس ﴿وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ وهم غافلون مصرّون على الكفر ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ﴾ أي الدول؛ كما قال يوسف للعزيز: اجعلني على خزائن الأرض. وقصد بها دولة مصر، انظر [يوسف ١٢/٥٥]- ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ شيئاً فشيئاً، لأن الدول

والمجتمعات تنحط ثم تنهار عندما تتنكر للقيم الروحانية ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ على أمرهم؟

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾(٤٥)

٤٥- ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ بالقرآن الكريم ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ إذا أصرّوا على عدم السماع.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾(٤٦)

٤٦- ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لا يقرّون بظلمهم إلا بعد نزول العذاب بهم.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٤٧)

٤٧- ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ العدل ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ انظر [الزلزلة ٩٩/٧-٨].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٤٨)

٤٨- الآيات (٤٨-٩١) مرتبطة بقوله تعالى بالآية (٢): ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، وهي تصف جانباً من قصص الأنبياء؛ موسى وهارون وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذا الكفل ويونس وزكريا ويحيى وعيسى، والعبر الخاصة بها:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي إن الفرقان، الفارق بين الحق والباطل، ليس سوى ضياء وذكر لمن يتقي الباطل.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾(٤٩)

٤٩- ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ بخلاف ما يرون في عالم المشاهدة ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ (٥٠)

٥٠- ﴿وَهَذَا﴾ القرآن الكريم ﴿ذِكْرٌ مُبَارَكٌ﴾ كثير الخيرات، فيه من قصص الأنبياء كما سيرد ﴿أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾؟

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾(٥١)

٥١- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ الحكمة العقلية والنقلية ﴿مِن قَبْلُ﴾ قبل موسى وهارون ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ بمستواه الفكري السامي.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾(٥٢)

٥٢- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ الجمادات ﴿الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ على عبادتها؟

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾(٥٣)

٥٣- ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ زعموا أن عقول آبائهم خير من عقولهم فعطّلوها واكتفوا بالتقليد.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٥٤)

٥٤- ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ على السواء ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لم تستفيدوا من ملكاتكم الفكرية التي أودعها الله تعالى فيكم.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾(٥٥)

٥٥- ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ﴾ وما نحن عليه باطل؟ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ تهزأ بنا؟

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾(٥٦)

٥٦- ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ خلقهنّ وأبدعهنّ على غير مثال سابق ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ﴾ فذلك واضح أمامي في عالم المشاهدة.

﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾(٥٧)

٥٧- تتمة كلام إبراهيم: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ فأسبّب سقوطهم ﴿بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ إلى أعمالكم.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾(٥٨)

٥٨- ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ حطاماً ﴿إِلاَّ كَبِيرًا لَهُمْ﴾ الصنم الكبير تركه سالماً ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ فيسألونه ما حلّ بصغاره؟

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٥٩)

٥٩- ﴿قَالُوا﴾ بعد عودتهم ﴿مَنْ فَعَلَ هَـذَا بِآلِهَتِنَا﴾ بأصنامنا ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾(٦٠)

٦٠- ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ بسوء ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾(٦١)

٦١- ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ على مرأى منهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ ضده.

﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ﴾(٦٢)

٦٢- ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ﴾ جعلت أصنامنا حطاماً؟.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ﴾(٦٣)

٦٣- ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُم﴾ كبير أصنامكم ﴿هَـذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ فهم أعجز من الاستجابة لكم.

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٦٤)

٦٤- ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ﴾ يلومُ بعضهم بعضاً ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ تظلمون إبراهيم إذ تحمّلونه المسؤولية.

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ﴾(٦٥)

٦٥- ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ في عودة إلى جهالتهم ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ﴾ هم أعجز من النطق، فكيف نسألهم؟.

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ﴾(٦٦)

٦٦- ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إلهكم الحقيقي ومتولّي أموركم ﴿مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ﴾ من هذه الجمادات؟

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(٦٧)

٦٧- ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ خالقكم وممدّكم بالحياة ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ تستخدمون عقولكم على النحو السليم؟

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾(٦٨)

٦٨- ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ في النار ﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ إذ لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ في نصرهم.

﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾(٦٩)

٦٩- ﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ فلم تنله النار بأذى.

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾(٧٠)

٧٠- ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ فلم يفلحوا ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ لأنه فارقهم بعد ذلك مع ابن أخيه لوط، وفاتتهم فرصة الاستفادة من رسالته، ثم بقوا غارقين في جهالاتهم.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٧١)

٧١- ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾ ابن أخيه ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وهي فلسطين، مهد الرسالات، ومسرى النبي ﷺ.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾(٧٢)

٧٢- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ بعد أن وهبه الله تعالى ابنه الأكبر إسماعيل، وَهَبهُ إسحاق ويعقوب نافلةٌ، أي زيادةً بعد أن بلغ من الكبر عتيًّا ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(٧٣)

٧٣- ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ للناس ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ بالوحي الذي نزل عليهم ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ بخلاف ما زعموه في كتب العهد القديم عن فسادهم.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾(٧٤)

٧٤- ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ وهي الحكمة التي تسبق النبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ بالوحي ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ كانوا يأتون الرجال من دون النساء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ منهمكين في أسوأ الشرور ﴿فَاسِقِينَ﴾ خارجين عمّا خلقت له الطبيعة البشرية.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٧٥)

٧٥- ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ بنجاته مما حل بقومه من الدمار بما كسبت أيديهم ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾(٧٦)

٧٦- ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل الأنبياء المذكورين ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ إذ نادى ربه إني مغلوب فانتصر، انظر [القمر ٥٤/١٠]، ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ من الفيضان.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٧٧)

٧٧- ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ منهمكين في الشر ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بعد فوات فرصتهم وإصرارهم على التكذيب.

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾(٧٨)

٧٨- ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ يحكمان في الأرض الزراعية ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ رعت الغنم في الأرض الزراعية ليلاً بإهمال من صاحب الغنم فأفسدتها ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ لحكم داود ثم حكم سليمان في القضية، فقد اشتكى صاحب الأرض الزراعية إلى داود، أن غنم الراعي دخلت زراعته ليلاً فأفسدتها، فقضى له أن يأخذ الغنم تعويضاً عمّا حلّ به من خسارة، ممّا أبقى صاحب الغنم بلا مورد رزق، لكن سليمان استأذن والده تبديل الحكم، حيث يأخذ صاحب الأرض قطيع الغنم مؤقتاً فينتفع منه، ريثما يقوم صاحب الغنم بإصلاح الأرض الزراعية وإعادتها إلى ما كانت عليه، وبعد ذلك يستعيد غنمه.

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾(٧٩)

٧٩- ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أي الحكم المشار إليه آنفاً ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا﴾ حكمة، وحكماً على بني إسرائيل ﴿وَعِلْمًا﴾ داود وسليمان، بما فيه حكم داود المشار إليه ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ يقدّسن الله تعالى

﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ذلك، والمغزى أنّ داود كان يستشعر في نفسه عظمة الخالق بما يشاهد في الطبيعة من عجائب الخلق.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾(٨٠)

٨٠- ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ وهي صناعة الدروع المعدنية التي تُلبَس دفاعاً عن النفس ﴿لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ من بأس أعدائكم، أي من حروبهم العدوانية ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ لهذه النعم؟

ومن المعروف تاريخياً أن العصر البرونزي كان قد انتهى في فلسطين قبل عهد داود بزمن، ثم إن داود كان يستورد فلز الحديد إلى فلسطين خصيصاً لصناعة الدروع، ولأغراض أخرى منها صناعة الأدوات المعدنية اللازمة للزراعة والحراثة، انظر قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ ٣٤/١٠]، وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبأ ٣٤/١٢]، أي فلز البرونز من الحديد والنحاس.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾(٨١)

٨١- ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ بأساطيله التجارية في البحر الأحمر ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وهي بلاد الحجاز، بما فيها مكة المكرمة والكعبة المشرّفة ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ بما يقوم به سليمان من خدمة الأراضي المباركة في فلسطين والحجاز، انظر أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ ٣٤/١٢]، أي تسير الريح بأساطيله ذهاباً وإياباً شهراً بشهر، لهذه الأغراض، وهذا الموضوع ثابت تاريخياً من استخدام سليمان لأساطيل تجارية كثيرة في البحر الأحمر، وكذا في البحر الأبيض المتوسط، انظر أيضاً قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ أي بأساطيله التجارية ﴿رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص ٣٨/٣٦].

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾(٨٢)

٨٢- ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ﴾ من شياطين الإنس ﴿مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾ لاستخراج اللؤلؤ من قاع البحر الأحمر ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾ من الصناعات ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ لما يقومون به من أعمال حميدة، لقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ ١٣/٣٤].

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(٨٣)

٨٣- ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ من المرض والهزال ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لا راحمَ في الحقيقة سواه، وفي سورة (ص) نسبَ أيوبُ الضرَّ من المرض والهزال إلى الشيطان، انظر قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص ٤١/٣٨]، والمغزى الأخلاقي من القصة أنّ أيوب أدرك أن الله تعالى يعرضه للمحن، وأنّ عليه الصبر، ولاسيما على وساوس الشيطان.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾(٨٤)

٨٤- ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ من المرض والعذاب ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ ذرية جديدة بدلاً من الذين تُوفّوا منهم ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ من أمثاله.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾(٨٥)

٨٥- ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ الذين صبروا على مشاق التكليف وشدائد النُّوَب.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٨٦)

٨٦- ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح لعصمتهم من الذنوب.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٨٧)

٨٧- ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ وهو يونس عليه السلام، ذهب غاضباً على قومه، وهم أكثر من مئة ألف من أهالي نينوى في آشور بالعراق، ضاقَ بهم بعد أن رفضوا بعثته، انظر قصته بتفصيل في [الصافات ١٣٩/٣٧-١٤٨] حيث التقمه الحوت ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ بعد أن تخلّى عن بعثته ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ في ظلمات بطن الحوت ﴿أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ أي أنزّهكَ يا الله تنزيهاً لائقاً بك عن كل نقص وسوء، وأن يعجزك شيء ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ظلمت نفسي، وظلمت قومي بتعريضهم للهلاك إذ تخليت عنهم من غير أمر، وبخلاف ما اعتاد عليه الأنبياء.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(٨٨)

٨٨- ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ لدعائه ولتوبته ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ من غمّ بطن الحوت ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ من الغموم، إذا دعوا الله تعالى بإخلاص، إذْ لا نجاة أدنى منها.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾(٨٩)

٨٩- ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ انظر [مريم ١/١٩-٦]، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ خير حيّ يبقى بعد الجميع.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾(٩٠)

٩٠- ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ بعد أن كانت عاقراً لا تلد ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ زكريا ويحيى وأمّه

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ راغبين في نعمنا ﴿وَرَهَبًا﴾ وراهبين من ردّها ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ مخبتين متضرعين دائمي الوجل.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(٩١)

٩١- ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ مريم عليها السلام ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ عبارة عن الإحياء، قال الألوسي: وليس هنالك من نفخ حقيقةً. ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا﴾ عيسى ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ رسالة للناس، ومعجزة.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(٩٢)

٩٢- ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أيها الأنبياء المشار إليهم، وأيها الناس المبعوث إليهم، جاءتكم الرسل برسالة التوحيد منذ الأزل، وهي رسالة الإسلام لله تعالى ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ بلا شرك، والمغزى؛ مادامت الرسالة واحدة فلا مبرر للتفرق أمماً وطوائف، ولمعنى العبادة انظر شرح قوله تعالى في آية [الذاريات ٥٦/٥١].

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾(٩٣)

٩٣- ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ رغم أن الرسالات السماوية واحدة، إلا أنّ الناس تفرقت طوائف وجماعات وأحزاباً، كلّ حزب بما لديهم فرحون، كلٌّ منهم يعتقد أنه يحتكر الحقيقة لنفسه، فمرجعهم إلى الله تعالى وحده يحاسبهم.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾(٩٤)

٩٤- ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي لا حرمان لثواب عمله، عبّر عنه بالكفران الذي هو ستر النعمة وجحودها، لبيان كمال نزاهته تعالى عمّا يستحيل صدوره عنه، وفي الآية ما يدلّ على أنّ قبول

العمل الصالح مطلقاً مشروط بالإيمان ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ مثبتون ذلك في صحيفة أعماله.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾(٩٥)

٩٥- ﴿وَحَرَامٌ﴾ أي محرّم قطعياً ﴿عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ مجتمع من المجتمعات قضى الله تعالى بهلاكه ﴿أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ إلى صوابهم، أي بنتيجة إصرارهم الكلّي على الضلال، وليس بسبب انزلاقهم جزئياً في الخطأ هنا وهناك، فبين سننه تعالى أن المجتمعات لا تهلك إلاّ إذا كان انحرافها عن جادة الصواب كلياً، وليس انزلاقها الجزئي نحو الخطأ.

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾(٩٦)

٩٦- تتمة الخطاب من الآية السابقة، أي بعد هلاك المجتمعات الضالة، لم يبق سوى وقوع الساعة المرموز لها بانطلاق يأجوج ومأجوج: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ حيكت حول يأجوج ومأجوج الكثير من الأساطير، وزعم بعض الباحثين أنهم المغول والتتار، أو قبائل شرق آسيوية غيرهم، ولم يثبت ذلك، والظاهر أنها إشارة لا تنطبق على أقوام بعينهم، وإنّما على مجموعة من الأقوام والأحداث والكوارث تهدم الحضارات، وتسبق وقوع الساعة، انظر أيضاً آيات [الكهف ٩٤/١٨]، وفي قوله تعالى إنهم من كلّ حدبٍ ينسلون أي من كل ناحية من نواحي الأرض، مما يفيد أنه عند وقوع الساعة يهرع كل فرد إلى مصيره بلا مقاومة.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾(٩٧)

٩٧- ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يوم القيامة ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي شاخصة لذهولها باتجاه واحد لا يرتد إليهم طرفُهم وأفئدتهم هواء، انظر [إبراهيم ٤٣/١٤]، ﴿يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ﴾ تامّة ﴿مِنْ هَذَا﴾ البعث

والرجوع، ولم نعلم أنه حق ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بترك الآيات والنذر، مكذّبين بها.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾(٩٨)

٩٨- ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان، ومن القيم الزائفة، أيها الكفار على مر الأيام والعصور ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وقود لجهنم ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ جزاء وفاقاً.

﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٩٩)

٩٩- ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ﴾ المزعومون آنفاً ﴿آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ العابدون والمعبودون.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾(١٠٠)

١٠٠- ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ لشدة ما ينالهم من عذاب ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ لأن الكفار يحشرون صمّاً، كما يحشرون عمياً، انظر [طه ١٢٤/٢٠]، وذلك كناية عن استمرار الصمم الروحاني الذي كانوا عليه في دنياهم، إذ لم يستجيبوا لرسالات الرسل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾(١٠١)

١٠١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ معنى الحسنى توفيقُه تعالى لهم بالطاعات، والكلمة الحسنى المتضمنة البشارة بثوابهم وشكر أعمالهم ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا﴾ عن جهنم ﴿مُبْعَدُونَ﴾ لأنهم في الجنة.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾(١٠٢)

١٠٢- ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ حسيس جهنم ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ دائمون في غاية التنعم.

﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَـذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(١٠٣)

١٠٣- ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ من أهوال القيامة ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في دنياكم، من تحقق النعيم والأمن لكم.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾(١٠٤)

١٠٤- ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ فتغيب وتختفي ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ كما تطوى الصحيفة المشتملة على الكتب، فتغيب عندما يغلق السجل ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ لأن القادر على الخلق قادر على الإعادة ﴿وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ كل شيء مما نريد أن نفعل.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(١٠٥)

١٠٥- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ الزبور اسم علَم للكتب المقدسة، وإن اختصت التسمية بعد ذلك بكتاب داود، انظر [النساء ٤/١٦٣] و [الإسراء ١٧/٥٥]، ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ القرآن الكريم ﴿أَنَّ الأَرْضَ﴾ في الدنيا ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الصالحون لعمرانها، ولأداء الرسالات السماوية فيها ونشرها بالموعظة والقدوة الحسنة.

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾(١٠٦)

١٠٦- ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ المذكور بالآيات (١٠١-١٠٥) ﴿لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ رسالة أكيدة لهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(١٠٧)

١٠٧- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أيها النبي ﴿إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ قاطبةً، وليس لأمّة بعينها، وفي ذلك ارتباط مع الآيات (٣-٤)، ولأن القرآن الكريم الذي هو ختم الرسالات يناشد العقول والمنطق، وليس فيه من الأفكار الوثنية ما يزعج الفكر السليم، وبخلاف الكتب السابقة فقد بقي محافظاً على سلامته من أدنى تغيير أو تحريف.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(١٠٨)

١٠٨- ﴿قُلْ﴾ لهم أيها النبي ﴿إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا إله إلاّ هو ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ له؟ ومستسلمون؟

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾(١٠٩)

١٠٩- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام وعن التوحيد ﴿فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أعلمتكم الرسالة بكل وضوح وبكل عدالة، وليس هنالك من جبر ولا إكراه ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ لا أدري قرب البعث والنشور والحساب الذي توعدونه، فذلك في علم الغيب وخارج طاقتي.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾(١١٠)

١١٠- ﴿إِنَّهُ﴾ الله تعالى ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ما تجهرون به من أقوالكم من خير أو شر ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ منها من خير أو شر، فيحاسبكم عليها.

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾(١١١)

١١١- ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ﴾ أي التأخير في البعث والنشور والحساب ﴿فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ ليس سوى اختبار لكم، ولحرية العمل والإيمان، أو الكفر من جانبكم.

﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَانُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾(١١٢)

١١٢- ﴿قَالَ﴾ النبي ﴿رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ بما أنت أهله ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَانُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ من محاولات تجسيد الإله، وما يتضمنه ذلك من كفر وإهانة للعقل السليم.

سورة الحج -٢٢-

مكية وقيل مدنية

مقدمة

اختلفوا في كون السورة مكية أم مدنية، والأكثرون على أنها مكية مع نزول بعض آياتها في المدينة بعد الهجرة.

ارتباط السورة بما قبلها

اختتمت سورة الأنبياء المتقدمة بالإشارة إلى الفزع الأكبر يوم تُطوى السماء كطي السجل للكتب، وأن متاع الدنيا مؤقت، ومن رحمته تعالى أن في ذلك فتنة ومهلة لمن تُرجى توبته: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (١١١/٢١)، ثم تفتتح سورة الحج بإنذار الناس بالقيامة: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١/٢٢).

وفي سورة الأنبياء أن الناس تقطّعوا أمماً وعقائد مختلفة: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ (٩٣/٢١)، ثم في سورة الحج أن ذلك من سننه تعالى في خلقه: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ (٦٧/٢٢)

وفي سورة الأنبياء أن إصرار المجتمعات على ضلالها أوردها موارد الهلاك: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥/٢١)، ثم في سورة الحج

أن ذلك هو المصير الحتمي للمجتمعات الظالمة: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (٤٨/٢٢).

محور السورة

أنّ المحادلين يجادلون بالباطل بغير علم: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ (٣)، وبلا هدي من الوحي: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (٨)، وهنالك من أنصاف المؤمنين من يقف موقف المتردد فينهار عند الشدائد: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١١)، وأن في الحج تعظيماً لحرمات الله ما يوجب اجتناب عبادة القيم الزائفة واجتناب الزور: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (٣٠).

وتأذن السورة بالقتال الدفاعي: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩)، وأن الله تعالى ينصر من ينصره: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٠)، وأن عاقبة المجتمعات الظالمة إلى زوال: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ (٤٥)، وأن لا معنى حقيقياً لمفهوم الزمن الدنيوي: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٤٧)، ومن ثم لا يغتر الإنسان بأن الله تعالى يمهل الظالمين: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (٤٨).

وأن من سننه تعالى في الخلق أن الأمم تتبع ما تظنّه صواباً فلا ينخدع المسلمون بضلال غيرهم، بل يلتزمون بما هم عليه من الهدى، ولا يثنيهم ذلك عن الدعوة إلى الإسلام: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ (٦٧)، وأن يتفادوا الجدل العقيم مع المجادلين بالباطل، في إشارة للآيات (٣،٨): ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٦٨)، والحساب على الله: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٦٩).

وأن الإسلام دين الأنبياء من الأزل، دين يسر وسهولة وقريب من العقل، ينفي الحرج، ويأخذ بالاعتبار ضعف الانسان: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٧٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾(١)

١- استمرار الخطاب من آخر سورة الأنبياء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قاطبةً ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ كونوا على علم بما سوف تؤول إليه الأمور ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ يوم القيامة.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾(٢)

٢- ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ تذهل عن أعزّ ما لديها، والمغزى أن كل امرئ يذهل يومها عن أعز ما لديه ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ قبل أوانه ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ في ظاهرهم، لهول الموقف ﴿وَمَا

هُمْ بِسُكَارَى﴾ ما هم فيه ليس من المعهود في شيء، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ لمن غفل عن حتمية هذا اليوم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾(٣)

٣- ومع ذلك ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الغافلين، المستكبرين، أو المصرّين على الكفر ﴿مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ في حقيقته ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بل يبتدع النظريات من عنده، فيزعم أن الكون أوجد نفسه، وأن لا خالق ولا بعث ولا نشور ولا حساب، في محاولة للتهرب من المسؤولية الأخلاقية ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ متمرد من شياطين الإنس أو الجن.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾(٤)

٤- ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ النتيجة الحتمية ﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ جعله ولياً له، متولياً أموره ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ إلى أوخم العواقب.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(٥)

٥- ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾ المصرّون على الكفر وإنكار البعث ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ لديكم أدنى شك ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون ٢٣/١٢]، ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ المراحل المتطورة للجنين ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ الولادة ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ في شبابه ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ الشيخوخة ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ يصير في حالة من الخرف، ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ جرداء ميتة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ بذورها

﴿وَرَبَتْ﴾ فتحركت ونبتت ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ من النبات، دليل على حتمية البعث.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٦)

٦- ﴿ذَلِكَ﴾ الأمر والإعجاز الذي سبق بيانه ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ وكل ما عداه باطل ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى﴾ وحده القادر على الإمداد بالحياة ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾(٧)

٧- ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ استمراراً للحياة الدنيا، ولضرورة البعث والنشور، حتى تكمل الأخرةُ الأولى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ للحساب.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾(٨)

٨- ومع كل الدلائل القاهرة الآنفة الذكر على حتمية الآخرة والحساب فهنالك مَن يجادل ويكابر: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ في حقيقته ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يقيني، بل عن تخمين، وعن تخبط في الجهل والتنظير ﴿وَلا هُدًى﴾ يهتدي به ﴿وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ يهتدي به من الوحي.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾(٩)

٩- ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ لاوياً لجانبه، كناية عن عدم قبوله، متكبراً شامخاً بأنفه، معرضاً عن الحق ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يجادل الآخرين بغرض الإضلال ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ حتى لو ازدهرت أحواله المادية في ظاهرها، فسوف يعيش بحالة من التعاسة والخواء الروحاني، والاضمحلال التدريجي لكل قيمة أخلاقية ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ من عذاب الغم، وهو أشد أنواع العذاب، انظر الآية (٢٢).

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(١٠)

١٠- ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ من المعاصي والإعراض في دنياك ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ بل بعثَ الرسل وأنذر الناس بالحساب.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾(١١)

١١- وهنالك من أنصاف المؤمنين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المذبذبين ﴿مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ هو بين الشك واليقين، وبين الحق والباطل ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ ظاناً أنه من صنع يديه، وأنه يستحقه تمام الاستحقاق ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ كمرض أو ضرر في ماله وأهله ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ نكص إلى الشك والكفر ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا﴾ فاته ما يسُرّه فيها ﴿وَالْآخِرَةَ﴾ إذ لم يعمل لها، بل كان يتعامى عنها ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الواضح كونه خسراناً تاماً.

﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾(١٢)

١٢- ﴿يَدْعُو﴾ أي هذا المذبذب ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوهام ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ وينسب كل ما يعتريه إلى الحظ والصدف ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ إذ لا صدفة ولا حظوظ بل عمل واجتهاد.

﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾(١٣)

١٣- ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ﴾ من الأوهام والزعماء ﴿أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ لأن الأوهام والزعماء لن تفيد شيئاً في نهاية المطاف ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾ من الزعماء المضلّين ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ من الأصحاب الضالّين الذين يعاشرهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(١٤)

١٤- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ بالمقارنة مع مصير المذبذبين المشار إليهم آنفاً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ في إيصال الثواب لمستحقيه.

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾(١٥)

١٥- ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ وهو من زمرة الناس الذين يعبدون الله على حرف المشار إليهم بالآية (١١)، إذ يشكك في أن الله تعالى ينصر عباده ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي فليطلب، إن استطاع، أسلوباً أو حيلةً يصل بهما إلى السماء، بعد أن دعا من دون الله ما لا يضره ولا ينفعه، الآيات (١٢-١٣)، ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ ليمضِ في سبيله ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ تخطيطُه ﴿مَا يَغِيظُ﴾ أي إن تخطيطه قصير الأمد لن يفيده شيئاً في إزالة غيظه المترتب على الفتنة التي أصابته فخسر بها الدنيا والآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾(١٦)

١٦- ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ القرآن الكريم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ من غير المذبذبين الذين يعبدونه على حرف.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١٧)

١٧- بعد أن أشارت الآيات المتقدمة (٨-١٣) و (١٥) إلى أحوال الكفار المكابرين، والمذبذبين أنصاف المومنين، تبين هذه الآية أن الفصل بين الناس يكون يوم القيامة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من المسلمين ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ اليهود ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ الصابئون أتباع يحيى المعمدان بن زكريا، لأنه كان يعمّد، أي يصبغ أتباعه في نهر الأردن في دلالة على اعتناقهم رسالته ﴿وَالنَّصَارَى﴾ الذين نصروا عيسى

المسيح ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ أتباع زرادشت من عبدة النار ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حساب الجميع على الله، وليس لإنسان أن يحاسب أحاه الإنسان على عقيدته، أو أن يكرهه عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بعقائد عباده.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(١٨)

١٨- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ طوعاً وكرهاً ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ منقادة لإرادته ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ المومنين ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ من المصرّين على الكفر ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ﴾ من الكفار ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ غير الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ إذ كرّم عباده بحرية الخيار الديني والأخلاقي.

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾(١٩)

١٩- ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ أحدهما مؤمن، والآخر كافر ينكر وجود الله ﴿اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا على الكفر ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ بنتيجة ما اختاروه لأنفسهم.

﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾(٢٠)

٢٠- ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ بنتيجة خيارهم وأعمالهم التي حبطت في دنياهم.

﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾(٢١)

٢١- ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ كناية عن معاناتهم الغم، كما هو مذكور بالآية التالية:

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾(٢٢)

٢٢- ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾ وهو العذاب الحقيقي الذي يعاني منه الكفار ﴿أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ لأنهم حيسو عذاب الغمّ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾(٢٣)

٢٣- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ بالمقارنة مع الكفار المذكورين آنفاً.

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾(٢٤)

٢٤- ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ في الآخرة كقولهم: الحمد لله الذي صدقنا وعده نتبوأ من الجنة حيث نشاء، وفي الدنيا: قولهم لا إله إلا الله، بما يعنيه ذلك قولاً ومعنىً وفعلاً ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ المستحق الحمد، سواء حمده حامد أم لم يحمد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٢٥)

٢٥- بعد أن حشدت السورة من أولها البراهين على البعث والحساب، وأن الناس مع ذلك بين مؤمن ومذبذب وكافر ومشرك، ووصفت مآل كل منهم، ينتقل الخطاب لبيان سلوك الكفار في المسجد الحرام تمهيداً لما سوف يرد من مناسك الحج:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ﴾ العاكف المقيم فيه ﴿وَالْبَادِ﴾ الطارئ الذي جاء من البدو ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ﴾ شيئاً ما، أو مراداً ما ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ بعدول عن القصد

والاستقامة المعنوية ﴿بِظُلْمٍ﴾ بغير حق ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لمن أراد السيئة في مكة المكرمة.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾(٢٦)

٢٦- انتقال الآيات (٢٦-٣٧) إلى إبراهيم، ومناسك الحج، لأنه هو الذي بنى البيت الحرام، وإسماعيل:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ فجعلناه مرجعاً يعود إليه في العبادة ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ الطهارة المعنوية أولاً من عبادة الأوثان، ثم الطهارة المكانية ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ حول الحرم ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ المقيمين فيه للعبادة والتأمّل ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ المصلّين.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(٢٧)

٢٧- ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أي نادِ فيهم، لأن الأذان هو الإعلام والإشعار ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مشاة على الأقدام ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ ركباناً على الخيل أو البعير الهزيل أتعبه السفر ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ غاية في البعد.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾(٢٨)

٢٨- ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ فمن جهة يواجه المسلم أول بيت وُضع لله، ومن جهة يشعر بالأخوة الروحانية مع الحجاج القادمين من مختلف أنحاء الأرض، ومن جهة يتعاطف مع مشاكلهم ومصاعبهم الاجتماعية ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ يوم العيد ويومان بعدها ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ من الأضاحي ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ لا حرج في الأكل منها للمُضحّي

﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ﴾ الذي أصابه البؤس ﴿الْفَقِيرَ﴾ المحتاج، والتأكيد على ذكر اسم الله عند ذبح الأضاحي القصد منه تعظيم الحياة وبيان حرمتها.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾(٢٩)

٢٩- ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ وهو انتهاء حالة النسك، ومن ثم السماح بالغسل والحلاقة وقص الأظافر ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ من أعمال البر في حجهم ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ طواف الإفاضة ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ البيت الحرام.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾(٣٠)

٣٠- ﴿ذَلِكَ﴾ الأمر ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ جمع حرمة، وهو ما يحترم شرعاً ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ يثاب عليه ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ﴾ أي ذبحها وأكلها ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ الرجس: النجس، وهو غير النجس بالمعنى الفقهي، بل هو نجس معنوي يلوّث العقيدة، والمعنى؛ اجتنبوا الرجس أو النجس الناتج من ممارسة العقائد الوثنية، انظر شرح [الأعراف ٧/٧١]، ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ الافتراء.

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(٣١)

٣١- ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ مائلين عن كل دين زائغ إلى الدين الحق مخلصين له تعالى ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ الأوثان والأوهام ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ كأنما سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ جوارح الطير في سقوطه ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ يتردّى فيه.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾(٣٢)

٣٢- ﴿ذَلِكَ﴾ الأمر ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ من مختلف مناسك الحج، أما البُدْن فليست سوى جزء من الشعائر، انظر الآية (٣٦)، ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ بعد معرفة المغزى الرمزي من هذه الشعائر.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾(٣٣)

٣٣- ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ في مناسك الحج، وفي تقوى القلوب ﴿مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ مدى الحياة ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ لأن أساس التقوى هو الإقرار بالتوحيد، المرموز إليه بالبيت العتيق، أي الكعبة، انظر الآية (٣٧).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾(٣٤)

٣٤- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ مذهباً في طاعته تعالى ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ وحده دون غيره ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ عند ذبحها تعظيماً لها، ولهبة الحياة عامةً ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا إله غيره ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ الأمر ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ المطمئنين، الذين سوف يرد ذكرهم.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(٣٥)

٣٥- ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ خافت ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ من مشاق التكليف، ومن المحن والنوائب كالأمراض والمحن ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ في أوقاتها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ في وجوه الخير.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٣٦)

٣٦- ﴿وَالْبُدْنَ﴾ جمع بُدنة وهي البقرة أو الناقة تُنحر في مكة ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ من مناسك الحج ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ نفع في الدنيا، وأجر

في الآخرة ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ بأن تقولوا عند ذبحها: بسم الله، والله أكبر، اللهم هذا منك وإليك ﴿صَوَافَّ﴾ قائمات قد صففن أيديهنّ وأرجلهنّ ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقطت على الأرض، كناية عن موتها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾ الراضي بما عنده ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ المعترض للسؤال، من اعترّه إذا تعرّض إليه ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل هذا التسخير البديع ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ فتأخذونها منقادة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إنعامنا عليكم، بالتقرّب لنا والإخلاص.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرْ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣٧)

٣٧- ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا﴾ لن يصيب رضا الله تعالى اللحوم المتصدّق بها ولا الدماء المهراقة منها ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ يناله ما يصحب ذلك من تقوى قلوبكم التي تدعوكم لتعظيمه والتقرب إليه والإخلاص له عزّ وجلّ ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ مثل هذا التسخير ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ لتعرفوا عظمته تعالى باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره ﴿وَبَشِّرْ الْمُحْسِنِينَ﴾ المخلصين الذين يبتغون الإحسان في كل أعمالهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾(٣٨)

٣٨- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المشار إليهم آنفاً الذين يعظّمون شعائر الله، والكلام مستأنف لتوطين قلوب المؤمنين إن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم، ولا يقدرون صدّهم عن الحج ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ لله ﴿كَفُورٍ﴾ برسالاته.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(٣٩)

٣٩- ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ أُذِنَ لهم بالقتال الدفاعي، وهو القتال الوحيد المسموح به في القرآن الكريم، أسوةً بالسنة النبوية الشريفة لأن غزوات النبي ﷺ كانت كلها دفاعية، انظر أيضاً آية [البقرة ٢/١٩٠]، ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ أي إن

القتال الدفاعي مأذون به بسبب أنّ المؤمنين ظُلموا ولم يكونوا البادئين بالقتال ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ لتخليصهم من الاضطهاد، كما سوف يرد.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٤٠)

٤٠- ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بغير ما يوجب إخراجهم ﴿إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ المعنى أنّ المبرر الوحيد لإخراجهم من الديار لم يكن سوى إصرارهم على التوحيد ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي لمنع الاضطهاد الديني ﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾ يعتكف فيها الزهّاد ﴿وَبِيَعٌ﴾ كنائس ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ معابد اليهود ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ المسلمين ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ من قبل الجميع ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ﴾ أي مَن ينصر دينه الحق، المشار إليهم في الآية التالية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء.

وهكذا تبيّن الآيات (٣٨-٤١) أن المبرر الوحيد للقتال في الإسلام هو منع الاضطهاد الديني، ولمنع الفساد في الأرض، انظر آية [البقرة ٢/٢٥١].

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾(٤١)

٤١- ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ بالسلطة ونفاذ الأمر ﴿أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ كمسلمين ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ المخوّلون بالأمر بالمعروف وبالنهي عن المنكر هم الفقهاء الحقيقيون، والعلماء المتبحّرون في القرآن والسنة الصحيحة منهم فقط، وليس لكل جاهل ودخيل أن يتنطّع لذلك ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ مرجعها إلى حكمه تعالى وتقديره فقط.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾(٤٢) ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ (٤٣) ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾(٤٤)

٤٢-٤٤- ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ أيها الرسول، فلا عليك من إكراههم، ولا تبادرهم بالقتال، إلا أن يبادروك بالعدوان أولاً، كما حدث في وقعات بدر وأحُد والخندق، وصلح الحديبية، ووقعة تبوك ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أمهلتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أخذ عزيز مقتدر، بعد إصرارهم على الضلال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي كيف كان إنكاري عليهم إصرارهم على الضلال، فغيّرتُ ما كان بهم من رغد الحياة والنعم وحضارة البلاد حتى انقلب كل ذلك إلى ضده، وهذا الأخذ ليس مقتصراً على الأمم المذكورة، بل هو عام في كل وقت بمقتضى سننه تعالى في خلقه، كما هو مبين في الآيات التالية (٤٥-٥١):

﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾(٤٥)

٤٥- ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ بمقتضى سننا في الخليقة ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ انظر [هود ١٠٢/١١، ١١٧]، ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ على سقوفها، لأن العروش السقوف، والمعنى تعطّل بنيانها فتهدّمت حيطانها وخرّت سقوفها ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ في البوادي والمزارع تُركت لا يُسقى منها لهلاك أهلها وأصحابها ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ صار خاوياً بهلاك أهله، ويحتمل المعنى أيضاً أن الذين حلّ بهم الهلاك كانوا يعطّلون الآبار، أي المشاريع المفيدة الإنتاجية، في حين كان زعماؤهم يبنون القصور المشيدة وينفقون عليها وعلى صيانتها لراحتهم الشخصية بدلاً من العمل لمصلحة شعوبهم كما نرى اليوم في الكثير من بلدان المسلمين.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(٤٦)

٤٦- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي هؤلاء الناس المكذّبون المشار إليهم آنفاً ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ينظرون في تاريخ الأمم البائدة فتعتبر بها عقولهم ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يسمعوا من أخبارها ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ عندما تتشنج العقول وتفقد المقدرة على التحليل ومعرفة العواقب بقياس الماضي على الحاضر والمستقبل.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(٤٧)

٤٧- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ بدلاً من السير في الأرض، واستخدام العقل السليم الذي أكرمهم به تعالى، فإنهم يتخذون موقف التحدّي الأحمق بتعطيل عقولهم واستعجال العذاب ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ بمجيئه في الوقت المحدد، وليس في الوقت الذي يحددون ويرغبون ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ لأن الزمن نسبي لا يقاس بالمقاييس الدنيوية.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾(٤٨)

٤٨- ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من مجتمع، كمثال على ما تقدم، فهنالك الكثير منها ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ أمهلتها كما أمهلت كفار قريش ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ لعلها تعتبر وتفكر وتعود إلى رشدها ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالاضمحلال والاندثار والعذاب بعد طول الإمهال والإملاء ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ للحساب.

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾(٤٩)

٤٩- ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾ قاطبة ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ من كل ما تقدم، فارجعوا إلى عقولكم قبل الفوات، كما سوف تبين الآيات (٥٠-٥١).

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(٥٠)

٥٠- ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ من الرزق الروحاني تطمئن به قلوبهم، وقد يرفده أيضاً الرزق الدنيوي المادي.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾(٥١)

٥١- ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ يبذلون الجهد في معارضتها ومحاولة إبطالها ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ مشاقّين المؤمنين ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ بما اختاروا لأنفسهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٥٢)

٥٢- استمرار الخطاب ممّا تقدّم لأنهم زعموا أنّ الرسل قبل النبي ﷺ، جاءت بمطامع شخصية دنيوية، وليس برسالات إلهية خالصة، فها هنا تبين الآيات (٥٢-٦٠) أن ما قد يلقي الشيطان عند بعض الرسل، من أمنيات ومطامع الدنيا فإن الله تعالى ينسخها على الفور:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ أيها الرسول ﴿مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى﴾ من أماني الدنيا ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ من هذه الأماني ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ الله تعالى يبطلها ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ لأن الآيات السماوية واضحة معجزة بيّنة مسفرة عن نفسها، تنفي كل ما زعموه من المطامع الخفية للرسل والأنبياء، و﴿ثُمَّ﴾ ها هنا تفيد العطف ولا تفيد الترتيب الزمني ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والواضح أنّ الآية ليس لها أية علاقة، مهما تكن، بنظرية نسخ الآيات القرآنية التي يزعمها ويعتقد بها البعض، كما أن الآية ناقضة بوضوح لقصة الغرانيق المزعومة في بعض كتب التفسير، والتي لا شك أنها من وضع الزنادقة ثم لاقت قبولاً عند بعض المفسرين، فالآية تتحدّث عن الرسل والأنبياء قبل الرسول ﷺ.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾(٥٣)

٥٣- ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ اختباراً ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ من المنافقين والمذبذبين الذين يعبدون الله على حرف، الآية (١١)، ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ من المصرّين على الكفر ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالإنكار والتعامي، والوقوع في وساوس الشيطان ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ هم في شقّ من التفكير والضلال، والمؤمنون في شق آخر بعيد عنهم كل البعد.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٥٤)

٥٤- ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ اليقيني، وليس الظني التخميني ﴿أَنَّهُ﴾ القرآن الكريم ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وحي من السماء، وليس تخيلات شيطانية ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ تخشع له ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقيناً ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾(٥٥)

٥٥- ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا على الكفر ﴿فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ في شك من القرآن الكريم، بل في شك من وجود الله تعالى ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فلا تفيدهم التوبة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ ينقطع رجاؤهم وقت وفاتهم.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾(٥٦)

٥٦- ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يوم يتضح الحق من الباطل ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ كنتيجة طبيعية لما كانوا عليه من الإيمان.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(٥٧)

٥٧- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ بما كسبت أيديهم.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(٥٨)

٥٨- ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هرباً من الاضطهاد الديني ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ دفاعاً عن النفس ﴿أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ في الآخرة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ من الأرزاق في الدنيا والآخرة.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾(٥٩)

٥٩- ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾ في جنات النعيم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بما يرضيهم ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل أعداءهم بالعقوبة.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾(٦٠)

٦٠- ﴿ذَلِكَ﴾ الأمر ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ أي قاتل دفاعاً عن نفسه فقط، ولم يزد في عقاب عدوّه على ما ابتدأه به، فذلك هو المبرر الوحيد للقتال في الإسلام ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ إذا عاد العدو إلى عدوانه رغم ذلك ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ يصبح بإمكانه في هذه الحالة فقط أن يستخدم كل وسائله الممكنة لردع البغي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ الله تعالى في هذه الحالة يغفر له تجاوزه في الرد.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(٦١)

٦١- ﴿ذَلِكَ﴾ النصر المشار إليه ﴿بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ فهو وحده واضع السنن الكونية الآفاقية، والسنن الأخرى في خلقه، لا يعجزه شيء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعاء عباده ﴿بَصِيرٌ﴾ بأحوالهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾(٦٢)

٦٢- ﴿ذَلِكَ﴾ الأمر، والاتصاف بكمال القدرة الإلهية، وكمال العلم الإلهي سببه ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إلهاً، أو مولّهاً ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ المعدوم في ذاته ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ على جميع الأشياء ﴿الْكَبِيرُ﴾ عن أن يكون له شريك، تعالى عن ذلك شأناً، فهو أكبر منه سلطاناً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(٦٣)

٦٣- استمرار الخطاب من الآية السابقة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ فمَن غير الله تعالى يقدر على ذلك؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ متفضّل على العباد بإيصال منافعه إليهم بإنزال الماء واخضرار الأرض ﴿خَبِيرٌ﴾ عليم بدقائق الأمور ومقادير مصالح العباد.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(٦٤)

٦٤- ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ خَلقاً، ومُلكاً، وتَصرّفاً ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ لا يفتقر إلى شيء، بل العباد يفتقرون إليه ﴿الْحَمِيدُ﴾ مستحق الحمد بذاته، سواء حَمِدهُ حامد أم لم يحمد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(٦٥)

٦٥- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ﴾ جعلها مذلّلة لكم ومعدّة لمنافعكم تتصرّفون بها كيفما شئتم ﴿وَالْفُلْكَ﴾ السفن ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

بِأَمْرِهِ﴾ بحسب السنن والقوانين الفيزيائية التي وضعها في خلقه ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ﴾ بموجب سننه تعالى في خلقه ومنها قوانين الفيزياء ﴿إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ أي بمشيئته، فعندئذٍ يختلّ النظام الكوني، وتقع الواقعة، انظر آية [الواقعة٥٦/١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ﴾ قاطبةً ﴿لَرَءُوفٌ﴾ بما سخّر لهم من معاشهم ﴿رَحِيمٌ﴾ حتى عمّت رحمته فيهم، مؤمنهم وكافرهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾(٦٦)

٦٦- مزيد من دلائل الإعجاز التي بدأت بالآيات (٦١-٦٥):

﴿وَهُوَ﴾ الله تعالى وحده ﴿الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ من العدم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ ميتتكم الأولى عند مجيء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث والنشور ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ جحود ينكر النِعم.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾(٦٧)

٦٧- بعد أن ذكرت الآية (٦٥) أن الله يرزق عباده على السواء، مؤمنهم وكافرهم، تبين الآيات (٦٧-٦٩) السبب في ذلك بأنّ التنوع في الخليقة مقصود، وليس مصادفة:

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي طريقة في العبادة، ونظيره قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة ٤٨/٥]، ﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾ أحدٌ منهم من تلك الأمم ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ برسالة الإسلام، بالقدوة والموعظة الحسنة، انظر [النحل ١٢٥/١٦]، ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ على الإسلام، والآخرون على ضلال.

﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٦٨)

٦٨- ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ﴾ بباطلهم ﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس ١٠/٤١].

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(٦٩)

٦٩- ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيظهر لكم في حينه الحق من الباطل، والمغزى؛ إنّ تفاوت العقائد في الخليقة ليس مصادفة بل مقصود، وحساب الجميع على الله.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٧٠)

٧٠- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أيها المسلم، أو أيها الإنسان عامةً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ ومن ذلك ما يضمر الناس من عقائد، وما يُظهرون ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ في علم الله الأزلي القديم منذ خلق السماوات والأرض ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾(٧١)

٧١- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ رغم هذا الإعجاز الهائل المشار إليه آنفاً، تبلغ ببعضهم الحماقة أن يعبدوا الأوهام والأوثان ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ من دليل عقلي ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ يؤيدهم وينصرهم على ما هم فيه من الضلال.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٧٢)

٧٢- ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ بشكل لا يقبل اللبس ولا الغموض، مما يدلّ على بطلان ما هم عليه من عبادة غير الله تعالى ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ أي الإنكار ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ لشدة غيظهم وغضبهم وانغلاق عقولهم على ما هم فيه من التقليد، يكادون يبطشون بمَن يتلو عليهم الآيات البيّنات ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمْ﴾ الحال الذي أنتم عليه ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا على كفرهم، فلم يستفيدوا من نعمة العقل ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الذي يختارونه لأنفسهم.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(٧٣)

٧٣- ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾ الذين تجادلون بالباطل ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ جدير بالاعتبار ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ سماع عقل وتفكّر ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الزعماء والأوثان والأوهام ومَن تزعمون فيهم الألوهية ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أوّلهم وآخرهم ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا﴾ من عافيتهم ﴿لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ بل هم حياله في منتهى العجز ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ﴾ لكونه باطلاً من أصله ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾ استنقاذه، رغم حقارته.

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٧٤)

٧٤- ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إذ عبدوا من دونه من أوهامهم ما يضرهم ولا ينفعهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ على أمره.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(٧٥)

٧٥- ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ يبلّغون الوحي للرسل والأنبياء ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ رسلاً إلى أقوامهم، ومع ذلك فليس لأحدٍ منهم، مع الله تعالى

مِن شرك، فليسوا سوى مخلوقات من خلقه يعبدون الله، ولا يستحقّون العبادة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ بأحوالهم، محيط علمه القديم بهم.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾(٧٦)

٧٦- ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من عالم الشهادة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من عالم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، ولا يحيطون بشيء منه إلاّ بقدر ما يشاء ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ خالق كل شيء، ولا يرجع إلى الملائكة والرسل من شيء، فكيف يعبدونهم؟ ويزعمون فيهم الألوهية؟

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٧٧)

٧٧- هذه الآية والتي تليها هي الخلاصة الجامعة للمؤمنين ألاّ يأبهوا لما حولهم من العقائد الباطلة، بل يقوموا بما عليهم من واجب، والله عز وجل يدبر الأمور على النحو الذي يشاء:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أقيموا الصلاة ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ وحده لا إله إلاّ هو ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ اقرنوا العبادة بالعمل الصالح ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ترجون الفلاح في دنياكم وآخرتكم.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(٧٨)

٧٨- ﴿وَجَاهِدُوا فِي﴾ سبيل دين ﴿اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ بكلّ ما يستلزمه جهاد الدعوة من الحكمة والموعظة الحسنة، انظر آيات [النحل ١٦/١٢٥] و [الفرقان ٢٥/٥٢]، ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ اختاركم لحمل رسالة الإسلام ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ لخلوّ العقيدة الإسلامية من أي غموض، ومن أي صعوبة في العبادات، ومن حيث رفض المبالغة في التنسك والزهد، بل إعطاء

الجسد حقه، مع مراعاة أن الانسان خُلق ضعيفاً [النساء ٤/٢٨]، ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ ديانة الإسلام، انظر [البقرة ٢/١٣١]، ﴿هُوَ﴾ الله تعالى ﴿سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ نزول القرآن ﴿وَفِي هَذَا﴾ القرآن ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ فيكون قدوة لكم ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ قدوة لهم قاطبةً، قولاً وفعلاً ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ تقرباً إليه تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ ثقوا به في جميع أموركم وأحوالكم ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم ومتولّي أموركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ لا مثيل له تعالى في الولاية والنصرة.

سورة المؤمنون - ٢٣-

مكية

مقدمة

نزلت في أواخر الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها:

اختتمت سورة الحج المتقدمة بتعريف المسلمين أنهم على ملة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وأمرتهم بالصلاة والزكاة والاعتصام بالله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٧٨/٢٢)، ثم تفتتح سورة المؤمنون ببيان صفات المفلحين من هؤلاء المسلمين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٣/١-١١).

وفي سورة الحج أن من سننه تعالى في خلقه أن يختلفوا على الحق والباطل بالنظر لحرية الخيار التي خلقوا عليها: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ (٦٧/٢٢)، وفي

سورة المؤمنون أن الضالين منهم فرحون بما هم عليه من الضلال: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٢٣/٥٣).

وفي سورة الحج أن مفهوم البشر للزمن الدنيوي لا معنى له: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٢٢/٤٧)، وبيان ذلك في سورة المؤمنون: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٣/١١٢-١١٤)،

محور السورة

فلاح المؤمنين المتصفين بالصفات السامية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١)، بالمقارنة مع وضاعة خلق الإنسان من الطين: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢)، ثم رفع منزلته بنفخ الروح فيه: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٤)، وبعثه من جديد بعد الموت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (١٥-١٦)، ما يوجب عليه حسن استخدام ملكاته في دنياه، لا التقليد الأعمى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٤)، كما في دعاء نوح أن يمنحه الله الهداية والبصيرة كي يصل إلى ما فيه الفلاح الدنيوي والأخروي: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٢٩).

وقد تتالى بعث الرسل على مرّ العصور: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٤٤)، والرُسُل بُعثت للناس برسالة واحدة: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (٥٢)، ثم تفرقت الأمم من بعدهم فرقاً وطوائف: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٣)، فوجب على المسلم -بعد دعوتهم- أن يذرهم حتى يكتشفوا أخطاءهم: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ (٥٤)، لأنهم يظنّون أنّ رخاءهم المادي هو غاية ما يطمح

إليه المرء: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٦)، وأن عقائدهم وأعمالهم على النقيض مما جاءت به الرسل: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ (٦٣).

فما لهم لا يفقهون القرآن إذ هو استمرار لما سبق من تنزيل الوحي: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ﴾ (٦٨)، وأنى لهم إنكار خاتم الأنبياء والرسل المذكور في كتبهم: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ (٦٩)، فقد جاءهم القرآن بكل ما يحتاجون إليه من حقائق ومعارف فأعرضوا عنها: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ (٧١)، وأصرّوا على الكذب على أنفسهم: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٩٠)، لكن دفع الشر لا يكون بمثله، بل بخير منه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٦)، حتى إذا حان وقت الحساب أدركوا أن دنياهم لم تكن شيئاً في جنب الآخرة: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ (١١٢-١١٣)، وإذ كانوا يتوقون للخلود في دنياهم فقد أدبر عنهم في الآخرة مفهومُهم الدنيوي للزمن الذي طالما تشبثوا به.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾(١)

١- ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الفلاح الفوز بالمرام، والبقاء في الخير.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾(٢)

٢- ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ متذللون لله تعالى، متواضعون.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾(٣)

٣- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ الكلام الذي لا طائل ولا فائدة منه، وهو كل ما لايعتد به من الأقوال والأفعال ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عنه في عامة أوقاتهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾(٤)

٤- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ﴾ للعمل الصالح والخير والطهارة ﴿فَاعِلُونَ﴾ عاملون للخير لأجل الطهارة وتزكية النفس، أي ليزكّوا أنفسهم، وليزكّيهم الله تعالى.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾(٥)

٥- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ متّصفون بالعفة.

﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾(٦)

٦- ﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾ لا يجامعون شرعاً إلا أزواجَهم، وفي اللغة الرجل زوج المرأة، والمرأة زوج الرجل ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ بعقد نكاح شرعي، مهما كانت منزلة المرأة، مسلمة أو غير مسلمة، حرّة أو أَمَة، لأن الوطء لا يجوز إلا بعقد نكاح شرعي ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ في ذلك.

﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾(٧)

٧- ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ غير ذلك المذكور من النكاح الشرعي ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ المعتدون على الشريعة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾(٨)

٨- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ يرعون العهود، أي يوفون بها، ويؤدون الأمانات لأهلها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(٩)

٩- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ لأنّ صلاتهم تنهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي، انظر [العنكبوت ٢٩/٤٥].

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾(١٠) ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١١)

١٠-١١- ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المؤمنون المشار إليهم بالآيات (١-٩) المتقدمة ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ فردوس النعيم، المذكور في الآية التالية إنهم يخلدون فيه: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾(١٢) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾(١٣) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(١٤) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾(١٥) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾(١٦)

١٢-١٦- الإنسان مخلوق من طين المواد العضوية، وهي أيضاً سلالة من صلصال من حمأ مسنون المتولد على مر السنين، انظر آية [الحجر ٢٦/١٥]، وعلاقة الآيات (١٢-١٦) بما قبلها من الآيات (١-١١)، لبيان أنّ المؤمنين وحدهم المتصفين بما ذُكر، جديرون بالخشوع والتواضع بسبب فهمهم لمراحل الإعجاز في مراحل خلقهم وتطورهم، ثم موتهم وبعثهم للحساب، وفي الآيات (١٧-٢١) مزيد من دلائل الإعجاز.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾(١٧)

١٧- والإعجاز في خلق السماوات والأكوان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ وهي السماوات السبع المشار إليها مراراً في القرآن الكريم، والمقصود بها الأكوان السماوية المتعددة بما فيها ملايين المجرات والنجوم، والمعروف أن العدد سبعة في اللغة العربية، بل في اللغات السامية، يفيد التكثير ﴿وَمَا كُنَّا عَنْ﴾ تدبير ﴿الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾(١٨)

١٨- والإعجاز في نزول المطر وتخزينه ينابيع في باطن الأرض: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(١٩)

١٩- والإعجاز في إنبات البساتين كدليل ومثال قاطع على البعث والنشور: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾(٢٠)

٢٠- ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ شجرة الزيتون المباركة تنبت في سيناء مهد مبعث موسى عليه السلام، وذكرها هنا كدليل على استمرارية الوحي الإلهي، بل انتقاله من بني إسحاق إلى بني إسماعيل، وعدم ذكر بعثة عيسى عليه السلام كونه كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل خاصة.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(٢١) ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾(٢٢)

٢١-٢٢- مزيد من دلائل الإعجاز التي يعدّها الغافلون مسلّمات: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ* وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ تُحملون عليهما في أسفاركم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(٢٣)

٢٣- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ انتقال الخطاب لبيان إهمال الناس وتركهم النظر والاعتبار فيما عددّ سبحانه من النعم ومن دلائل الإعجاز، ومن ذلك إنعام الله على عباده ببعث الرسل إليهم كي لا يتركهم في حالة من الكفر والتخبط والشرك، لإتمام نعمه عليهم، بعد خلق الإنسان من سلالة من طين.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾(٢٤)

٢٤- ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ وجهاء القوم الذين يملؤون عيون الناس ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أصرّوا على الكفر ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ رسلاً ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ فنحن مصرّون على تقليد الآباء والأجداد، ولا سبيل لقبولنا ما يخالف ذلك.

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾(٢٥)

٢٥- ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أصابه الجنون فادّعى النبوة ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ انتظروا لنرى ما تصير إليه أموره، وقد يفيق ويرجع عما هو فيه.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾(٢٦)

٢٦- ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ انصر رسالتي فيهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ وليكن ذلك عاقبة لتكذيبهم لها.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾(٢٧)

٢٧- ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بحفظنا ورعايتنا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ وأمرنا وتعليمنا لك لكيفية صنعها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالطوفان ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي وجه الأرض، وشُبّه وجه الأرض بالتنور لأن التنانير أو الينابيع تندفع منه، ولأن الينبوع من باطن الأرض كالتنّور في تجويفه، وقد يكون السبب أن باطن الأرض مشتمل على الحمم البركانية فهو كالتنور ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ من بعض الحيوانات، انظر شرح [هود ١١/٤٠]، ﴿وَأَهْلَكَ﴾ الذين آمنوا منهم ﴿إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ بالغرق لإصرارهم على الكفر ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لا تشفع لهم، فإنهم لا يستحقون الشفاعة ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ محكوم عليهم بالغرق لا محالة، بسبب ظلمهم وشركهم.

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٢٨)

٢٨- ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ على السفينة ﴿فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي الحمد لله على إهلاكهم.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾(٢٩)

٢٩- ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكًا﴾ كثير الخيرات ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ لأن نوحاً كان يتوق للنزول في مكان يحقق له ولأتباعه ما ينشد من التطلع نحو الهداية الروحانية والسعادة الدنيوية، وهذه العبرة من القصة المختصرة ها هنا.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾(٣٠)

٣٠- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ عبر جليلة ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ معرضين الناس للاختبار في دنياهم ومعتقدهم.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾(٣١)

٣١- ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ مجتمع آخر من المجتمعات بعد قوم نوح.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾(٣٢)

٣٢- بعد الإيجاز في قصة نوح وبعثته، تبين الآيات (٣٢-٤٤) أن بعث الرسل تتالى في المجتمعات والأمم بما لا يترك مجالاً لادعاء الجهل:

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾ في المجتمعات ﴿رَسُولاً مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ دعاهم رسولهم إلى التوحيد، وإلى تقوى الله كما غيرهم من الأمم.

﴿وَقَالَ الْمَلأ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾(٣٣)

٣٣- ﴿وَقَالَ الْمَلأُ﴾ أشراف القوم ﴿مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أصرّوا على الكفر ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ وأنكروا البعث والنشور ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فتنة لهم ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فلو كان من جنس الملائكة لآمنا به.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾(٣٤)

٣٤- ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ لخاسرون أنفسكم.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾(٣٥)

٣٥- ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ زعموا استحالة البعث في محاولة باطنية منهم للتهرب من المسؤولية الأخلاقية.

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾(٣٦)

٣٦- ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ استبعاداً لهذا الوعد، فلا بعث ولا حساب.

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾(٣٧)

٣٧- ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ الحياة الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾(٣٨)

٣٨- ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدّعيه من كونه رسولاً ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدّقين.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾(٣٩)

٣٩- ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ عليهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ بسبب تكذيبهم لي.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾(٤٠)

٤٠- ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ يندمون في الصباح.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٤١)

٤١- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ الزلازل ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي لا دافع له، كما في قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق ١٩/٥٠]، لأن التوق إلى الخلود باطل ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ كغثاء السيل ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بعدوا بعداً من رحمته تعالى ومن كل خير ومن كل نجاة.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾(٤٢)

٤٢- ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد هلاكهم ﴿قُرُونًا آخَرِينَ﴾ مجتمعات كثيرة أخرى.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾(٤٣)

٤٣- ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ لأنهم ساروا على خطا سابقيهم في الضلال.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾(٤٤)

٤٤- ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ تتتابع ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ في الهلاك ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ تتحدث بهم الأمم والتاريخ ﴿فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ ناهيك عن غلوهم في الكفر والعدوان.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾(٤٥)

٤٥- ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ المعجزات ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ حجة عقلانية ظاهرة، انظر [طه ٥١/٢٠-٥٥].

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾(٤٦)

٤٦- ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ من كبار القوم وأشرافهم ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ مستكبرين.

﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾(٤٧)

٤٧- ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ يأكلون ويشربون الطعام ويمشون في الأسواق ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ من بني إسرائيل عبيد لنا نستغلهم.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾(٤٨)

٤٨- ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ علواً واستكباراً ﴿فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾(٤)

٤٩- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة بعد نجاة بني إسرائيل من فرعون وخروجهم من مصر ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ لعل بني إسرائيل يهتدون، لكنهم نكصوا إلى الوثنية في أكثر من مناسبة.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾(٥٠)

٥٠- ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ معجزة، بحمله المعجز، وتكليمه الناس في المهد، وغير ذلك من المعجزات ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ وهو الماء الجاري في فردوس النعيم، إشارة إلى النعيم الروحاني.

﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(٥١)

٥١- ﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ في الدنيا ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ في بلاغ رسالاتكم ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم عليه.

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾(٥٢)

٥٢- ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بعثتكم إلى الأمم برسالة واحدة، هي رسالة التوحيد ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ اتقوا عواقب الخلاف، أيها الأمم، والخطاب حتى آخر السورة في الكفار في كل زمن وعصر.

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(٥٣)

٥٣- ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ تلك الأمم ﴿زُبُرًا﴾ قِطعاً ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ فرقة ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون منشرحو الصدر، يظنون أنهم يحتكرون الحقيقة لأنفسهم وأن الآخرين على ضلال.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾(٥٤)

٥٤- ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ في جهالتهم التي لا جهالة فوقها ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ تخليةً لأنفسهم حتى حين، لعلهم يتوبون ويعودون إلى رشدهم، أو البعض منهم.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾(٥٥)

٥٥- ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ من متاع الدنيا وزخرفها.

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾(٥٦)

٥٦- ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾ أن الخيرات قد تكون فتنة لهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾(٥٧)

٥٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾(٥٨)

٥٨- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يؤمنون برسالاته.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾(٥٩)

٥٩- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ شركاً خفياً ولا ظاهراً.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾(٦٠)

٦٠- ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ من الصدقات والزكاة ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفة الا يتقبّل منهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ لأنهم يعلمون أنهم راجعون إليه تعالى ومبعوثون للحساب.

﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾(٦١)

٦١- ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ في نيل الخيرات وعملها ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ لا يبطؤون في عملها.

﴿وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾(٦٢)

٦٢- ﴿وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ التكليف غير خارج عن حدود الوسع والطاعة ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يبين صحائف الأعمال ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ يثاب كلٌّ حسب عمله.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾(٦٣)

٦٣- ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ الكفار ﴿فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ في جهالة ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ من فنون كفرهم ومعاصيهم ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ معتادون مستمرون عليها.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾(٦٤)

٦٤- ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ﴾ في الآخرة على ما قدّمت أيديهم، أو في الدنيا بتآكل المجتمعات واندثارها ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ بالدعاء.

﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنصَرُونَ﴾(٦٥)

٦٥- ﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ بالدعاء ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنصَرُونَ﴾ فقد فات أوان الاستجابة. ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾(٦٦)

٦٦- ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي﴾ رسالاتي ﴿تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ ترجعون وتعرضون عن سماعها أشد الإعراض، فضلاً عن تصديقها والعمل بها.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾(٦٧)

٦٧- ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ بالترف المشار إليه في الآية (٦٤)، أو بالمال المشار إليه بالآية (٥٥)، ﴿سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ تهجرون الآيات، المشار إليها بالآية (٦٦)، وتستغرقون في لغو الكلام الفارغ والهذيان في شأن القرآن.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ﴾(٦٨)

٦٨- ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ القرآن الكريم بما فيه من الإعجاز؟ فيفقهوا ما فيه ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ﴾ فقد جاءت الرسل قبل ذلك برسالات التوحيد وتلك سنّة قديمة في الناس.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾(٦٩)

٦٩- ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ محمداً ﷺ؟ وهذا القول ينطبق على الناس في كل العصور، وليس مقتصراً على كفار قريش ﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ فهنالك الكثير من النبوءات بقدومه في الكتب السابقة، انظر مثلاً كتاب (محمد في الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى) تأليف البروفسور عبد الأحد داود.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾(٧٠)

٧٠- ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ زعموا به الجنون ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ وهم غارقون في الباطل ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لأن نظرتهم المادية للدنيا غير ما جاء به القرآن الكريم، وهم يريدون قرآناً يطابق أفكارهم ونظرياتهم المادية.

﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾(٧١)

٧١- ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ﴾ الذي جاء به النبي ﷺ ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ من الفساد والانهماك في مادية الدنيا وزخرفها ﴿لَفَسَدَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ بكسب أيديهم، انظر شرح قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم ٣٠/٤١]، ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ بقرآنهم ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ﴾ عن قرآنهم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لأن القرآن يذكرهم بميثاقهم الفطري المأخوذ عليهم في الأصلاب.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(٧٢)

٧٢- ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ أيها الرسول، أو أيها الداعية في كل زمن ﴿خَرْجًا﴾ من مادة الدنيا ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ رزقه المادي والروحاني خير مما عندهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ الرزق المادي والروحاني على السواء.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٧٣)

٧٣- ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تشهد باستقامته العقول السليمة، لتنقذهم من الضلال والتخبط فيما هم فيه من الشرك والتنظير.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾(٧٤)

٧٤- ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ وهذه سمة متأصلة فيهم، لأنهم بإنكار الآخرة يتمنون أن لا مسؤولية أخلاقية ولا بعث ولا حساب ونشور ﴿عَنِ الصِّرَاطِ﴾ المستقيم ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ منحرفون.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(٧٥)

٧٥- ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ لأن الحياة الدنيا لا تخلو من ضرّ، أي إن المرض والتعاسة يكاد لا يخلو منها أحد ﴿لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي في تلك الحالة لو خلت حياتهم من الضر لازدادوا طغياناً، سوى أن المؤمنين منهم لا يطغون بل يتقبلون ما بهم راضين.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾(٧٦)

٧٦- ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ الدنيوي ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ له ولا يدعونه.

﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾(٧٧)

٧٧- ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بما كسبت أيديهم ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من خير.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾(٧٨)

٧٨- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا، سماع إبصار تعقّل ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم بالاستفادة منها.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(٧٩)

٧٩- ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ نشركم فيها ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للبعث والحساب.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(٨٠)

٨٠- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ لا يشاركه أحد في ذلك ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وحده المؤثر في اختلافهما ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ وتتفكرون في كل ذلك.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ﴾(٨١)

٨١- ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ﴾ فأنكروا الآخرة والحساب.

﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾(٨٢)

٨٢- ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ للحساب؟ بل نريد البقاء في حلّ من أعمالنا وتصرفاتنا.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(٨٣)

٨٣- ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ هكذا زعمت الرسل من قبل ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أكاذيبهم لن نؤمن لها.

﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٨٤)

٨٤- ﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هي للمخلوقات، أم هي للخالق؟

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾(٨٥)

٨٥- ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لا يستطيعون إنكار ذلك، لأن العقل يقر به بداهةً ﴿قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ فذلك مركوز في عقولكم.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(٨٦)

٨٦- ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ﴾ الأكوان التي لا نهاية لها ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ المتحكم في خلقه.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾(٨٧)

٨٧- ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لا يملكون سوى الإقرار ﴿قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ عواقب إنكاركم الآخرة؟ والحساب؟

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٨٨)

٨٨- ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من كل ما ذُكر ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ يمنع من يشاء ممّن يشاء ﴿وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ لا يمنع أحدٌ منه جلّ وعلا ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حق العلم؟

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾(٨٩)

٨٩- ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ مقرّين بذلك ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ تُخدعون وتُصرفون عن الرشد؟

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(٩٠)

٩٠- ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في زعمهم أن لله ولداً.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٩١)

٩١- ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ كما زعمت المسيحية أنّ المسيح ابن الله ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ كما زعم بعضهم أن المسيح الشخص الثالث في الثالوث ﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ لاستبدّ به واستقل به تصرفاً ﴿وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تعالى وتنزه عما يصفون من الشرك.

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٩٢)

٩٢- ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ ما هو خارج نطاق البشر ومفهومهم ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ ما يشاهدونه في دنياهم ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من الأوهام.

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾(٩٣)

٩٣- ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ من عذاب الدنيا.

﴿رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٩٤)

٩٤- ﴿رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لا تجعلني قريناً لهم في العذاب.

﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾(٩٥)

٩٥- ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ ولكن نؤخرهم، لعلمنا أنّ بعضهم يتوبون.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾(٩٦)

٩٦- ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالحسنة التي هي أحسن الحسنات ﴿السَّيِّئَةَ﴾ فتحسن إلى المسيء ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ من محاولات تجسيد الإله في أذهانهم ونقاشاتهم.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾(٩٧)

٩٧- ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ من وساوسهم، فلا أدخل في نزاعات عقيمة مع المجادلين.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾(٩٨)

٩٨- ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ في تلك الأحوال من المنازعات والمجادلات، وحال الصلاة وقراءة القرآن.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾(٩٩)

٩٩- ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ﴾ من منكري الآخرة ﴿الْمَوْتُ﴾ وأيقن أنّ الموت ليس فناءً ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ بعد فوات الأوان، والآيات (٩٩) حتى آخر السورة تبين حال الكفار من وفاتهم إلى بعثهم.

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(١٠٠)

١٠٠- ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ بعد أن فات أوان العمل والاختبار ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ لن تغني شيئاً ﴿وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ حاجز يحول بينهم وبين العودة ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يوم القيامة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾(١٠١)

١٠١- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يوم القيامة ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ لا تنفع الأنساب أحداً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ لايسأل بعضهم بعضاً عن حاله؛ لانشغال كل امرئ بنفسه.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١٠٢)

١٠٢- ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ موزونات حسناته من العقائد والأعمال ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ الناجون.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾(١٠٣) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾(١٠٤)

١٠٣-١٠٤- ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ موازين أعماله الحسنة، أو أعماله التي لا وزن لها ولا اعتداد بها، وهي أعماله السيئة ﴿فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ضيّعوا أنفسهم وأبطلوا استعدادها لنيل الكمال، ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ مكشّرة شفاههم عن أسنانهم.

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾(١٠٥)

١٠٥- ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي﴾ رسالاتي ﴿تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ الرسل.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾(١٠٦)

١٠٦- ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ غلبت علينا شقوتنا بسبب سوء استعدادنا وسوء جبلتنا ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ عن الحق.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾(١٠٧)

١٠٧- ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ من عذاب النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصي ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ متجاوزون الحد.

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾(١٠٨)

١٠٨- ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا﴾ ذلّوا وانزجروا واسكتوا سكوت هوان ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فلا يتكلمون بعدها أبداً.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾(١٠٩) ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾(١١٠)

١٠٩-١١٠- ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ هزواً ﴿حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ سخريتكم بهم أنستكم فقه القرآن ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ في غاية الاستهزاء.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾(١١١)

١١١- ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ عليكم وعلى أذيّتكم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾(١١٢)

١١٢- ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ هل كان لبثكم طويلاً أم قليلاً، وكم سنة كان؟

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ (١١٣)

١١٣- ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لم يتجاوز الجزء من اليوم، فكيف يصل إلى السنين؟ ﴿فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ﴾ الذين بإمكانهم الإحاطة بمفهوم الزمن؟

﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١١٤)

١١٤- ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لو كنتم من أهل العلم، لأن إقامة الدنيا ليست بشيء بالمقارنة مع خلود الآخرة.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾(١١٥)

١١٥- ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ لكن الخلق لم يكن عبثاً وإنما كان ذا مغزى ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ للحساب.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾(١١٦)

١١٦- ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أن يكون الخلق عبثاً ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ وكل ما عداه باطل ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ مدبّر شؤون عباده.

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾(١١٧)

١١٧- ﴿وَمَنْ يَدْعُ﴾ يعبد ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ بل هو من أوهامه ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ لبطلان حساباته ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ الذين يغطّون الحقيقة عن عقولهم وناظرهم.

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾(١١٨)

١١٨- ﴿وَقُلْ﴾ أيها المؤمن ﴿رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

سورة النور - ٢٤-

مدنية

مقدمة

نزلت بأواخر السنة الخامسة وأوائل السنة السادسة بعد الهجرة بعد غزوة بني المصطلق.

ارتباط السورة بما قبلها

ذكرت سورة المؤمنون المتقدمة من أوصاف المؤمنين المفلحين أنهم ملتزمون جنسياً وعائلياً: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (٢٣/٥-٧)، وختمت بأنّ الخلق ليس عبثاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ (٢٣/١١٥)، ثمّ تبين سورة النور ما خُلق له الناس من أحكام تنظّم حياتهم الجنسية والعائلية وأن سيطرة المرء على نزواته بتجنب الزلاّت في مثل هذه الأمور تمكّنه من الارتقاء إلى مستويات عليا، ما يمكّنه من فهم القرآن الكريم والعمل به: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (٢٤/٤٠).

محور السورة

سورة النور منظومة واحدة متكاملة، تبين حدود الزنا والقذف والتشهير، وتشير إلى حادثة الإفك، وتُظهر العِبَر منها، وتُرشد المؤمنين إلى السلوك القويم في مثل هذه الحالات، كأنْ يظن المؤمنون بعضهم ببعض خيراً: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾

(١٢)، وتنهى عن تداول الإشاعات والبهتان: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (١٥-١٦)، وتبيّن قواعد احترام خصوصية الناس في المنازل (٢٧-٢٩)، وتأمر بغض البصر، وحفظ الفرج، وتقيّد إبداء الزينة للنساء (٣٠-٣١).

وتأمر بتسهيل زواج العزاب الأحرار والعبيد (٣٢-٣٣).ثم تضرب السورة مثلاً: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي ذو نور، لأنه تعالى مُظهر السماوات والأرض بإيجادهما وإيجاد أهلهما وهاديهم بالتنوير بالعلم، وما في السماوات والأرض دالّ على وجوده وظهوره ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ المشكاة كوّة غير نافذة في جدار، والكاف كاف التشبيه، لأن الإخبار عنه تعالى بالنور مجاز لا حقيقة، فالله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (١١)، والآية مَثَل لنوره تعالى في قلب المؤمن، أو الهداية في عقل وشعوره من ينشدها. فالمصباح الذي في المشكاة هو الوحي الذي أنزله الله على الأنبياء ينعكس في قلب المؤمن -المشكاة- بعد أن يكون المؤمن قد تمعّن في الوحي وأعمل فيه عقلَه -الزجاجة- ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ لأنه بالعقل فقط يدخل الإيمان ويشعّ في قلب المؤمن ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِيَةٍ﴾ إشارة لتتابع الوحي في منطقة شرق المتوسط المشتهرة بهذه الشجرة، وما تبع الوحي من توسيع مدارك الإنسان في تفهمه للحق ﴿لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ لأن الوحي من الله تعالى الذي لا يحدّه شرقٌ ولا غرب، كما أنّ رسالة القرآن عالمية للناس شرقاً وغرباً ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ رسالة القرآن مضيئة واضحة بيّنة يستسيغها العقل كما في قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١-٢)، وقوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (١/١٥)، ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فالإنسان قد لا يدرك أن القرآن مضيء إذ مسّته نار الوحي فهو ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ يهتدي إليه من يشاء الهداية

إذا أعمل فيه عقله دون تحيز مسبق: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ والحاجة لضرب الأمثال ضرورية لأنّ فهم الحقيقة المطلقة يقصُر عنه إدراك البشر فلا بد من ضرب الأمثال لتقريب الفهم إلى العقول: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣٥).

ثمّ تبيّن السورة حبوط أعمال الكفار الحسنة منها والقبيحة (٣٩-٤٠)، وأن من غاب عنه نور الله الظاهر في الآفاق وفي الوحي فهو في الظلمات: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (٤٠)، وتصف أحوال أصناف المؤمنين المترددين: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧)، وتؤكد واجب المؤمنين في طاعة الله ورسوله، وتبين شروط استخلافهم في الأرض (٥٥) وتفصّل شروط احترام الخصوصية في بعض أوقات الراحة (٥٨-٦٠)، وتنفي الحرَج عن المعوّقين في قبول العون، والأكل من بيوت الأقرباء (٦١)، وتأمر بالالتزام بواجبات الجماعة وبتعليمات المسؤولين (٦٢-٦٤).

خلاصة السورة

بيان حدود الزنا والقذف والتشهير، الآيات (١-١٠).

حادثة الإفك والعبر منها (١١-٢٦).

احترام الخصوصية في المنازل (٢٧-٢٩).

غض البصر وحفظ الفرج وتقييد إبداء الزينة للنساء (٣٠-٣١).

تسهيل زواج العزاب الأحرار والعبيد (٣٢-٣٤).

بيان نور الله في القرآن (٣٥-٣٨).

حبوط أعمال الكفار الحسنة والقبيحة (٣٩-٤٠).

بيان بعض آيات الله تعالى الآفاقية (٤١-٤٦).

أحوال أنصاف المؤمنين المترددين (٤٧-٥٣).

واجب المؤمنين في الطاعة وشروط استخلافهم في الأرض (٥٤-٥٧).

احترام الخصوصية في أوقات الراحة (٥٨-٦٠).

نفي الحرج عن المعوقين في قبول العون، والأكل من بيوت الأقرباء (٦١).

وجوب الالتزام بواجبات الجماعة وبتعليمات المسؤولين (٦٢-٦٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١)

١- هذه ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ كافة السور القرآنية أنزلها وفرضها الله تعالى، وتخصيص هذه السورة بذلك بيان بشدة أهميتها، بل هو إنذار بعدم التجاوز في تفسيرها أو إضافة أو استنتاج أحكام إضافية منها ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات لا تحتاج لمزيد من الشرح ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما فيها على الدوام، والآيات (١-١٠) مقدمة لما سوف يليها من الخطاب عن حادثة الإفك بالآيات (١١-٢٦).

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢)

٢- ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ لم تحدد الآية إن كان أحد طرفي الزنا متزوجاً أم لا ﴿وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ لا تلطّف ولا رفق في معاملتهما ﴿إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لم تحدد الآية عدد الذين يشهدون عملية الجلد، فليس بالضرورة أن تكون العملية على مرأى من الجمهور، بل عدد محدد من الشهود في مكان خاص يكفي.

﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣)

٣- ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً﴾ ليس معنى ذلك تحريم زواج الزناة إلا بعضهم من بعض، ولكن المعنى أن طرفي العمل الجنسي في هذه الحالة ينطبق عليهما صفة الزاني والزانية، بل ينطبق عليهما معاً صفة الشرك لأنهما جعلا هواهما وشهواتهما فوق ما اقتضاه التوحيد من أخلاق وسمو ﴿أَوْ مُشْرِكَةً﴾ كلاهما مشركان بسبب هذا العمل ﴿وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ ينطبق عليها من الصفات ما انطبق عليه، فهما على قدم المساواة ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ كي لا يخرجوا من دائرة الإيمان إلى دائرة الشرك، لكن بعد عملية الجلد تكون الجريمة الجنسية قد جرى افتداؤها، فلا معنى أن يمتنع الزاني أو الزانية من الزواج من أشخاص عفيفين أو عفيفات بعد ذلك.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٤)

٤- ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ المتزوجات، أو المؤمنات، أو المحترمات مسلمات وكتابيات، انظر تعريف المحصنات في شرح آية [النساء ٤/٢٥]، ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ وهو ضعف العدد المطلوب من الشهود في الحالات الاعتيادية من المعاملات التجارية وغيرها، وفي السنة الشريفة المطلوب أن يكون الشهداء الأربعة قد شهدوا العمل الجنسي مما يكاد يكون مستحيلاً من الناحية العملية، فالمغزى إذن استبعاد الاتهامات الباطلة من هذا النوع بالنظر لما تسببه من تفسخ في المجتمع، خاصة أن الإنسان خلق ضعيفاً [النساء ٤/٢٨]، فلا تثبت التهمة من هذا النوع إلا بالاعتراف الطوعي من أحد الطرفين أو كليهما ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ إذا لم يأتوا بشهداء أربعة ﴿وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ إلا بعد التوبة ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن حدود الشريعة والطاعة.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٥)

٥- ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي سحبوا اتهاماتهم لما زعموا من زنى الآخرين ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقبل توبتهم وصلاحهم ويغفر لهم.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ﴾(٦)

٦- ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ﴾ شهادته تحل محل أربع شهادات.

﴿وَالْخَامِسَةُ أَنْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنْ الْكَاذِبِينَ﴾(٧)

٧- ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنْ الْكَاذِبِينَ﴾ يستبعد نفسه من رحمة الله.

﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنْ الْكَاذِبِينَ﴾(٨)

٨- ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنْ الْكَاذِبِينَ﴾ وبذلك تنتفي شهاداته الأربع، فيصبح مجرّد ادّعائه ضد ادّعائها.

﴿وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنْ الصَّادِقِينَ﴾(٩)

٩- ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنْ الصَّادِقِينَ﴾ تستبعد نفسها من رحمة الله، إن كانت كاذبة، وبعد هذا اللعان لم يبق سوى الطلاق.

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنْ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾(١٠)

١٠- ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ أي لفسد المجتمع لو تُركت مثل هذه الحالات مبنية على براهين غير قطعية، أو على شهود سماع وإشاعات، وقد ينتج عنها جرائم غير مبررة، ومشاكل عائلية وانفصال غير مبرر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١١)

١١- الآيات (١١-٢٦) تشير إلى حادثة الإفك والعبر المستخلصة منها، وهي معروفة في كتب السيرة، وخلاصتها: إنه بعد غزوة بني المصطلق في العام ٥ هجرية، فلمّا المسلمون مخيمهم، واتجهوا نحو المدينة، فتخلفت عائشة لقضاء حاجة دون أن يشعر بها أحد، وبعد ساعات التقى بها أحد الصحابة فلحق بها إلى الركب مما سبب نشر بعض الشائعات الكاذبة المغرضة المشار إليها بالإفك، والقصد من القصة كما في باقي قصص القرآن الكريم أخذ العبر، وليس مجرد الرواية التأريخية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ﴾ وهو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء والبهتان ﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ العديد منكم ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون لما نلتم على الصبر عليه من الثواب العظيم، ولما أصابكم بسببه من الغم والهم قبل انجلاء حقيقته، ولما ظهر به من العبر ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ﴾ من الذين جاؤوا بالإفك ﴿مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾ أي جزاء ما اكتسب من الإثم ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا بظهور كذبه وخزيه، وفي الآخرة، وقيل هو عبد الله بن أبيّ بن سلول كبير المنافقين، وقد يكون أيّاً من كبار المنافقين غيره، الذين أخذوا على عاتقهم تضخيم الأمور بأسلوب غير قانوني وغير أخلاقي اعتماداً على ظروف مشبوهة غير مؤكدة لجعل الحديث في الفضيحة المزعومة مستساغاً.

﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾(١٢)

١٢- ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ الإفك ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ﴾ بجماعة المسلمين ﴿خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ لا يحتاج إلى الشك في كذبه.

﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾(١٣)

١٣- ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ كما نصت الآية (٤) ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ محكوم عليهم بالكذب شرعاً.

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١٤)

١٤- ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ بأن عفا عنكم وأمهلكم للتوبة ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ من حديث الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا قبل الآخرة.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾(١٥)

١٥- ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ تقولون بالأفواه كلاماً غير محقق بلا مصداقية، وليس له منشأ في الحقيقة ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ كلام اللغو والإشاعات ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أمر عظيم لا يقدر وزره وتبعاته.

﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾(١٦)

١٦- ﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ الإفك ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لك تعالى عن كل نقص وسوء أن تصم نبيك وزوجه بما يشين ﴿هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ تبهت له السامعون لبشاعته واستحالته.

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١٧)

١٧- ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ﴾ ينصحكم ﴿أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ كراهة أن تعودوا لمثله ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فالعودة لمثله معناها الخروج من دائرة الإيمان.

﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١٨)

١٨- ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ رسالات الشرائع ومحاسن آداب المعاملة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يجب أن يتعاملوا به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(١٩)

١٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ بشيوع خبرها، أو شيوعها في المجتمع ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وينشرون الفضائح سواء الصحيحة منها أوالمختلقة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ كما هو مذكور بالآية (٤)، ﴿وَالآخِرَةِ﴾ إضافة إلى عذاب الآخرة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ ما فيه مصالحكم، وفي الحديث: ((إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)).

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(٢٠)

٢٠- ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ تكرار للآية (١٠) لأهميتها، وجواب الشرط محذوف وتقديره متروك للقارئ، والمغزى؛ إن الفساد يعمّ لو تُركت مثل هذه الحالات مبنية على براهين غير قطعية، أو على شهود سماع وإشاعات.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢١)

٢١- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ لا تتبعوا وساوسه في إشاعة الفحشاء في المجتمع ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ما

تنكره الفطرة والطبيعة ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما ينكره الشرع ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بإنزال هذه الآيات البينات ﴿مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ ما طهر من دنس الذنوب أحدٌ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي﴾ يطهّر ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده ممن يستحق الطهارة، لأن الإنسان خُلق ضعيفاً ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لتائبين ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم.

﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢٢)

٢٢- ﴿وَلا يَأْتَلِ﴾ لا يحلف على الامتناع ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ في الدين ﴿وَالسَّعَةِ﴾ في المال ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى﴾ أي كراهة أن يؤتوا ﴿وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من مال الله الذي آتاهم ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ على ما بدر منهم من الذين تعاطوا في حديث الإفك ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بمقابلة عفوكم وإحسانكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٢٣)

٢٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بالإشاعات، سواء الصحيحة منها أو الكاذبة ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ بعدوا من رحمة الله لما يشيعونه في المجتمع من الفساد ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هائل، بالنظر إلى أن المحصنات غافلات عمّا يُتّهمن به.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢٤)

٢٤- ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى عليه تعالى منهم شيء.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾(٢٥)

٢٥- ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ الدين من الديّان وهو الله تعالى، والتوفية إعطاء الشيء وافياً، وفي الحديث "كما تدينُ تُدان"، أي الله تعالى يحاسبهم يوم القيامة بما شهدت عليه جوارحهم ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ علم اليقين ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ على الدوام.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(٢٦)

٢٦- ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ لأن ذلك من طبيعة الأمور ﴿أُولَئِكَ﴾ الطيبون والطيبات ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ مما يقوله عنهم الخبيثون والخبيثات ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ من الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الرزق الروحاني والمادي.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٢٧)

٢٧- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ تستأذنوا سكانها ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ وتسلّموا عليهم ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ للمجتمع ككل، من الدخول بغتةً ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما فيه صالحكم. وارتباط الآيات (٢٧-٢٩) مع ما قبلها واضح، لأن الاستئذان قبل الدخول من شأنه أن يزيل كل لبس لجهة خصوصية السكان، وما يمكن أن يشاهده الداخل عليهم لو دخل من غير استئذان.

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(٢٨)

٢٨- ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ من قبل أصحابها ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ ولا تصرّوا على الدخول ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أطهر من اللج والعناد، ومن دنس الدناءة والرذالة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ بنواياكم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾(٢٩)

٢٩- ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ من البيوت العامة ليتمتع بها من يحتاج إليها كائناً مَن كان، كالتكايا والمساجد والمباني العامة والخانات والحمامات ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ من نوايا ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ منها.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(٣٠)

٣٠- ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ لا ينظروا إلى ما لا يحل لهم، ويستتبع ذلك أن يكون اللباس محتشماً ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ من الزنا، ومن كل ما يسبب التهيج الجنسي ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ لنفوسهم ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ في مثل هذه الأمور، ونلاحظ ارتباط الآيات (٣٠-٣٤) بما قبلها لجهة العفة وغضّ البصر واللباس المحتشم، والنكاح الشرعي.

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٣١)

٣١- ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ لا ينظرن إلى ما لا يحل لهنّ ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عمّا لا يحل لهنّ من الزنا ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بحيث لا تسبب الفتنة للرجال، وما ظهر منها هو ما جرت العادة والجبلّة على ظهوره في البلد والمجتمع الذي تعيش فيه، حيث لا تلفت الأنظار إليها، وقالوا: إن ذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في التستر، وهو من باب

الكناية ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ الخمار غطاء الرأس كانت النساء ترتديه في الجاهلية وتلقيه على رقبتها من الخلف، بحيث تبقى فتحة قميصها من الأمام، المسمى جيبها، مكشوفاً فأمرت الآية أن تغطي به نهديها ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ شملت الآية الأزواج والآباء والأبناء والإخوان وبنيهم والنساء وملك اليمين من الإماء ﴿أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ الطاعنين في السن ﴿أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ الأطفال الذين لم يعرفوا ما العورة ﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ لا يلفتن النظر إلى مواقع الزينة عندهن ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن المؤمنين جميعاً عرضة للوقوع في الفتنة والإغراء حتى الأتقياء منهم، لأن الإنسان خلق ضعيفاً ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تصلون إلى الفلاح المعنوي دون الوقوع في الإغراء.

﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٣٢)

٣٢- ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ﴾ العزّاب من الرجال والنساء ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ الصالحين للزواج من الناحيتين الأخلاقية والجسمية، ولجهة النضوج الفكري، ومغزى الآية أنها؛ تنكر كل اتصال جنسي غير مشروع خارج عقد النكاح ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من رزقه، ويرزق ذريتهم ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ الرحمة ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم وبأحوالهم.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفْ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٣٣)

٣٣- ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ عن الزنا ﴿الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي بسبب الفقر، أو لأنهم لا يجدون من الطرف الآخر ما يناسبهم، أو لأي سبب آخر ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ المادي والمعنوي ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد الذكور والإناث يعرض أحدهما على المالك عملاً لمدة محددة يصبح بعدها حراً يتصرف بنفسه ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ إن كانت النوايا سليمة، وإن علمتم فيهم أمانة ومقدرة على الكسب، لأن النظام الإسلامي قضى بإنهاء العبودية على مراحل ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ إعانة لهم أو قرضاً ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ﴾ إمائكم ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ الزنا ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ يردن التعفف ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من المال الحرام ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور لهنّ رحيم بهنّ.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٤)

٣٤- ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ للصواب من الخطأ ﴿وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الأمثال المضروبة كقصة عائشة وحديث الإفك ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الخطأ ويعتبرون منه.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِيَّةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٣٥)

٣٥- بعد أن فصّلت السورة بعض الأحكام الدنيوية عن الزنا والإفك والنكاح وخصوصية المنازل، تنتقل الآن لبيان نوره تعالى في الآفاق وفي قلب المؤمن، الآيات (٣٥-٣٨)، ما يمكّنه من تحقيق ما تقدّم من الأخلاق الحميدة:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ بظهوره الدائم وبظهور مخلوقاته التي تدل على وجوده ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ في قلب المؤمن، وهي الأدلة العقلية، والنقلية من الوحي، أي المعارف والعلوم التي أفاضها تعالى في قلبه ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ كوة في الجدار غير نافذة، أي كصفة المشكاة في الإثارة والتنوير في قلب المؤمن، والكاف كاف التشبيه وهي تعني استحالة تعريف الله سبحانه ولو بطريق الكناية والمجاز ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ في المشكاة سراج ضخم ثاقب ذو فتيلة مشتعلة، وهو الأدلة العقلية التي بها فقط يتوصّل إلى الإيمان ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ في قنديل من الزجاج الصافي، تشابة الأدلة النقلية من الوحي ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ مضيء متلألئ، منسوب إلى الدرّ ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ كثيرة المنافع ﴿زَيْتُونِةٍ﴾ تنبت في أرض النبوات شرق البحر الأبيض المتوسط ﴿لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ لا يحجبها شيء عن الشمس ولا يظلها جبل ولا شجر فتصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها، ورسالتها أيضاً عالمية للناس قاطبة شرقاً وغرباً ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ إشارة إلى الرسالات السماوية، توضح الحقيقة من تلقاء نفسها، ويكاد الوحي يظهر للخلق قبل نزول القرآن ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ بالنظر لعقلانيتها وسلامتها من التناقض ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ الهداية، فيوفقه إليها ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ لكي يصل إلى أفهامهم ما لايصل إلاّ بالأمثال، ولإبراز المعقول في هيئة المحسوس ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ معقولاً أو محسوساً، ظاهراً أم باطناً.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾(٣٦)

٣٦- استمرار الخطاب من الآية السابقة، أي المشكاة المشار إليها هي في المساجد: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ المساجد ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ سبحانه ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ﴾ النهار ﴿وَالآصَالِ﴾ والليل، فلا تتحقق المقاصد الروحانية فيها من التسبيح إلاّ من قبل البعض كما في الآية التالية:

﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾(٣٧)

٣٧- ﴿رِجَالٌ﴾ أفراد من الجنسين ﴿لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ﴾ من أغراض دنيوية ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ﴾ يوم القيامة.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٣٨)

٣٨- ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ من أعمالهم الحسان، ويتغاضى عن الأقل والسيئ منها ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بما لم يستحقوه بأعمالهم ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ رزقاً روحانياً ومادياً فوق ما الإنسان أهل له.
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(٣٩)

٣٩- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ﴾ التي هي من أعمال البر تحبط، لأن الكفر مُحبط للعمل ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ القيعة جمع ما تسميه العرب القاع، وهو المنبسط البعيد من الأرض الجدباء يلمع تحت أشعة الشمس ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ بسبب بريقه تحت الشمس عن بعد ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾ العطشان ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ سوى أنه سراب خادع وكذلك هو عمل الكافر ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ كما هو دائماً وأبداً ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ وافياً كاملاً في دنياه، ولم يبقَ شيء لآخرته ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لأن الموت أقرب بعيد، يليه البعث والحساب.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾(٤٠)

٤٠- ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ معطوف على ما تقدّم؛ أي أعمال الكفار السيء منها، كظلمات ﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ عميق كثير الماء ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ بحر مضطرب هائل ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أعمال الكافر القبيحة ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ لشدة الظلمة ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾ في قلبه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ يهتدي به، بخلاف ما ورد في الآيات (٣٥-٣٨) عن نوره تعالى في قلب المؤمن.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(٤١)

٤١- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تسبيح تنزيه عن كلّ نقص وسوء ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ في الجو بأجنحتهنّ ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ هم الكفار الذين عموا عن تسبيح الخلق للخالق.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾(٤٢)

٤٢- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ للبعث والحساب.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾(٤٣)

٤٣- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ يسوقه برفق وسهولة ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ فيتصل السحاب مع السحاب ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ متراكماً بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ المطر ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا﴾ جبال من الغيم كما ترى اليوم من الطائرات ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ مطر متجمّد

﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ من فرط الإضاءة وسرعة ورودها.

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾(٤٤)

٤٤- ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتتابعان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ لكل مَن له بصيرة.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٤٥)

٤٥- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ كل من يدب على الأرض، بمن فيها الطيور، انظر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء ٢١/٣٠]، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يخلق ما يشاء كما يشاء.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٤٦)

٤٦- ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ للحق ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ الهداية بتوفيقه إلى النظر الصحيح في الآيات القرآنية والآفاقية وتدبّر معانيها ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إلى حقيقة الحق.

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾(٤٧)

٤٧- رغم الآيات الباهرات المشار إليها آنفاً، (٤١-٤٦)، هنالك أنصاف المؤمنين المذبذبين، الآيات (٤٧-٥٣):

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ وهم أنصاف المومنين ﴿وَأَطَعْنَا﴾ الله والرسول، يزعمون الطاعة ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ يعرض عمّا يقتضيه قولهم ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ بعد ادعائهم الإيمان بالله وبالرسول ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقةً، بل هم مؤمنين في الظاهر.

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾(٤٨)

٤٨- ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ بمقتضى القرآن الكريم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ يعرضون عن المحاكمة، لكون الحق عليهم.

﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾(٤٩)

٤٩- ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ منقادين.

﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٥٠)

٥٠- ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ من النفاق ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ وشكّوا في نبوّته ﷺ ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ بسبب ضعف إيمانهم يخافون أن يجور الرسول عليهم ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وهو السبب الحقيقي لإعراضهم.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٥١)

٥١- ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إيماناً حقاً ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بلا أي تحفظ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل مطلوب والناجون من كل محذور.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾(٥٢)

٥٢- ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ على ما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ في ما يستقبل ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٥٣)

٥٣- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ جاهدين أيمانهم ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ إلى الجهاد، وهذا أيضاً من فنون نفاقهم وكفرهم ﴿قُلْ لا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ العبرة ليست بالقسَم، وإنما بالتنفيذ والطاعة ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من أعمالكم الظاهرة والباطنة، ومن الكفر والنفاق، ثم تبين الآيات (٥٤-٥٧) واجبات المسلمين في الطاعة وشروط استعلافهم في الأرض:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾(٥٤)

٥٤- ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا﴾ إن أعرضتم عنه وعن رسالة الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ من الرسالة والبلاغ ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ من الاستجابة لنداء العقل، والوحي ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ إلى الحق ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ بلا إكراه.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٥٥)

٥٥- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أن يصيروا خلفاء في الدنيا، وتصبح لهم السلطة والأمن، بما يفي من حاجياتهم الدنيوية وقيامهم بواجباتهم الدينية من نشر رسالة الإسلام ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المؤمنة ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ الإسلام، وبأن يزيد نفوذهم المعنوي في العالم باتّباعه ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ

مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ من أعدائهم ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ من الأوهام والزعامات ومادة الدنيا ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن الحدود، والآية تفيد القاعدة العامة من سننه تعالى في الخلق في نشوء الأمم وانحطاطها بحسب استجابتها للرسالة الإلهية.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٥٦)

٥٦- ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ تأكيداً على الإيثار ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في كل ما أمركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالأوامر الثلاثة المتقدّمة. ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٥٧)

٥٧- ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا على الكفر ﴿مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ لا يعجزون الله هرباً ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الذي قدّموه لأنفسهم، حتى لو فاتهم عذاب الدنيا.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٥٨)

٥٨- بعد أن بيّنت الآيات (٥٤-٥٧) واجبات المسلمين في الطاعة وشروط استخلافهم في الأرض، وكانت الآيات (١-٣٤) قد بيّنت وجوب احترام خصوصية المنازل وغض البصر وتسهيل زواج العزّاب، يعود الخطاب بالآيات (٥٨-٦٠) لبيان احترام خصوصية الأفراد في أوقات الراحة:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي في الدخول عليكم، والمقصود بهم العبيد والإماء، الكبار والصغار منهم ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ من الأطفال، سواء كانوا من الأقرباء أم لا ﴿ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾ في اليوم والليلة ﴿مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ﴾ المرة الأولى ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ حين تخلعون ثيابكم وقت القيلولة ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ﴾ ليلاً

﴿ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ هنّ ثلاث عورات كائنة لكم، أو هي أوقات ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ في الدخول عليكم من دون استئذان ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بعد هذه الأوقات، يطوفون عليكم للخدمة ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ الدالّة على ما فيه نفعكم وصلاحكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ بها.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٥٩)

٥٩- ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ الأطفال الأقرباء منكم وغير الأقرباء ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ في الدخول عليكم في جميع الأوقات كما الرجال الكبار ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الذين بلغوا الحلم من قبلهم وهم الرجال ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ لما فيه مصلحة المجتمع ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في تقديرها.

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٦٠)

٦٠- ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قعدن عن الحيض والولد بسبب الكبر ﴿اللاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لا يطمعن فيه ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ الظاهرة ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ لا يكشفن زينتهنّ ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ بترك التبرّج، وترك وضع الثياب الظاهرة عليهنّ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأحاديثهنّ ﴿عَلِيمٌ﴾ بمقاصدهنّ.

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ

أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٦١)

٦١- بعد أن بيّنت الآيات (٥٨-٦٠) وجوب احترام الخصوصية في أوقات الراحة، تنفي هذه الآية الحرج في قبول العون ومؤاكلة الأقرباء:

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ حرَج، أي إثم ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أي بيوت أزواجكم وعيالكم ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ شملَ بيوت الآباء والأمهات والإخوان والأخوات والأعمام والعمّات والأخوال والخالات ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ ممّا تحت أيديكم وتصرفكم من بستان أو ماشية وكالةً أو حفظاً ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ بيوت صديقكم، المقصود به المفرد والجمع ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ حرَج ﴿أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ مجتمعين ومتفرقين ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ من البيوت المذكورة ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ على أهلها باعتبار وحدة الأهل والمجتمع، فالآية جعلت أنفس المسلمين كالنفس الواحدة ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ تطيب لها نفس السامع ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الشرائع ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ المغزى من الأخوّة بين المؤمنين في المؤاكلة بلا حرج وتفادي الشكليات فيما بينهم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٦٢)

٦٢- بعد رفع الحرج عن المعوّقين لم يبقَ سوى بيان الالتزام بواجبات الجماعة وبتعليمات المسؤولين:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إيمان اليقين ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ يجب اجتماعهم في شأنه كالجمعة والأعياد والجهاد ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ في الذهاب ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الكاملين في الإيمان ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ الأمر مفوّض إليه إن شاء أذن، وإن لم يشأ لم يأذن ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ أعذارهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ مبالغ في المغفرة لهم ﴿رَحِيمٌ﴾ يفيض من رحمته عليهم.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٦٣)

٦٣- ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً، ولكن قولوا: يا رسول الله، يا نبيّ الله ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ يتسللون قليلاً قليلاً عن جماعة المسلمين على سبيل الخفية ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ يُعرضون عن أمره ويخالفون سنته ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ بلاء ومحنة في الدنيا، لعِظَم مخالفته ﷺ ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا أو الآخرة.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٦٤)

٦٤- ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الموجودات بأسرها إيجاداً وخلقاً وملكاً وتصرّفاً ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلّفون من الأحوال والأوضاع ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يعلمها أيضاً ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ خيراً أو شرّاً ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أحوالهم فيجازيهم بها.

سورة الفرقان - ٢٥-
مكية

مقدمة

نزلت في أواسط الفترة المكية حوالي السنة السادسة بعد البعثة.

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن ضربت سورة النور المتقدمة مثلاً بنور الله في السماوات والأرض إذ يهدي عباده بالتنوير بالعلم وبآيات الآفاق وبالوحي، وأنّ كل ما في السماوات والأرض دالّ على وجوده وظهوره، وأن الوحي يشع في قلب المؤمن كأنه مصباح في مشكاة، وأن رسالة القرآن عالمية للناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها: ﴿لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ والقرآن ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ يهتدي إليه من يشاء الهداية إذا أعمل فيه عقله دون تحيز مسبق: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (٣٥/٢٤)، تبدأ سورة الفرقان بالإشارة إلى القرآن فرقاناً بين الحق والباطل نذيراً للعالمين: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١/٢٥)، وأنّ الوحي القرآني ليس سوى جزء من المنظومة الكونية والآيات الآفاقية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ (٥٠/٢٥).

محور السورة

نزول القرآن الكريم فرقاناً بين الحق والباطل نذيراً للعالمين: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١)، لكن المصرّين على الكفر

ينسبونه إلى الإفك ويزعمون أنّ الرسول تقوّله، كما زعموا ويزعمون أنه مقتبس من التعاليم المسيحية اليهودية: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (٤)، بل إنهم يكذبون بالبعث والحساب: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ (١١)، ويعبدون الأوهام فيضلّون ويُضلّون: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ (١٧).

ثم إنّ عدم التزام الكثير من المسلمين ما يجعلهم مسلمين بالاسم فقط، فلا يقرؤون القرآن، ولا يفقهون محتواه: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (٣٠)، أما المصرّون على الكفر فقد احتجّوا بأن القرآن لم ينزل على النبي دفعة واحدة، وقد غفلوا عن الإعجاز الهائل في نزول القرآن منجّماً على فترة البعثة النبوية حيث إن ترتيب النزول بحسب ظروف البعثة مغاير للترتيب القرآني الصالح لكل العصور: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (٣٢).

والإشكال عند المكذّبين والغافلين يكمن في اتباع الهوى فيعيشون كالأنعام لا يسمعون سماع فهم ولا يستخدمون عقولهم على النحو السوي: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (٤٣-٤٤)، ولقد صرّف القرآن الكريم الحجج لهم بكل وسيلة وبضرب الأمثال بما يثبت دون أدنى شك وجود خالق مهيمن، فلم يفقهوا: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ (٥٠)، وما على المؤمنين تجاه ذلك سوى مجاهدة أمثالهم بالحجج القرآنية: ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (٥٢)، والمفارقة أن المشككين والغافلين يدْعون الله عند الشدائد وينسونه وقت الرخاء، فالله تعالى يمهلهم لعلهم يتوبون ولا يهملهم، فإن أصرّوا ولم يتوبوا ويثوبوا إلى

رشدهم كان العذاب في الآخرة نتيجة لازمة لما قدّموا في دنياهم: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ (٧٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(١)

١- ﴿تَبَارَكَ﴾ تمجّدَ، وتزايد خيرُه وعطاؤه وتكاثر ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ القرآن الكريم الفارق بين الحق والباطل ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ النبي ﷺ، ﴿لِيَكُونَ﴾ القرآن، أو النبي ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ إنذاراً مخوّفاً.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(٢)

٢- ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ المتصرّف فيهما ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ لم ينزل أحداً منه منزلة الولد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ إذن لذهبَ كل إله بما خلق ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ﴾ هيّأه لما أراد به من الخصائص والأفعال اللائقة به ﴿تَقْدِيرًا﴾ تقديراً بديعاً لا يُبلغ كنهُه، كتهيئة الإنسان متحانساً في حاجياته المادية والمعنوية.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾(٣)

٣- ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ الله ﴿آلِهَةً﴾ من تخيلاتهم، ومن أوهامهم، وممّن يرونهم أشخاصاً مؤلهين ﴿لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ هم أعجز أن يخلقوا شيئاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ اللهُ خالقهم، وهم يُخلَقون أيضاً، من قبل عَبَدتهم من الإفك والخيال والوهم ﴿وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾ دلالة على غاية عجزهم، فمن لا يملك الضر والنفع لنفسه فمن باب أولى لا يملكه لغيره ﴿وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ بإماتة الأحياء ﴿وَلا حَيَاةً﴾ بإحياء الأموات ﴿وَلا نُشُورًا﴾ لا يقدرون على البعث والنشور والحساب.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾(٤)

٤- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا﴾ القرآن ﴿إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ اخترعه رسول الله ﷺ ولم ينزل عليه ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ من أهل الكتاب ﴿فَقَدْ جَاءُوا﴾ الكفار القائلون بذلك ﴿ظُلْمًا وَزُورًا﴾ كذباً عظيماً، ويحتمل المعنى أيضاً أن الكفار القائلين نسبوا الظلم والزور إلى أقرانهم من أهل الكتاب، وقد زعموا أن الذين أعانوه من أهل الكتاب من سكان الجزيرة العربية، مع أنه لم يثبت أن كان هنالك مركز ثقافي لليهودية والنصرانية أو لإحديهما في جزيرة العرب وقت البعثة النبوية.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾(٥)

٥- ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ كتبها لنفسه، أو أمرَ أحداً أن يكتبها له ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ كتابةً ﴿بُكْرَةً﴾ نهاراً ﴿وَأَصِيلاً﴾ وليلاً.

﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(٦)

٦- ﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول، وأيها المؤمن: ﴿أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أسرار الغيب ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ للمؤمنين بالغيب، انظر [البقرة ٢/٣]، فأنّى لبشر أن يكتب مثله؟.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾(٧)

٧- ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ كيف يكون بشراً؟ أو من جنس البشر؟ ﴿لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ من جنس الملائكة ﴿فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ينذر الناس، حتى يؤمنوا به.

﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا﴾(٨)

٨- ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ من السماء يكون برهاناً مادياً على ادعائه بالوحي ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ بستان يأكل منه دون عناء ولا تعب ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا﴾ زعموا أنّ القرآن من جنس السحر.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾(٩)

٩- ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ من الأباطيل ﴿فَضَلُّوا﴾ عن الصواب ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ مبهوتين محتارين في القدح بنبوّته ﷺ.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾(١٠)

١٠- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ خيراً من إلقاء الكنوز إليك ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ وخيراً من الجنات المشار إليها بالآية (٨)، ﴿وَيَجْعَلْ لَكَ﴾ فيها ﴿قُصُورًا﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾(١١)

١١- ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ بالآخرة، وهذا هو مقصودهم، تهرباً من المسؤولية والحساب ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ النار شديدة الاستعار.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾(١٢)

١٢- ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ بالنظر لبلادتهم، فهي تتغيظ من كفرهم وبلادتهم وما كانوا عليه في دنياهم من الغباء والغفلة.

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾(١٣)

١٣- ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ﴾ مقيّدين بالأصفاد مع شياطينهم ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ دعوا هلاكهم وتمنّوه فلم يأتهم.

﴿لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾(١٤)

١٤- ﴿لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ هلاكاً واحداً ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أكثر من هلاك لا ينقذكم، انظر قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا﴾ [طه ٢٠/٧٤].

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾(١٥)

١٥- ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ على أعمالهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ ينقلبون إليه.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً﴾(١٦)

١٦- ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من السكينة والاطمئنان ﴿خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً﴾ في خلودهم بها.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾(١٧)

١٧- ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ تعالى فيقول للمعبودين، تقريعاً للعَبَدة ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأوهام والزعماء المولهين ﴿فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ﴾ العَبَدة الذين عبدوكم ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ ضلّوا عن السبيل بأنفسهم لإخلالهم بالنظر الصحيح؟

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾(١٨)

١٨- ﴿قَالُوا﴾ العَبَدة ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أولياء نعبدهم من دونك ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ بمباهج الدنيا فطغوا واستكبروا وادّعوا الألوهية ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ القرآن الكريم ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ هالكين، أضلّونا معهم.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾(١٩)

١٩- ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ﴾ أيها المعبودين وتبرّأ منكم عابدوكم ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ من أنهم كانوا عابدين لكم ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ للعذاب عنكم ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ فضلاً عن أن تنصروا أنفسكم ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ﴾ مَن دام على الظلم والكفر منكم في دنياه ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ في الآخرة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾(٢٠)

٢٠- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ لم يكونوا أكثر من بشر ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ بأن تقبلوا رسالات الرسل بحسب جدارتها، وتُحاسبوا عليها ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ على التكليف ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بمن يصبر ومَن لا يصبر.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾(٢١)

٢١- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ منكرو الساعة ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ برهاناً على صدق الوحي ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ فينزّل القرآن تنزيلاً ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بطلب الرؤية ﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ تجاوزوا الحدود في الظلم.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾(٢٢)

٢٢- ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ الملائكة لن تبشرّ المجرمين بأي خير ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي الكفار ﴿حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ من رحمة الله، إذ يوقن الكفار وقتئذٍ أنهم محجوبون عنها.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾(٢٣)

٢٣- ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ الأعمال التي اعتقدوها برّاً ظانّين أنها تقربهم إليه تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ لأن الكفر يحبط العمل الصالح.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾(٢٤)

٢٤- ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ فيها ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ في التمتع بوقت القيلولة.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلاً﴾(٢٥)

٢٥- ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ وهي ملتبسة بالغمام ﴿وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلاً﴾ عجيباً غير معهود.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَانِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾(٢٦)

٢٦- ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ السلطة القاهرة يوم القيامة ﴿الْحَقُّ لِلرَّحْمَانِ﴾ المبالغ في الرحمة بعباده، الشديد على الكافرين ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ لشدة أهواله.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾(٢٧)

٢٧- ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ ندماً ﴿يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ يا ليتني آمنت به واتخذت طريقاً للنجاة معه، وهو طريق الحق.

﴿يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً﴾(٢٨)

٢٨- ﴿يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا﴾ من شياطين الإنس ﴿خَلِيلاً﴾ صاحباً وداً، يتحلل فيّ.

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾(٢٩)

٢٩- ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ عن القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ بعد أن كنت مواظباً على تلاوته ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ مبالغاً في خذلانه.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾(٣٠)

٣٠- ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ﴾ كتاباً ﴿مَهْجُورًا﴾ هجره معظمهم، ومَن لم يهجره جعله كتاباً للتبرّك فقط ولم يقرأه، ومَن قرأه لم يتفكّر بمعانيه ولم يفهمه، ولم يفقه المغزى من هديه.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾(٣١)

٣١- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ينكر القرآن، والآخرة ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لِمَن أراد الهداية وحافظ على سلامة الفطرة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(٣٢)

٣٢- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الحمقى المصرّين على الكفر ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ وبذلك غفلوا عن الإعجاز الهائل في نزول القرآن منجّماً على مدة ٢٣ عاماً فترة البعثة النبوية ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ حيث ينزل منجّماً موافقاً لظروف البعثة النبوية ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ بما هو مناسب لكل الأزمنة والعصور، حسب ترتيبه الحالي، مغايراً لترتيب النزول.

﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾(٣٣)

٣٣- ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ وهم الكفار وقت التنزيل ﴿إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ ما يدحض الباطل ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ من المثل الذي ضربوه.

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾(٣٤)

٣٤- ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ لأنّ الوجه يمثّل الشخصية ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ مكانةً في الآخرة ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ عن الحق في دنياهم، إذ كانوا ينكرون الآخرة والقرآن.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾(٣٥)

٣٥- بعد أن ذكرت الآيات (١-٣٤) نزول القرآن الكريم فارقاً بين الحق والباطل، وجدل كفار قريش - والكفار في كل زمن - به وإنكاره، ومن ثم ما يترتب على ذلك من مصير بائس لهم في الآخرة، تنتقل الآيات (٣٥-٤٠) لبيان جانب من قصص الأمم البائدة التي رفضت الرسل والتكليف:

٣٥- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ يشد أزره، ويحمل عنه عبئاً من الرسالة.

﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾(٣٦)

٣٦- ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فرعون وآله ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ بنتيجة كفرهم ورفضهم الرسالة السماوية.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٣٧)

٣٧- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ نوحاً ومَن قبله من الرسل ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ عبرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾(٣٨)

٣٨- ﴿وَعَادًا﴾ في حضرموت واليمن ﴿وَثَمُودَ﴾ النبطيين وأصحاب الحجر ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ من سلالة ثمود ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ أقواماً كثيرين بينهم.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾(٣٩)

٣٩- ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ لعلهم يفقهون الرسالة، وتبياناً لها ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ دمّرنا تدميراً بنتيجة كسب أيديهم وغفلتهم.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾(٤٠)

٤٠- ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ كفار قريش وغيرهم ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ وهي قرى لوط الواقعة في طريقهم إلى بلاد الشام، ومطر السوء: الغبار البركاني ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ يرونها رأي العين في ذهابهم وإيابهم، وقد كستها بقايا الزلازل والبراكين ﴿بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ ينكرون الآخرة تهرباً من مسؤولياتهم.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾(٤١)

٤١- عودة الخطاب إلى جدل كفار قريش في الرسالة:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ رسولاً من ضعاف القوم، ولم يبعثه على رجلٍ من القريتين عظيم؟ من مكة والطائف، أو من فارس والروم؟؟ انظر [الزخرف ٤٣/٣١].

﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾(٤٢)

٤٢- ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ صبرنا على عبادتها ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ عن الحق.

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾(٤٣)

٤٣- ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ يعبد أهواءه ودنياه الفانية وأوهامه ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ لا تقدر أن تمنعه من ذلك، ولست وكيلاً عنه.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾(٤٤)

٤٤- ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ سماع فهم وتفكر ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ يستخدمون عقولهم على النحو السوي ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ﴾ البهائم لا هم لها سوى دنياها وغرائزها اليومية، ليس لها ملكة العقل والفكر ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ

سَبِيلاً﴾ من الأنعام، لأنهم متميزون عنها بنعمة العقل التي أهدروها، ونعمة الأسماء التي تعلموها، انظر [البقرة ٢/٣١].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾(٤٥)

٤٥- بيان لبعض معجزات الخلق التي عجزوا عن التفكر بها لأنهم كالأنعام:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ فجعله يتغير مع تغير النهار ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ لا يتحرك من مكانه طيلة الأوقات ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ بحيث يتجاوب مع اتجاه أشعة الشمس.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾(٤٦)

٤٦- ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ فيتحرك على مهل مع ميول أشعة الشمس.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾(٤٧)

٤٧- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ يستركم بظلامه، كما اللباس يستركم ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ انقطاعاً عن الحياة ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ينتشر فيه الناس لطلب الرزق.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾(٤٨)

٤٨- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ تبشر الناس بالمطر ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ قبل أن يتلوث بإفساد البشر.

﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾(٤٩)

٤٩- ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ أرضاً لم تكن تنبت قبل الهطول ﴿وَنُسْقِيَهُ﴾ أي المطر ﴿مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ من المخلوقات التي لولاه لبادت.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾(٥٠)

٥٠- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ أي المطر، أو القرآن الكريم بيّناه على عدة وجوه ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ الإعجاز في هطوله وإنباته الأرض الجدباء، وإحياء النبات من البذور من جهة، وليتفكّروا في الإعجاز القرآني من جهة أخرى ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ رغم هذا الإعجاز الهائل، لم يعتبروا، ولم يستفيدوا من عقولهم، بل فضّلوا الكفر - وهو تغطية الحقيقة - عن العقل.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾(٥١)

٥١- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ مجتمع ﴿نَذِيرًا﴾ لكل مجتمع، ولكن اكتفينا ببعثة خاتم الأنبياء والرسل محمد إلى الناس قاطبةً.

﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(٥٢)

٥٢- ﴿فَلا تُطِعْ الْكَافِرِينَ﴾ في دعواهم ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ بالقرآن الكريم ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ وهذا أكبر الجهاد، وهو جهاد الحجّة ومنطق القرآن، وليس جهاد القتل والقتال، الذي حصره القرآن الكريم بالقتال الدفاعي فقط.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾(٥٣)

٥٣- ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أرسلهما في مجاريهما ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ كمياه الأنهار تصب في البحار ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ مياه البحار ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ حاجزاً يفصل بينهما، فلا يتداخلان لمسافات طويلة في عرض البحر ﴿وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ يحجر بين الماء العذب والماء المالح.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾(٥٤)

٥٤- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء ٢١/٣٠]، ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ النسب ما لا يحل نكاحه، والصهر ما يحل نكاحه ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ بالغ القدرة في الخلق.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾(٥٥)

٥٥- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوهام والأوثان والزعامات الدنيوية المولهة ﴿مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ﴾ لشدة تفاهتهم، ومن ثم تفاهة العقول التي تعبدهم ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ مظاهراً أي معاوناً، يعاون الشيطان على الرحمن، أو هو يعاون المشركين من شياطين الإنس.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾(٥٦)

٥٦- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أيها الرسول ﴿إِلاَّ مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾(٥٧)

٥٧- ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على البلاغ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ شخصي ﴿إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ طريقاً سوياً، فذلك أجره.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾(٥٨)

٥٨- ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ سبحانه، ولا تلتفت إلى عنادهم ومعارضتهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ تنزيهه تعالى عن كل نقص ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ يحاسبهم بها، فالحساب ليس عليك أيها النبي.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾(٥٩)

٥٩- ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ستة حقب زمنية، لأن اليوم مطلق الزمن ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ كناية عن سيطرته وتدبيره، و﴿ثم﴾ ليست للتراخي الزمني بل للعطف ﴿الرَّحْمَانُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ هو الله تعالى، وسؤاله من خلال وحيه وكتبه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَانُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾(٦٠)

٦٠- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَانُ﴾ استكباراً وعتواً ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ ونترك آلهتنا ﴿وَزَادَهُمْ﴾ الوعظ والإرشاد ﴿نُفُورًا﴾ عن التوحيد وعبادة الله الأحد.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾(٦١)

٦١- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ من النجوم والكواكب ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ الشمس ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ يعكس ضوء الشمس.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾(٦٢)

٦٢- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يخلف أحدهما الآخر ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ الإعجاز في الخليقة، وتغير الأيام والفصول ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ المؤمن يشكر الله تعالى على نعمة اختلاف الليل والنهار.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾(٦٣)

٦٣- انتقال الخطاب إلى المؤمنين وصفاتهم:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ يمشون في سكينة ووقار، وعدم الخشونة والفظاظة في تعاملهم مع الناس إذ هم هيّنون في كل أمورهم ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ في تعاملهم مع الآخرين، لا يقابلون الجهل بالجهل.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾(٦٤)

٦٤- ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ في صلواتهم.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾(٦٥)

٦٥- ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ عقب صلواتهم، وعلى الدوام ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ شرًّا دائماً، وعذاباً لازماً للكفار.

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾(٦٦)

٦٦- ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ﴾ أحزنت ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ للكفار المقيمين المستقرين بها.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(٦٧)

٦٧- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا﴾ على الآخرين ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾ في إنفاقهم ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ يبخلوا ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الإسراف، وبين البخل في الإنفاق على الآخرين ﴿قَوَامًا﴾ وسطاً.

﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾(٦٨)

٦٨- ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ لا يشركون ﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ حرّم الله قتلها ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ بسبب من أسباب الحق ﴿وَلا يَزْنُونَ﴾ بما هو محرّم عليهم ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ مما ذُكر ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ عقاباً أليماً، والأثام جزاء الإثم.

﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾(٦٩)

٦٩- ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بسبب شركهم من جهة، وبسبب سلوكهم المترتب عليه من جهة ثانية ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ في العذاب.

﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(٧٠)

٧٠- ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ﴾ عن الشرك ﴿وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾ صدّق إيمانه بالعمل الصالح، لأنّ الإيمان بلا عمل لا ينفع صاحبه ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ في الدنيا ﴿حَسَنَاتٍ﴾ فيمحو سوابق معاصيهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ من صفاته الأزلية التي قام بها أمر الكون.

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾(٧١)

٧١- ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ عن المعاصي ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يقرن به إيمانه ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ﴾ يرجع إليه سبحانه ﴿مَتَابًا﴾ رجوعاً عظيم الشأن.

﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾(٧٢)

٧٢- ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ لا يقيمون الشهادة الكاذبة، ولا يحضرون مجالس الزور التي يقال فيها الزور على الآخرين ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ بأهل اللغو، وهو لغو الكلام الذي لا طائل منه، عن طريق الصدفة ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ تركوه مكرمين أنفسهم عن الاشتراك فيه، أو عن سماعه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾(٧٣)

٧٣- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ القرآنية منها بما فيها من المواعظ والأحكام، والآفاقية بما فيها من حوافز للتفكر في إعجاز الخلق ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ بل سمعوها سماع فهم، ووعوها وعي تعقّل.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(٧٤)

٧٤- ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بتوفيقهم للطاعة، وقرّة أعين: كناية عن السرور ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ بحيث يقتدون بنا في العلم والدين والعمل.

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾(٧٥)

٧٥- ﴿أُولَئِكَ﴾ المتصفون بما سبق من الصفات المذكورة ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ الدرجة العالية من منازل الجنة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عليه من التكاليف ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ وهي تحية الملائكة لهم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾(٧٦)

٧٦- ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في الدرجة العالية من الجنة ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ للفائزين بها.

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾(٧٧)

٧٧- ﴿قُلْ﴾ للكفار أيها النبي، أو أيها المؤمن ﴿مَا يَعْبَأُ﴾ لا يعتدّ ولا يكترث ﴿بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ إياه في الشدائد ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أيها الكفار، ولم تعملوا عمل المتقين المذكورين بالآيات (٦٣-٧٦)، ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ العذاب ﴿لِزَامًا﴾ ما لم تتوبوا، فالتوبة سوف تحدد مصيركم في الآخرة.

سورة الشعراء - ٢٦-

مكية

مقدمة

نزلت في أواسط الفترة المكية، وهي الأولى في مجموعة السور الثلاث: (الشعراء- النمل- القصص) التي تبدأ بالحروف المقطعات ﴿طسم﴾ سوى أن سورة النمل تبدأ بحرفي ﴿طس﴾.

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن بينت سورة الفرقان المتقدمة نزول القرآن الكريم فرقاناً للعالمين: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (٢٥/١)، وأن عامة المسلمين غفلوا عن دراسة القرآن والعمل به: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (٢٥/٣٠)، وأن الله تعالى صرّف القرآن للناس بحجج متعددة لعلهم يذكرون: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ (٢٥/٥٠)، وحثّهم على مجاهدة الكفار بالحجج القرآنية: ﴿فَلا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (٢٥/٥٢)، تبدأ سورة الشعراء بقوله تعالى: ﴿طسم • تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (٢٦/١-٢)، وتصف إعراض الكفار عن الوحي الإلهي: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ (٢٦/٥)، وأن القرآن - خلافاً لما يتقوّلون - ليس سوى تنزيل من رب العالمين: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٦/١٩٢)، وهنالك إشارات سابقة له في الكتب المتقدمة: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ (٢٦/١٩٦)، وممّا لا يُعقل ما يدّعون من تنزل الشياطين به: ﴿وَمَا

تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (٢٦/٢١٠-٢١٢)، كما أنّه بعيد كل البعد عن تقوّل الشعراء: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٦/٢٢٤).

محور السورة

ما على الرسول - ومن ثم باقي المؤمنين- إلا البلاغ، فلا على الرسول أن يهلك نفسه غمّاً إن لم يؤمن الجميع: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣)، وأن لو شاء تعالى لألجأ الناس إلجاءً إلى الإيمان، وعندئذٍ لا يكون لإيمانهم قيمة أخلاقية من حيث لم يكن نابعاً من حرية الخيار: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (٤).

وأن المكذّبين دأبوا على الإعراض عن الرسالات السماوية: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ (٥)، فقد كذّبوا موسى وإبراهيم ونوحاً وهوداً وصالحاً ولوطاً وشعيباً، وهي قصصهم السبع التي تتناولها هذه السورة من زوايا متعددة، وتبرز منها نقاطاً أساسية في ضعف المجتمعات وأسباب انهيارها.

ففي حالة تكذيب فرعون لموسى تبيّن السورة أن الطغاة لا يستطيعون فهم رغبة المضطهدين بالحرية، فإن ثار المضطهدون على الظلم نسبوا ثورتهم إلى كراهية الضعيف للقوي والحسد له: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ (٥٥)، بل إنهم يرَوْن استعباد الآخرين منّة من طرفهم: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٢٢)، وتصل بهم ثمالة السلطة إلى ادعاء الألوهية: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (٢٩)، وفي قصة إبراهيم تلحظ السورة فساد التقليد، وأن اتّباع ما كان عليه الآباء ليس برهاناً بحد ذاته على سلامة العقيدة: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٧٤)، وفي قصة نوح تبيّن السورة أن الحكم على إيمان الآخرين يجب أن يكون بحسب الظاهر، والله

وحده يتولّى السرائر: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ (١١٢-١١٣)، وفي قصة هود تأكيد بصورة غير مباشرة على تحريم الجرائم والفظائع التي لامبرر لها في العداوات والحروب، وتشير ضمنياً إلى أن خوض الحروب أصلاً يجب أن يكون مبنياً على اعتبارات أخلاقية: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (١٣٠)، وأن منكري الآخرة يتوهّمون أنّ أمور الكون تسير عشوائياً: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (١٣٧-١٣٨)، وفي قصة صالح مع ثمود تحذير المجرمين والمفسدين من الركون إلى الشعور الزائف بالأمان: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَا هُنَا آمِنِينَ﴾ (١٤٦)، وفي قصة لوط أن الإصرار على الشذوذ يؤول بأصحابه لأوخم العواقب: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (١٧٢-١٧٣)، وفي قصة شعيب ما يدل أن المجتمعات قد تدوم مع الكفر ولا تدوم مع الظلم والفساد: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (١٨١-١٨٣).

وتختم السورة بأن العرب كانوا الأحدر بنزول القرآن الكريم عليهم كونهم أمة أمّية لم يخالطها عصبية مسبقة لرسالات سماوية سابقة انحرفت عن مسارها: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٩٨-١٩٩) لأن إصرار الأعجمين على التمسك بدياناتهم المنحرفة وعلى تقليد أسلافهم سلكهم في أصناف المجرمين: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٠٠)، وأن فساد الأمم البالغة أورثها الهلاك: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٢٠٨-٢٠٩)، والمصير نفسه ينتظر الظالمين في كل عصر لا محالة: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٧).

ونلاحظ أن الآيتين: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تكررت في السورة ثماني مرات، الأولى منها تشير لبعض آيات الآفاق: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (٧)، وقد أشار موسى أيضاً لآيات الآفاق في حواره مع فرعون بالآيات (٢٣-٢٨)، والمرات السبع الباقية تشير للعبر من هلاك الأمم البائدة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسم﴾(١)

١- ﴿طسم﴾ الله أعلم بمراده، انظر آية [البقرة ٢/١].

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾(٢)

٢- ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ آيات هذه السورة، والكتاب المبين هو القرآن، ومع أنه في غاية البيان والإعجاز فهنالك مَن لم يؤمن منهم.

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٣)

٣- ﴿لَعَلَّكَ﴾ أيها الرسول ﴿بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ قاتلها من شدة الحزن ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بسبب إصرارهم على الكفر.

﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾(٤)

٤- ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ معجزة مادية، لأنهم عطّلوا عقولهم عن فهم القرآن ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ منقادين، فيؤمنون قسراً، وعندئذٍ يخلو إيمانهم من كل قيمة أخلاقية طوعيّة.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَانِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾(٥)

٥- ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ﴾ وحي، وهو القرآن ﴿مِنَ الرَّحْمَانِ مُحْدَثٍ﴾ جديد ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ لتشنج عقولهم على التقليد، وإعراضهم عن دراسة القرآن من حيث جدارته.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(٦)

٦- ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ ببعثة النبي ﷺ، ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بأنه الحق، وأن ما كانوا يصرّون عليه هو الباطل.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾(٧)

٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ لئن أعرضوا عن القرآن، الآية (٥)، فما بالهم يعرضون عن مثل هذا الإعجاز في الآيات الآفاقية؟.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٨)

٨- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإعجاز ﴿لآيَةً﴾ رسالة باهرة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مع ذلك.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(٩)

٩- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره، لا يعجزونه ﴿الرَّحِيمُ﴾ ولذلك يمهلهم ولا يؤاخذهم، ولا يأخذهم بغتةً بما اجترؤوا عليه من الكفر.

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(١٠)

١٠- ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ من أمثال هؤلاء الذين لا يؤمنون، وهذه هي القصة الأولى في هذه السورة من مجموعة سبع قصص، تبيّن جميعاً أن رفض رسالات الرسل ظاهرة تكررت في تاريخ الإنسان، مع أنّ وجود الخالق ماثل في مظاهر الخليقة بوضوح.

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ﴾(١١)

١١- ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ﴾ عواقب عملهم، في ادعاء فرعون للألوهية.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِي﴾(١٢)

١٢- ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِي﴾ حفاظاً على مراكزهم.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾(١٣)

١٣- ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ عن مخاطبتهم ﴿وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ بالرسالة ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى﴾ أخي ﴿هَارُونَ﴾ يكون معي نبياً آزرني به.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾(١٤)

١٤- ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ تبعة ذنب، والمراد به قتله القبطي، وما تلاه من هرب موسى إلى أرض مدين ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ به، وبذلك تنتهي رسالتي.

﴿قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾(١٥)

١٥- ﴿قَالَ كَلاَّ﴾ لن يقتلوك ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ أنت وأخوك ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ لما سوف يكون من قولهم.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١٦)

١٦- ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا﴾ كلٌّ منا ﴿رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ربك ورب آبائك الأولين.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(١٧)

١٧- ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أطلقهم من العبودية.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾(١٨)

١٨- ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ صغيراً ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ والمعنى أنك تقابل هذه المنّة بالجحود.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(١٩)

١٩- ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ بقتل القبطي ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بنعمتي عليك.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾(٢٠)

٢٠- ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا﴾ تلك الفعلة ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ بعد قتله القبطي شعر موسى فجأة أنه اقترف خطأً جسيماً.

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٢١)

٢١- ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ بعد مقتل القبطي توقعتُ مكروهاً منكم ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ حكمة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ نبياً من المرسلين إليك، وهكذا فالحكمة تسبق النبوة.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٢٢)

٢٢- ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ذلّلتهم واتخذتهم عبيداً.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٢٣)

٢٣- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مستفهماً ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي تزعم أنه أرسلك إلينا؟

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾(٢٤)

٢٤- ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ المعنى بدليل خلقه المستمر في كلّ ما هو موجود، وهذا هو بيت القصيد من الحوار، بل من تكرار القصة ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ إن كنتم مستعدّين للتفكّر في ذلك، ثم اليقين به.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾(٢٥)

٢٥- ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ من حاشيته ﴿أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾ لما يقول هذا المدّعي.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾(٢٦)

٢٦- ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ بما لا يقبل الشك.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾(٢٧)

٢٧- ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ المعنى؛ به من الجنون ما يتحرأ به أن يتحدى ألوهية فرعون، ويدّعي أنه رسول.

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٢٨)

٢٨- ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ هو وحده القادر على تدبير الكون، ومنه دوران الأرض حول الشمس والشروق والغروب ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إن كنتم من أهل العقل علمتم صحة ما أقول، والمعنى أن فرعون وملأه بمعزل عن دائرة العقل، وأنهم الأحق بتهمة الجنون التي رموه بها.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾(٢٩)

٢٩- ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ انتقل فرعون من الجدال والمحاجّة إلى التخويف بالسجن.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾(٣٠)

٣٠- ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ أتجعلني من المسجونين إن اتخذت إلهاً غيرك ولو جئتك بمعجزة مادية تشاهدها بعينك؟

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(٣١)

٣١- ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعوى الرسالة.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾(٣٢)

٣٢- ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ لِمغزى تحول العصا إلى ثعبان عند المصريين انظر شرح آية [الأعراف ١٠٧/٧].

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾(٣٣)

٣٣- ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ بياضاً نورانياً.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾(٣٤)

٣٤- ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ﴾ أشراف قومه وحاشيته ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ متمكّن في علم السحر، لأن الزمن كان زمن السحرة، حتى إن كهنة معبد أمون في العاصمة المصرية كانوا كلهم من السحرة.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾(٣٥)

٣٥- ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ لم يفهم فرعون من دعوة موسى سوى أنه بإنكاره ألوهية فرعون التي يدعي أنه يحكم مصر بموجبها، جاء لينافسه على حكم مصر، لما في دعوته من تحدٍّ للنظام الفرعوني الديني بأكمله ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بعد أن استشعر فرعون الخوف من موسى، وخاف أن تقتنع الحاشية بما قام به من معجزات، انتقل من مشورة حاشيته إلى طلب الأمر منهم.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾(٣٦)

٣٦- ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أخّر أمرهما ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ شرطتك أو أعوانك ﴿حَاشِرِينَ﴾ يحشرون لك السحرة.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾(٣٧)

٣٧- ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ مشتغل في السحر ﴿عَلِيمٍ﴾ فائق في علم السحر.

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾(٣٨)

٣٨- ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ وقت الضحى من يوم الزينة.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾(٣٩)

٣٩- ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ الاستفهام مجاز عن الحث والاستعجال، والمقصود أن يعرف الناس على وجه السرعة أن ما جاء به موسى لم يكن سوى سحر سوف يبطلونه.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾(٤٠)

٤٠- ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ وهو قول الناس الذين اجتمعوا لمشاهدة المغالبة بين الطرفين.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾(٤١)

٤١- ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ فلو كان سحرهم حقيقياً لما احتاجوا لطلب الأجر من فرعون.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤٢)

٤٢- ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ سنحزل لكم الأجر ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ من بلاط فرعون.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾(٤٣)

٤٣- ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ لكي يتوصّل إلى إبطاله.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾(٤٤)

٤٤- ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ تملّقاً له وما يزعم في نفسه من الألوهية ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ فوق موسى.

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾(٤٥)

٤٥- ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما يأفكون من الكذب، أي ما يصرفون الأمور عن حقيقتها، وهو أن السحرة جعلوا الناس يتخيلون الحبال والعصيّ أنها تتحرك وتسعى، أما عصا موسى فهي ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي تتناوله وتزيله بسرعة وتظهر بطلانه، فرأى الناس تلك الحبال والعصيّ على حقيقتها لا تسعى ولا تتحرك، وليس المعنى أن عصا موسى ابتلعتها، بل إنها أزالت أحابيل السحَرة بسرعة، وهو معنى اللقف، والخلاصة أن السحر العظيم الذي جاء به السحرة لم يكن سوى إفك، أي خيال وكذب

ليس من الحقيقة في شيء، وقد نصّت الآية أنّ عصا موسى قد لقفت الإفك وأبطلته، ولم تلقف الحبال والعصي، انظر شرح [الأعراف ١١٧/٧].

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾(٤٦)

٤٦- ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ لم يتمالكوا أنفسهم أن خرّوا ساجدين لما شاهدوه خارجاً عن حدود السحر، وعلموا أنه ليس بسحر.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٤٧)

٤٧- ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهو بالطبع ليس فرعون.

﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾(٤٨)

٤٨- ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ الذي بعثهما بالرسالة.

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٤٩)

٤٩- ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ﴾ لموسى ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ موسى ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ تواطأتم معه على هذه النتيجة ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة عملكم ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ بسبب مخالفتكم أمري ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على كثرتكم.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾(٥٠)

٥٠- ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ لا ضرر علينا ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ يحكم بيننا وبينك، والعاقبة للمتقين.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٥١)

٥١- ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ وما أكرهتنا عليه من الكفر والسحر ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من رعية فرعون.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾(٥٢)

٥٢- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ من بني إسرائيل ومَن آمن معهم من المصريين ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ سوف يتبعكم فرعون وجنوده بعد أن أصرّ على رفض بعثة موسى إليه.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾(٥٣)

٥٣- ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ﴾ في مدن مصر ﴿حَاشِرِينَ﴾ يحشدون الجند.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾(٥٤)

٥٤- ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ من بني إسرائيل ومَن تبعهم ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ طائفة خسيسة من الناس ﴿قَلِيلُونَ﴾ لا يعتدّ بهم.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾(٥٥)

٥٥- ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ يحسدوننا على ما نحن فيه من النّعم، فاعلون ما يغيظنا والخروج علينا ومخالفة أمرنا، وهكذا يبين لنا القرآن الكريم أن الأمم المهيمنة لا تستطيع فهم رغبة الأقليات التي تحت سيطرتها بالحرية، فقد رزح بنو إسرائيل تحت حكم الفراعنة قرابة ثلاثة قرون بعد زمن يوسف ورحيل الهكسوس من مصر، وقد برر فرعون رغبة بني إسرائيل بالخروج بأنهم يكرهون المصريين.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾(٥٦)

٥٦- ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ أي من مكائدهم.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾(٥٧)

٥٧- ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ أي فرعون وجنوده ﴿مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ كانت لهم على ضفاف النيل.

﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾(٥٨)

٥٨- ﴿وَكُنُوزٍ﴾ كانت لهم ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ في قصورهم.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٥٩)

٥٩- ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لأن بني إسرائيل حملوا بعض هذه الكنوز معهم إلى سيناء، كما ورثوا مثلها بعد أن استقر المقام لهم في فلسطين.

﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾(٦٠)

٦٠- ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ﴾ لحقوا بهم ﴿مُشْرِقِينَ﴾ وقت شروق الشمس.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾(٦١)

٦١- ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ صاروا على مرأى، كل واحد منهم من الآخر ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ سوف يدركنا فرعون وجنوده.

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(٦٢)

٦٢- ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ إلى طريق النجاة.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾(٦٣)

٦٣- ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ وهو البحر الأحمر عند خليج السويس، ما بين السويس والإسماعيلية جاوزوه إلى شبه جزيرة سيناء ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ وقيل: إنّ العبور كان عند البحيرات المرّة.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾(٦٤)

٦٤- ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ فرعون وجنوده، قرّبناهم من موسى وجمعه، حتى يلحقوا بهم في البحر.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾(٦٥)

٦٥- ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أخرجناهم من البحر بعد فلقه.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾(٦٦)

٦٦- ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ فرعون وجنوده بإطباق البحر عليهم بعد نجاة موسى وبني إسرائيل.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٦٧)

٦٧- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ معجزة عظيمة ورسالة للناس ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ من قوم فرعون.

﴿ومن الناس عامةً، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(٦٨)

٦٨- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾ يمهل الكفار ولا يؤاخذهم، ولا يأخذهم بغتةً بما اجترؤوا عليه من الكفر.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾(٦٩)

٦٩- ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهي القصة الثانية في هذه السورة.

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾(٧٠)

٧٠- ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ المعنى ما تعبدونه، هل يستحق العبادة منكم؟

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾(٧١)

٧١- ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ إظهاراً لما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار بعبادتها.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾(٧٢)

٧٢- ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ هل يسمعون دعاءكم إذا دعوتموهم؟

﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾(٧٣)

٧٣- ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ هل يقدرون على إيصال النفع أو الضرر إليكم؟

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٧٤)

٧٤- ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فدرجنا على تقليدهم، والآية من أقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسك بالدلائل.

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾(٧٥)

٧٥- ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من الأصنام؟

﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾(٧٦)

٧٦- ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ فالباطل لا يتغير قديماً كان أم حديثاً.

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾(٧٧)

٧٧- ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ أي هذه الأصنام ﴿إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فهو ربّي ومتولّي شؤوني.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾(٧٨)

٧٨- ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى الحق ولا يتركني أتخبط في أموري.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾(٧٩)

٧٩- ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ فيتكفل بأبسط أمور معاشي.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(٨٠)

٨٠- ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وليس ذلك إلى غيره البتة.

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾(٨١)

٨١- ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ للبعث والحساب.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٢)

٨٢- ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ فيتجاوز عن سيئاتي، ويثيبني على حسناتي، وذلك من باب الطمع ليس غير، ولمجرد عبوديتي لك واحتياجي إليك تغفر لي خطيئتي، لا أن تغفرها بشفاعة شافع، وقد نسبَ إلى نفسه الخطيئة مع أنّ الأنبياء منزهون عن الخطايا.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(٨٣)

٨٣- ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ حكمةً ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أعمل بالحكمة عمل الصالحين.

﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾(٨٤)

٨٤- ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي خلّد صيتي وذكري الجميل في الدنيا، ثم تحقق ذلك ببعثة النبي محمد ﷺ، حدّدَ ديانة إبراهيم، وقد اتفق أهل الأديان من يهود ونصارى على حبه واعتباره جدهم الأكبر.

﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾(٨٥)

٨٥- ﴿وَاجْعَلْنِي﴾ في الآخرة ﴿مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾.

﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾(٨٦)

٨٦- ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ امنن عليه بتوبة تستحق المغفرة، ووفقه للإيمان.

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾(٨٧)

٨٧- ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ بتعذيب أبي أو ببعثه في عداد الضالين بعدم توفيقه للإيمان، أو على ما فرطت من واجباتي ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ الناس كافةً.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾(٨٨)

٨٨- ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ﴾ وإن كان مصروفاً في الدنيا إلى وجوه البر والخير ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ وإن كانوا صالحين مستأهلين أحداً للشفاعة.

﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٨٩)

٨٩- ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قلبه سليم من مرض الكفر والنفاق، ومن فتنة المال والولد.

﴿وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٩٠)

٩٠- ﴿وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يوم تصبح قريبة جداً منهم.

﴿وَبُرِّزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾(٩١)

٩١- ﴿وَبُرِّزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أصبحت بارزة على مرأى واضح من الغاوين الضالين عن طريق الحق.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾(٩٢)

٩٢- ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ في دنياكم من دون الله؟ من آلهتكم الذين كنتم تزعمون أنهم شفعاؤكم في هذا الموقف؟

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾(٩٣)

٩٣- ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ﴾ بدفع ما تشاهدون من عذاب الجحيم؟ ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم؟ فهم أعجز من ذلك.

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾(٩٤)

٩٤- ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ ألقوا في الجحيم، مرة بعد أخرى، أي الآلهة وعبدتهم، لأن الكبكبة تكرار الكبّ ﴿هُمْ﴾ أي الآلهة من الزعماء مدّعي الألوهية ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ عبدتهم من الضالين وسائر المشركين.

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾(٩٥)

٩٥- ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ من شياطين الإنس، انظر قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام ٦/١١٢].

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾(٩٦)

٩٦- ﴿قَالُوا﴾ العَبَدة الغاوون ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ في جهنم ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ يخاصمون مَن معهم من شياطين الإنس والجن.

﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٩٧)

٩٧- ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ للمبالغة في إظهار حسرتهم وندمهم.

﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٩٨)

٩٨- ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سوّيناكم أيها الأصنام، وأيها الزعماء المؤلّهين أنفسَهم، في استحقاق العبادة مع رب العالمين الذي أنتم أدنى وأعجز مخلوقاته.

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾(٩٩)

٩٩- ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ﴾ [الأحزاب ٦٧/٣٣].

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٠٠)

١٠٠- ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ إذ لم تشفع لهم آلهتهم المزعومة شيئاً، فهم متلهّفون متأسّفون على فقد شفيع يشفع لهم.

﴿وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾(١٠١)

١٠١- ﴿وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ يشفع لنا.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١٠٢)

١٠٢- ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ نعود فيها إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المقبول إيمانهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١٠٣)

١٠٣- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذكرته الآيات (٨٨-١٠٢) من ندم الغاوين، وتخاصمهم مع عبدتهم من الآلهة المزعومة ﴿لَآيَةً﴾ رسالة وعبرة لِمَن يعتبر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بل أكثر الناس مكابرون معاندون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١٠٤)

١٠٤- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر الغالب على أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾ وسعت رحمته كل شيء، يمهل الغاوين للتوبة ولا يباغتهم بالعذاب، انظر [الأعراف ١٥٦/٧].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾(١٠٥)

١٠٥- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهذه القصة الثالثة، والمعنى أنهم كذّبوا الرسل من قبله، إذ لم يكن أوّل مبعوث فيهم.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾(١٠٦)

١٠٦- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أي نسيبهم، كما يقال يا أخا العرب ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله بعد أن بُعثتْ الرسل فيكم؟

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(١٠٧)

١٠٧- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله بُعثتُ لمصلحكم ﴿أَمِينٌ﴾ مشهور بالأمانة بينكم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(١٠٨)

١٠٨- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من التوحيد.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١٠٩)

١٠٩- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ على ما أنا متصدٍّ له من الدعاء والنصح لكم، فلا أطلب مالاً ولا أجراً منكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تفضّلاً منه تعالى.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(١١٠)

١١٠- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ التكرار، لأنه في الآية (١٠٧) أخبرهم أنه رسول أمين، يدعوهم إلى التوحيد، ما يوجب تقوى الله وطاعة نوح، وفي الآية (١٠٩) أخبرهم أنّ أجره على الله، ما يوجب أيضاً تقوى الله وطاعة نوح.

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾(١١١)

١١١- ﴿قَالُوا﴾ لسخافة عقولهم، وافتخاراً بأنفسهم واستكباراً ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ الأرذلون جمع الأرذل، وقد يكون استرذالهم المؤمنين بنوح لقلّة نصيبهم من الدنيا، إذ ليسوا مِن كبار القوم، والمعنى؛ اتّبعك الفقراء أصحاب الصناعات الدنيئة، مع أنّ الفقر ليس من الرذالة في شيء، وقد يكون: إنهم استرذلوا المؤمنين بنوح، عليه السلام، لما شاهدوه قبلاً من سوء عملهم، ويدل عليه جواب نوح بالآية التالية:

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١١٢)

١١٢- ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قبل إيمانهم؟ أي ما وظيفتي إلاّ النظر في الظاهر، فأنا لا أشقّ صدورهم، ولا أبحث عن دوافعهم، ولا أتجسّس عليهم، ولا أفتّش عن البواطن.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾(١١٣)

١١٣- ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ حسابهم على السوء الذي كانوا يعملون، حسب زعمكم ﴿إِلاَّ عَلَى رَبِّي﴾ العالم ببواطن الأمور، والحساب على البواطن من شؤونه عزّ وجلّ، وليس من شأني ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١١٤)

١١٤- ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأنا أحكم على الظاهر، والله تعالى يتولّى السرائر.

﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾(١١٥)

١١٥- ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ للناس، سواء كانوا من الأشرفين أو الأرذلين، فلا أسترضيكم بطرد ضعاف المؤمنين. وهنا نلاحظ قاعدة قرآنية هامة جداً، وهي أن ليس للإنسان أن يحكم على معتقد الآخرين منقّباً عن دوافعهم، بل يقبل الظاهر منهم، والله تعالى يتولّى سرائرهم.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾(١١٦)

١١٦- ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ﴾ عمّا أنت عليه من دعوتنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ توعّدوه بالقتل رجماً.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾(١١٧)

١١٧- ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ أصرّوا على تكذيبي طيلة هذه السنين، فلم يزدهم دعائي إلاّ فراراً.

﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١١٨)

١١٨- ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منّا من الفتاحة أي الحكم ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من سوء قصدهم وشؤم أعمالهم.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾(١١٩)

١١٩- ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ استجابةً لدعائه، ولعلمه تعالى أنه لا يؤمن من قوم نوح إلاّ مَن قد آمن ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ السفينة المملوءة بالمؤمنين، وما يحتاجون إليه من مؤن وحيوانات.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾(١٢٠)

١٢٠- ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ بعدَ إنجائهم ﴿الْبَاقِينَ﴾ من قومه الذين أصرّوا على الكفر، والآية دالّة أنّ الغرق اقتصر على الكفار الباقين، ولم يعمّ الخليقة

كلها كما تدّعي كتب العهد القديم، والقصة مذكورة بتفصيل في سورة [هود ١١/٢٥-٤٨].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١٢١)

١٢١- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ رسالة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ما أكثر الناس بمؤمنين مع ذلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف ١٢/١٠٣].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١٢٢)

١٢٢- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القاهر على أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأن أمهل العباد للتوبة ولم يعاجلهم بالأخذ.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾(١٢٣)

١٢٣- ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهذه القصة الرابعة، وفيها تكذيب قوم عاد للرسل، قَبْل بعثة هود، انظر شرح [الأعراف ٧/٦٥].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾(١٢٤)

١٢٤- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ما أنتم فيه من الشرك والفساد.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(١٢٥)

١٢٥- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله ﴿أَمِينٌ﴾ أمانتي معروفة لديكم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(١٢٦)

١٢٦- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من التوحيد.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١٢٧)

١٢٧- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ على ما أدعوكم إليه ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تفضّلاً منه تعالى على عباده.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾(١٢٨)

١٢٨- ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ الريع؛ المرتفع من الأرض بين هضبتين ﴿آيَةً﴾ علامات وثنية ومذابح تُقدم بها القرابين إلى الآلهة القَبَلية المزعومة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بادعاء أنها آلهة تستحق العبادة؟

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾(١٢٩)

١٢٩- ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ خزانات للمياه في تلك المرتفعات ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ تطمحون للخلود، وتتناسون الموت والمعاد.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾(١٣٠)

١٣٠- ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ في الحروب ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ بلا رحمة وبلا أي رادع أخلاقي، وفي هذه الآية دلالة قرآنية على أن الحروب ليس لها مبرر سوى أن تكون عادلة وذات ضرورة أخلاقية، وليست لمجرد البطش والانتقام.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(١٣١)

١٣١- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه من العدالة وعدم التجبّر.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾(١٣٢)

١٣٢- ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ من متاع الدنيا.

﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾(١٣٣)

١٣٣- ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ مما لا تشكرون نعمه عليكم.

﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾(١٣٤)

١٣٤- ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لقوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر ٨٩/٧-٨].

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١٣٥)

١٣٥- ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بجحودكم نعمه تعالى.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾(١٣٦)

١٣٦- ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ فنحن آذان صمّاء، لا نعود عمّا نحن عليه، قالوه استخفافاً بدعوته وعدم المبالاة به.

﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾(١٣٧)

١٣٧- ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ نحيا ونموت كما مات الأوّلون، فلا بعث ولا حساب، وأما هذا الذي نحن عليه من العبادات فهو من عادة الأوّلين من الآباء والأجداد نتّبعهم على ما كانوا عليه، ونقلّدهم، ويحتمل المعنى أيضاً: إنّ ما تقوله ليس سوى اختلاق أناس من الأوّلين درجوا على الكذب.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(١٣٨)

١٣٨- ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ فليس من بعث ولا حساب، سوى هذه الحياة الدنيا.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١٣٩)

١٣٩- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بتكذيبهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ الرسالة المشار إليها بالآيات (١٢٨-١٣٠) وهي السعي وراء الأمجاد الفارغة بنساء الأضرحة والطموح إلى الخلود والتجبّر والبطش بالآخرين ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ رغم بعثة هود إليهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١٤٠)

١٤٠- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر الغالب على أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾ لا يترك عباده بلا هداية، ولا يعذبهم قبل أن تبلغهم الرسالة.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾(١٤١)

١٤١- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ كذّبوا صالحاً كما كذّبوا المرسلين من قبله، وهذه القصة الخامسة، انظر شرح آية [الأعراف ٧/٧٣-٧٤].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾(١٤٢)

١٤٢- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ نبيّهم ﴿صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ ما أنتم فيه من الشرك والضلال؟

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(١٤٣)

١٤٣- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ قد عهدتم أمانتي فيكم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(١٤٤)

١٤٤- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما حثثتكم به من الدعوة.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١٤٥)

١٤٥- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ ما أنا عليه من دعوتكم إلى الله ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تفضّلاً منه تعالى.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾(١٤٦)

١٤٦- ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ تظنّون أن هذا الرخاء الذي تنعمون به، يدوم فيكم إلى الأبد؟ دون أن تؤدّوا حقّه؟ وتشكروا نِعَمه؟

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾(١٤٧) ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾(١٤٨)

١٤٧-١٤٨- ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ النخل الهضيم الداخل بعضه في بعض، وقيل المتدلّي لكثرة ثمره، وقيل هو الناضج من الرُطَب، وأُفرد ذِكر النخل لكونه عزيزاً عندهم بفضله على سائر الشجر.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾(١٤٩)

١٤٩- ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ الفاره الحاذق بالشيء، والمعنى؛ تظنّون أنّ بإمكانكم الاستمرار في نحت بيوتكم في الجبال بالحذاقة

ذاتها؟ فقد تتدهور حضارتكم؟ كما حدث بعد ذلك للنبطيين أصحاب الحجر، انظر شرح آية [الأعراف ٧/٧٤].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(١٥٠)

١٥٠- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ في دعوتي لكم.

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾(١٥١) ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾(١٥٢)

١٥١-١٥٢- ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ كونهم يرون الحياة الدنيا منتهى أملهم.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾(١٥٣)

١٥٣- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ غَلَبَ السحر على عقولكم، حتى تطرّق إليها الخلل.

﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(١٥٤)

١٥٤- ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ تدّعي ما تدّعيه من النبوّة ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ﴾ معجزة مادية، أو علامة ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهكذا استنفدوا مع نبيهم مرحلة النقاش، وتجاوزوها إلى التحدي.

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾(١٥٥)

١٥٥- ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ﴾ لا مالك لها سوى الله ﴿لَهَا شِرْبٌ﴾ وهو حقّها في الشرب من العين كغيرها من النوق ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ يوم يشرب قطيعكم من النوق، فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموها على شربها.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١٥٦)

١٥٦- ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ من عذاب الدنيا قبل الآخرة.

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾(١٥٧)

١٥٧- ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ بطريقة وحشية، انظر [الأعراف ٧/٧٧]، إمعاناً في إيذاء مخلوقات الله السائبة ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ على فعلتهم بعد فوات الأوان.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١٥٨)

١٥٨- ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ انظر آية [الأعراف ٧/٧٨]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ فيمن يمنع الخير عن مخلوقات الله السائبة ما فيه دلالة على سوء الجبلّة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ برسالة صالح.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١٥٩)

١٥٩- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر الغالب على أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾ سبقت رحمته غضبه، انظر [الأعراف ٧/١٥٦].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾(١٦٠)

١٦٠- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهذه القصة السادسة، انظر تفصيلها في سورة [هود ١١/٦٩-٨٣].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾(١٦١)

١٦١- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ نبيّهم ﴿لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ ما أنتم عليه من الشذوذ؟

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(١٦٢)

١٦٢- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ عهدتم أمانتي فيكم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(١٦٣)

١٦٣- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه من الصلاح وهجر الشذوذ.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١٦٤)

١٦٤- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ على ما أدعوكم إليه من الاستقامة ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تفضلاً منه تعالى.

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾(١٦٥)

١٦٥- ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ﴾ جمع ذَكَر، فكأنّ الأناث قد أعوزتكم؟ ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ من بني آدم؟

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾(١٦٦)

١٦٦- ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ للاستمتاع بهنّ على النحو الطبيعي الموافق للفطرة ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ متجاوزون الحدّ في المعاصي، ومتجاوزون حد الشهوة بما لم تعهده الحيوانات.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾(١٦٧)

١٦٧- ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ﴾ عن موعظتك لنا وتوبيخنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ المنفيين من مجتمعنا.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾(١٦٨)

١٦٨- ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ من المبغضين لعملكم غاية البغض، لأنّ قلى بمعنى أبغض.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾(١٦٩)

١٦٩- ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من الخبائث، ومن شؤم عملهم، ومن عذابه الدنيوي.

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾(١٧٠) ﴿إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾(١٧١)

١٧٠-١٧١- ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ العجوز هي امرأته كانت كافرة مائلة إلى قومها راضية بفعلهم، فكانت من الغابرين أي من الهالكين، انظر قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم ٥٣/٥٣].

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾(١٧٢) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾(١٧٣)

١٧٢-١٧٣- ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ أهلكناهم أشد الهلاك وأفظعه، والمطر هو الغبار البركاني، انظر [الأعراف ٧/٨٠-٨٤] و [هود ١١/٦٩-٨٣].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١٧٤)

١٧٤- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإهلاك الفظيع ﴿لآيَةً﴾ رسالة للمجتمعات التي تقبل بالشذوذ عمّا ينافي الفطرة السليمة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أكثر الكفار المصرّين على الشذوذ، كما هي الحال اليوم في بعض مجتمعات الغرب، وفي الكنيسة المسيحية التي جعلت الشذوذ شرعياً.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١٧٥)

١٧٥- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر الغالب على أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾ بإمهال عباده للتوبة.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾(١٧٦)

١٧٦- ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ الأيكة الغيضة التي تنبت ناعم الشجر، وأصحاب الأيكة أهل مَدين ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ وهذه القصة السابعة، انظر تفصيلها في سورة [الأعراف ٧/٨٥-٩٣] و [هود ١١/٨٤-٩٥].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾(١٧٧)

١٧٧- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ الغش في معاملاتكم التجارية مع الآخرين؟

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(١٧٨)

١٧٨- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ عهدتم أمانتي فيكم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(١٧٩)

١٧٩- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم لصلاح مجتمعكم.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١٨٠)

١٨٠- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ على ما أنا من دعوتي لكم بالصلاح ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تفضّلاً منه تعالى.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾(١٨١)

١٨١- ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أتمّوه ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ بانقاص الأوزان والحقوق، لأنهم اشتهروا بالغش في معاملاتهم التجارية مع الآخرين، وبعضهم مع بعض.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾(١٨٢)

١٨٢- ﴿وَزِنُوا﴾ الموزونات والحقوق ﴿بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ بالميزان السوي.

﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(١٨٣)

١٨٣- ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لا تنقصوهم شيئاً من حقوقهم ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بأكل حقوق الناس، والرشوة والفساد.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾(١٨٤)

١٨٤- ﴿وَاتَّقُوا﴾ الله ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ خلقكم، وخلقَ الأجيال الأوّلين من قبلكم.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾(١٨٥)

١٨٥- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ تطرّق السحر إليك، حتى اختلّ عقلك.

﴿وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(١٨٦)

١٨٦- ﴿وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ تريد أن تتفضل علينا وتتزعمنا ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في دعواك.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(١٨٧)

١٨٧- ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قطعاً ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك أنك نبي مرسل، وهذا غاية مراحل التحدي.

﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(١٨٨)

١٨٨- ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم به في وقته المقدّر، وليس ذلك إليّ.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١٨٩)

١٨٩- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ يوم الرماد البركاني ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بما أخذهم فيه من الزلزلة وانتشار الحمم البركانية، والرماد البركاني في الجو، انظر [الأعراف ٩١/٧].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١٩٠)

١٩٠- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ رسالة للمجتمعات التي ينتشر فيها الفساد والرشوة وبخس الحقوق، فينطبق عليها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود ١١٧/٧]، أي إن كان الصلاح سائداً بينهم وإن كانوا على الكفر، فالله تعالى يمهلهم لفرط مسامحته تعالى في حقوقه، وأما حقوق العباد فلا ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بل كانوا على الكفر.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١٩١)

١٩١- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر الغالب على أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾ يرحم عباده بما فيه مصلحتهم، ويمهلهم للتوبة.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١٩٢)

١٩٢- بعد انتهاء القصص السبع تعود السورة إلى ما بدأت به في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَانِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾(٥):

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن الكريم ﴿لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وحياً من الله عزّ وجلّ.

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾(١٩٣)

١٩٣- ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ جبريل عليه السلام.

﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾(١٩٤)

١٩٤- ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ أيها النبي ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ تنذر الناس بالبعث والحساب.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾(١٩٥)

١٩٥- ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ اقتضت رسالة القرآن أن تكون باللسان العربي المبين، لأنها نزلت على العرب أولاً، ولا يمنع ذلك أنها رسالة عالمية للناس كافةً.

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾(١٩٦)

١٩٦- ﴿وَإِنَّهُ﴾ القرآن الكريم ﴿لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ جاء ذكرُه، والنبوءة بنزوله في كتب الأولين، ومن ذلك سفر التثنية من العهد القديم (١٥/١٨) و (١٨/١٨).

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(١٩٧)

١٩٧- ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً﴾ الذين ينكرون نبوّة محمد ﷺ ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أن يعلموا أن القرآن وحي من الله تعالى، نزّله على نبيّه محمد ﷺ، ومن ثمّ دخل العديد منهم في الإسلام.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ﴾(١٩٨)

١٩٨- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ﴾ من مجتمعات الروم التي كانت تدين بالمسيحية.

﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾(١٩٩)

١٩٩- ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لشدة تعصبهم وتمسكهم بالتقليد، بالمقارنة مع ما كانت عليه جزيرة العرب من الانفتاح والحرية الفكرية.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾(٢٠٠)

٢٠٠- ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ أي التكذيب بالقرآن ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ المصرّين على الكفر والتقليد، وذلك بمحض اختيارهم ولسوء جبلّتهم، وليس بأن الله تعالى فرض عليهم التكذيب ابتداءً.

﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾(٢٠١)

٢٠١- ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ في الدنيا قبل الآخرة.

﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾(٢٠٢)

٢٠٢- ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأةً ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾(٢٠٣)

٢٠٣- ﴿فَيَقُولُوا﴾ تحسّراً على ما فات من الإيمان، وتمنياً للإمهال ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ الإنظار: الإمهال، والمعنى هل هنالك من مهلة لنا؟ نعود بها إلى الدنيا؟

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾(٢٠٤)

٢٠٤- ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ يطلبونه قبل الأوان؟

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾(٢٠٥)

٢٠٥- ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أيها المؤمن، وأيها القارئ القرآن؟ ﴿إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ في هذه الحياة الدنيا؟

﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾(٢٠٦)

٢٠٦- ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من عذاب الدنيا قبل الآخرة؟

﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾(٢٠٧)

٢٠٧- ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ أي شيء أو أي غناء أغنى عنهم متاعهم السابق في الدنيا؟

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ﴾(٢٠٨)

٢٠٨- ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من مجتمع من المجتمعات ﴿إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ﴾ من الرسل، أنذروا أهلها إلزاماً للحجة عليهم.

﴿ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾(٢٠٩)

٢٠٩- ﴿ذِكْرَى﴾ أي لتذكيرها ذكرى، للمجتمعات التي هلكت ﴿وَمَا كُنَّا﴾ لها ﴿ظَالِمِينَ﴾ فليس من شأننا أن يصدر الظلم عنّا - بمقتضى الحكمة - بأن نهلك أحداً قبل إنذاره، أو أن نعاقب من لم يظلِم، وهي إشارة إلى الأقوام السبعة التي هلكت.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾(٢١٠)

٢١٠- ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي القرآن الكريم ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ كما يزعمون، لأنهم نسبوا نزول القرآن إلى الكهانة والسحر لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾ [الطور٥٢/٢٩]، وفي ذلك عودة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩٢).

﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾(٢١١)

٢١١- ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ لا يصح ولا يستقيم لهم ذلك ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وما يقدرون على ذلك أصلاً.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾(٢١٢)

٢١٢- ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾ عن سماع الوحي ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾، لقوله تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن ٧٢/٨-٩].

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾(٢١٣)

٢١٣- ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أيها القارئ للقرآن ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ بشركك.

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(٢١٤)

٢١٤- ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ ذوي القرابة القريبة منك، أو هم الذين أكثر قرباً إليك من غيرهم.

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢١٥)

٢١٥- ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كن متواضعاً معهم.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢١٦)

٢١٦- ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ ضعاف الإيمان منهم ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بريء من عملكم، وبريء مما تعملون من المعاصي، أو الذي تعملونه من دعائكم مع الله إلهاً آخر.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾(٢١٧)

٢١٧- ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ﴾ القاهر الغالب على أمره، فيقهر من يعصيك منهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ وينصرك برحمته.

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾(٢١٨)

٢١٨- ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى الصلاة.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾(٢١٩)

٢١٩- ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ فيما بين المصلّين، وحين تلوّمهم، وحين تقوم لأداء الرسالة.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٢٢٠)

٢٢٠- ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاء مَن يدعوه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحواله.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾(٢٢١)

٢٢١- ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ المشار إليهم بالآية (٢١٠)، وما زعموا من تنزّلهم بالقرآن.

﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾(٢٢٢)

٢٢٢- ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ تنزّل على كثير الإفك وهو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء والبهتان ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم.

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾(٢٢٣)

٢٢٣- ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ الأفّاكون يلقون سمعهم إلى الشياطين، أي يصغون إليهم أشد الإصغاء ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ الكذب طاغٍ عليهم فيما يقولونه من الأقاويل.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾(٢٢٤) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾(٢٢٥) ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٢٦)

٢٢٤-٢٢٥-٢٢٦- ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ لأنهم زعموا أنّ القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته من جنس الشعر، والآية تقرر أن الغاوين فقط هم الذين

يتّبعون الشعراء الذين يهيمـون في كـل وادٍ مـن أوديـة القيـل والقـال، وفي كـل شعب مـن شـعاب الوهـم والخيـال، لأنهـم يقولـون مـا لا يفعلـون، ويسلكون مسالك الغي والضلال، وذلك سبب اتّباع الغـاوين لهـم، لا غـيرهم، أي إنهـم مشتركون معاً في الغيّ.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَـرُوا اللَّـهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْـدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾(٢٢٧)

٢٢٧- ﴿إِلاَّ الَّذِيـنَ آمَنُـوا﴾ من الشـعراء المؤمنـين الصـالحين ﴿وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ﴾ قرنوا إيمانهم بالعمل الصـالح ﴿وَذَكَـرُوا اللَّـهَ﴾ وحـده ﴿كَثِيـرًا﴾ يكثرون ذكـر الله عـزّ وجـلّ في أشعارهم، ويوحّدونـه ﴿وَانتَصَـرُوا﴾ لرسـالة الإسلام ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ من بعد ما اضطُهدوا في دينهـم ﴿وَسَـيَعْلَمُ الَّذِيـنَ ظَلَمُوا﴾ علم اليقين ﴿أَيَّ مُنقَلَـبٍ﴾ شـديد السـوء ﴿يَنقَلِبُـونَ﴾ إذا اسـتمرّوا في غيّهم.

سورة النمل - ٢٧ -

مكية

مقدمة

نزلت في أواسط الفترة المكية، وتشترك مع سور الطواسين الثلاث المتتالية: (الشعراء-النمل-القصص) بتركيزها على أصالة القرآن الكريم وعلى بعض قصص الأنبياء التي تظهر بجوانب وعبر جديدة في كل سورة منها.

ارتباط السورة بما قبلها

تشترك هذه السورة مع سورة الشعراء بقصص الأنبياء: موسى وصالح ولوط، فتبرزها من جوانب وعبر جديدة، وتضيف إليها قصة سليمان مع الطير والنمل.

وقد لاحظنا أنّ سورة الشعراء ابتدأت بالإشارة لإعراض المعرضين عن الرسالات السماوية: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ (٢٦/٥)، وانتهت بتأكيد نزول ختم الرسالات على قلب النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٢٦/١٩٢-١٩٤)، ثم تفتتح سورة النمل بتأكيد آيات القرآن كونه مبيناً للطريق القويم: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٢٧/١)، مشتمل على الحكمة والعلم: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (٢٧/٦)، ويصحح القصص المزيفة المذكورة في الكتب المقدسة اليهودية بالعهد القديم ويبين لبني إسرائيل أكثر ما يختلفون فيه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي

إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٧٦/٢٧)، وقوله: ﴿أكثر﴾ لأن أمور الغيب التي يختلفون بها لن تنكشف لهم إلا في الآخرة.

كما افتتحت سورة الشعراء المتقدمة بالإشارة لشدة حرص النبي ﷺ على إيمان الناس: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣/٢٦)، وفي سورة النمل أنه في حزن عليهم وضيق من إعراضهم: ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (٧٠/٢٧).

وفي سورة الشعراء زَعم الكفار أن أمور الكون تسير بالصدفة والعشوائية وأن ليس من حساب وعذاب: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (١٣٧/٢٦-١٣٨)، ثمّ تذكر سورة النمل بأن منكري الآخرة يتخبطون في الظلام فيخسرون أنفسهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ (٤/٢٧-٥).

محور السورة

تنبّه سورة النمل إلى قاعدة اجتماعية مهمة وهي أنّ منكري البعث والآخرة يركزون كلّ جهودهم واهتمامهم على المكاسب المادية الدنيوية، فلا يرون أي شيء سواها جديراً بالاهتمام، مما يفسر حالة التخبط والعمى الروحاني التي أوقعوا نفوسهم بها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٤)، وفي قصة موسى أن لا منقذ لأمثالهم سوى التوبة: ﴿إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١)، وكثير منهم يقرّون بالحقيقة في دخيلة نفوسهم ومع ذلك يجحدونها علناً بالنظر لسوء جبلّتهم ومكابرتهم وتهالكهم على الدنيا: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤).

وفي قصة سليمان مع الهدهد تذكير بأن العِلم قد يأتي أحياناً من أضعف خلق الله، مما هو عبرة وفتنة لمن يعتقد في نفسه كمال العلم والإحاطة: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (٢٢)، وفي قصة سليمان مع ملكة سبأ إنكار المسؤولية تجاه الخالق يوقع المرء في التفاهات: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ (٢٤)، وأن من شأن الطغاة عندما يستولون على الحكم قهراً أنهم يبسطون سلطتهم قسراً على الناس، ويفككون النسيج الاجتماعي، مما يؤدي إلى الفساد: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٣٤)، وأن الخلفية الدينية المنحرفة تجرف الكثيرين معها فتصدّهم عن الطريق القويم بسبب التقليد وإهمال العقل: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٤٣).

وفي قصة صالح مع قومه ثمود أنّ الدعوة إلى الصلاح والإصلاح تثير الخصومات لدى الأقوياء ذوي الخيلاء المعتدّين بنفوسهم، وحتى لدى الضعفاء المدمنين على الشهوات: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٥).

وفي قصة لوط أن الشذوذ عن القوانين الطبيعية في الخلق معصية بيّنة لله عزّ وجلّ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (٥٤).

وفي إشارة لقصصهم جميعاً أن الكفار يشركون بالله ليس فقط الأصنام والكواكب، بل أيضاً القيم الزائفة والعادات القبيحة المتوارثة التي أصبحت ديناً عندهم: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩).

وأن الإنسان، خلافاً لما يظنّ، ليس محور الكون وسيده، بل استخلفه الله في الأرض ومعتمد بالكلية عليه، منحه العقل والقدرة على التفكير المجرد: ﴿أَمَّنْ

يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَـهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢).

وهنا تعود السورة لموضوع الآية (٤) بأن علم الإنسان بالآخرة من أمور الغيب التي لا يستطيع إدراكها، حتى إنّ بعض الناس في شك منها، وبعضهم الآخر ينكرها لكونهم عَموا عن حتميتها المنطقية، إذ يتعامون عن مسؤوليتهم الأخلاقية وعن الخيار الأخلاقي الحر الذي يتمتعون به ويتهربون منه بالنظر لما يترتّب عليه من حساب: ﴿بَلْ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (٦٦)، بل إن استغراقهم في مادية الدنيا سوف يكون نذيراً بهلاكهم: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ (٨٢)، لكن حسابهم في الآخرة مترتب ليس فقط على تكذيبهم بآيات الآفاق والوحي، بل لعدم بذلهم المجهود الكافي لفهم الآيات والإحاطة بعلومها، ولإضاعتهم العمر فيما لا يجدي: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨٤)،

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾(١)

١- ﴿طس﴾ الله أعلم بمراده، انظر [البقرة ١/٢]، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ في هذه السورة، ﴿وَ﴾ هو ﴿كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ عن الحق.

﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢)

٢- ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ القرآن الكريم يفيد الذين لديهم استعداد للإيمان، فهو لهم هدى في الدنيا، وبشرى في الآخرة، وهم الموصوفون بالآية التالية:

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(٣)

٣- ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ استعداداً لآخرتهم ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ على يقين من البعث والحساب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾(٤)

٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ منتهى نظرهم وأملهم في الحياة الدنيا، على العكس من المؤمنين المشار إليهم آنفاً ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ فأصبحت حسنة في نظرهم ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتخبطون على غير هدى، متحيّرين مترددين، بالنظر لسوء حبلّتهم، وإصرارهم على الضلال، وتشنج عقولهم على التقليد، وعنادهم ورفضهم النظر والتفكر بالدلائل، وليس لأن الله تعالى فرض ذلك عليهم ابتداءً، انظر [البقرة ٢/٧].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾(٥)

٥- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ في الدنيا، ومن ذلك سعيهم وتهالكهم على مادة الدنيا بما يعمي بصيرتهم وبصائرهم، فتصبح منتهى أملهم وهمّهم ﴿وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ يخسرون أنفسهم بعد كل ما بذلوه في دنياهم، ولا خسارة أعظم من خسارة الأنفس.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾(٦)

٦- ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ أيها النبي ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ فيما خلق من خلقه ﴿عَلِيمٍ﴾ بمصالح عباده، فأيّ حكيم، وأي عليم هو! ويلاحظ ارتباط هذه الآية مع أول السورة.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾(٧)

٧- انتقال الخطاب من نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ، إلى نزول الوحي على موسى، وفيه إشعار باستمرارية الرسالات السماوية:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ﴾ وهو في طريق عودته من مَدين تائهاً في صحراء سيناء ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ عن بعد ﴿سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن طريقنا الذي نسلكه ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ شعلة نار مقبوسة، مأخوذة من أصلها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ لأجل أن تستدفئوا بها.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٨)

٨- ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي النار ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ نور الإلهام الإلهي ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الملائكة عليهم السلام ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تنزيه الله تعالى عن كل نقص وسوء.

﴿يَامُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٩)

٩- ﴿يَامُوسَى إِنَّهُ أَنَا﴾ المنادي المتجلّي نوره في النار ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يد موسى من المعجزة.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾(١٠)

١٠- ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ من الجنّ، لأن الجن عند العرب من الخفاء ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ انهزم ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يرجع ﴿يَامُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ تعليل للنهي عن الخوف.

﴿إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١١)

١١- ﴿إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ تائباً من ظلمه ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ في إشارة لكون موسى قتل القبطي، ثم تاب بعد ذلك.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١٢)

١٢- ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ جيب قميصك، وقيل تحت إبطك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ تشع نوراً روحانياً ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ إني مرسلك إلى فرعون وقومه في تسع آيات، أي علامات على بعثتك إليهم، انظر [الإسراء ١٠١/١٧] و [الأعراف ١٣٣/٧]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ينشرون الفساد.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(١٣)

١٣- ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا﴾ ظهرت لهم على يد موسى ﴿مُبْصِرَةً﴾ بينة واضحة، وهي أيضاً جديرة بأن يصبح العقلاء على بصيرة إذا نظروا فيها ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ نسبوها إلى السحر في تعامٍ عن حقيقتها.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(١٤)

١٤- ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ كذّبوها وأنكروها إنكاراً ظاهرياً ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أيقنت أنفسهم بالآيات يقيناً داخلياً ﴿ظُلْمًا﴾ وهو التناقض، في الوقت ذاته، بين الجحود الظاهري واليقين الداخلي ﴿وَعُلُوًّا﴾ ترفعاً واستكباراً عن الإيمان بها ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ما آل إليه فرعون وصحبه بنتيجة الجحود، وهذه الآية تبين العبرة من القصة في هذا الموضع.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١٥)

١٥- بعد أن بينت الآية (٦) نزول الوحي على النبي ﷺ، ثم بينت الآيات (٧-١٢) نزول الوحي على موسى ثم بعثته إلى فرعون، تبين الآية (١٥) طبيعة العلم الذي أوتيه داوود وسليمان، والآيات من (١٥-٤٤) قصة سليمان مع مخلوقات الله من الطير والنمل، ثم مع ملكة سبأ ومراحل اهتدائها إلى الإسلام:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ استنارة روحانية ﴿وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما آتانا من العلم.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾(١٦)

١٦- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ في ملكه ﴿وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ قال الرازي: قالت العرب: نطقت الحمامة، فالذي عُلِّم سليمانُ من منطق الطير هو ما يُفهم بعضُه من بعضٍ من مقاصده وأغراضه، وقد ورد هذا المعنى في كتب العهد القديم، انظر [سفر الملوك الأول ٤/٣٢-٣٣]، ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ ومن ذلك الريح تجري بها أساطيله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص ٣٦/٣٨]، وأيضاً: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ ١٢/٣٤]، وأيضاً محبته للحياد: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص ٣١/٣٨-٣٣]، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ لم يتوافر لأحدٍ من قبله.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾(١٧)

١٧- ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يتوزّعون بشكل منظم.

﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾(١٨)

١٨- ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ في الآية إشعار بفهم سليمان لمنطق النمل أيضاً، وتعاطفه مع أضعف خلق الله، ومحبته لها، وامتناعه عن إيذائها، واحترامه للطبيعة وباقي مخلوقات الله، وكل ذلك منبثق

من إيمانه العميق بالخالق الذي تبهر مخلوقاته العقول، وتلك هي العبرة من القصة.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾(١٩)

١٩- ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ من قول النملة، واحتراماً لها ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ حتى وصلتُ إلى ما أنا فيه من النِعَم والفهم والإيمان ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ شكراً لنِعَمِك علينا، وفيه إشارة لقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ ١٣/٣٤]، ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ تفضّلاً منك، وليس بعملي ﴿فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين ترضى عنهم.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾(٢٠)

٢٠- ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ من الذين حُشروا له، المشار إليهم بالآية (١٧)، ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ طير من الطيور﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ لسبب من الأسباب.

﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾(٢١)

٢١- ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ﴾ بما أنّ التعذيب والذبح لم يحصلا من قبل سليمان، فلنا أن نعتقد أنّ الخطاب عنهما مجرّد اصطلاح على سبيل القول والمجاز وليس الفعل والتنفيذ، ولنا أن نقارن ذلك مع موقفه من النمل واحتياطه بشأنها، قال الرازي: فهذا مما لا يجوز أن يُقال إلاّ فيمن هو مكلّف، أو فيمن قارب العقل فيصح أن يُؤدّب ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ حجة تبين سبب غيابه.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾(٢٢)

٢٢- ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ على مقربة منه ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ فيه تنبيه لسليمان أنّ أدنى خلق الله قد أحاطَ علماً بما لم يُحِط به، فيكون في ذلك تنبيه له لترك الإعجاب بالنفس ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ﴾ مملكة ﴿سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ لا يتطرق إليه الشك.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾(٢٣)

٢٣- ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ ملكة عليهم ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من متطلبات الملك ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾(٢٤)

٢٤- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ كما هي عادة الأقوام السامية في عبادة الشمس، المصريون القدماء، والبابليون، وغيرهم اعتادوا عبادة ما يمكن تجسيمه ومشاهدته، لقصور عقولهم عن الغيب ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ ما هم فيه من الضلال، فجعلها تبدو حسنة في نظرهم، انظر قوله تعالى عن الشيطان: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف ١٧/٧]، ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن عبادة الله ﴿فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ بل يتخبطون في ضلالهم.

﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾(٢٥)

٢٥- ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ غاب عن عقولهم وجوب عبادة الله الواحد الأحد، الذي بقدرته وحده تدور الشمس، فتختبئ عن ناظرهم ليلاً وتعود للظهور نهاراً، انظر [الأنعام ٧٨/٦] ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ في أنفسكم ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ منها.

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(٢٦)

٢٦- ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ وحده الجدير بالسجود والعبادة ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ المدبّر لشؤون خلقه.

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(٢٧)

٢٧- ﴿قَالَ﴾ سليمان للهدهد ﴿سَنَنظُرُ﴾ بالتفكر والتأمل ﴿أَصَدَقْتَ﴾ في دعواك عن مملكة سبأ؟ ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ما يدل إن سليمان كان جاهلاً بكل هذه التفاصيل عن مملكة سبأ، أو وجودها أصلاً؟

﴿اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾(٢٨)

٢٨- ﴿اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ﴾ صار من واجب سليمان دعوة سبأ إلى الإسلام، فبعث كتابه إليهم مع الهدهد الذي كان أول واسطة اتصال بينهما ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ دعهم يتأملوا ويفكّروا بالكتاب، فالموضوع بحاجة للتأمل والتفكير، لما فيه من الدعوة لهجر الشرك، وعبادة الله وحده ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ بعد تأملهم وتفكيرهم بفحوى الكتاب؟

﴿قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾(٢٩)

٢٩- ﴿قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ﴾ الحاشية ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ مضمونه يدل على ما فيه من الكرم وحسن الدعوة.

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ﴾(٣٠)

٣٠- ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ﴾ ابتدأ الكتاب بقوله ﴿بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(٣١)

٣١- ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ نهي عن الاستعلاء والانقياد للهوى والتكبر ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ منقادين، مذعنين، مسلمين أموركم لله تعالى، وليس للشمس التي تعبدون.

﴿قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾(٣٢)

٣٢- ﴿قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ الحاشية ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ بنتيجة تفكركم وتأملكم بخطاب سليمان ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ لحسامة هذا الموضوع ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ تدلوا بشهادتكم معي.

﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾(٣٣)

٣٣- ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ لم يفهم الملأ من خطاب سليمان سوى أنه تهديد لملكهم ودولتهم ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ في مقاومة سليمان أو الإذعان إلى مطلبه ﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أعادوا الأمر إليها.

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٣٤)

٣٤- ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ مجتمعاً من المجتمعات، إذا دخلوه عنوةً، وليس ذلك مقتصراً على الملوك، بل على كل قوة غاشمة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ فككوا عراها الاجتماعية ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ من الحكام وكبار القوم ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ بدخولهم القرية، وهكذا استبعدت ملكة سبأ أي احتمال لاستخدام القوة ضد سليمان، لما سوف يسببه ذلك من تفكيك النظام الاجتماعي، والمعاناة، والتدهور الحضاري.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾(٣٥)

٣٥- ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ على سبيل استكشاف النوايا ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ أنتظر ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ ما يكون استجابة سليمان؟ وبذلك تُفهم عقليته أيضاً.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾(٣٦)

٣٦- ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ الهدهدُ بالهدية ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ﴾ فلست بحاجة إلى مادة الدنيا ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ﴾ من النبوة والاستنارة الروحانية ﴿خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ من متاع الدنيا ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ تفرحون بمتاع الدنيا، وغابت عنكم عاقبة الآخرة.

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(٣٧)

٣٧- ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أيها الهدهد وأخبرهم: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ ليس بإمكانهم مقاومتها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً﴾ من بلادهم ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ بوقوعهم في الأسر والاستعباد، وبسبب كفرهم وعبادتهم الشمس، ورفضهم عبادة الله وحده.

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(٣٨)

٣٨- ﴿قَالَ﴾ سليمان ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ﴾ الحاشية ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ المغزى أنّ ملكة سبأ وملأها، بعد المفاوضات، قرروا الدخول في الإسلام، وأن سليمان قرر إحضار عرشها استعداداً لاستقبالها.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾(٣٩)

٣٩- ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ إظهاراً لمقدرة عفاريت الجن ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ لا شك في مقدرتي وأمانتي.

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(٤٠)

٤٠- ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهو سليمان نفسه، قال للعفريت: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ في لمح البصر ﴿فَلَمَّا رَآهُ

مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ العرش ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ﴾ نعمه عليّ ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بمحمودها، والبلاء هو الفتنة والاختبار، والمغزى؛ هل أنسب هذه النعم إلى استحقاقي ومقدرتي؟ أم هي إنعام منه تعالى؟ ﴿وَمَنْ شَكَرَ﴾ الله ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأنه هو وحده المستفيد من الشكر ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ الله تعالى غنيّ عن شكر عباده.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾(٤١)

٤١- ﴿قَالَ﴾ سليمان ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ اجعلوه بحيث لا تعرفه ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي﴾ الهداية الروحانية إلى الاسلام ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ تبقى متمسكة بمظاهر الدنيا.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾(٤٢)

٤٢- ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ وصلت ملكة سبأ إلى سليمان ﴿قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ الذي كان في سبأ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ لم تجزم بشأنه، كأنها استشعرت اختبارها، واختيارها بين الهداية الروحانية، والهداية المادية إلى عرشها السابق، وأدركت الفرق بين الحقيقة والظاهر ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ في الاسلام والتوحيد ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وهو قول سليمان.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾(٤٣)

٤٣- ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ لأنّ البيئة التي نشأت بها كانت على الكفر، فسارت هي على ما نشأت عليه من تقليد قومها، وكان من الصعوبة لها التنصل من ديانتهم، وهو ما يواجهه الكثيرون اليوم من صعوبة في ترك ديانة الآباء والأجداد، الذين على الكفر، لما يحتاجه ذلك من شجاعة أدبية كبيرة.

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٤٤)

٤٤- ﴿قِيلَ لَهَا﴾ سليمان قال لها ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ القصر، أو البركة في هذا الموضع ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ للصرح، أي البركة ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ ظنته ماءً كثيراً ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ لئلاّ تبتل أذيالها كما هي عادة من يريد الخوض في الماء ﴿قَالَ﴾ سليمان ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ﴾ أملس ﴿مِنْ قَوَارِيرَ﴾ زجاج، وليس ماءً، تعبيراً عن الفرق بين الحقيقة والظاهر، أو بين عالم الروح ومادة الدنيا ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بما كنت عليه من الكفر ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دخلت الإسلام، وبذلك انتهت رحلة بلقيس الروحانية باهتدائها إلى الإسلام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾(٤٥)

٤٥- بعد قصة موسى وبعثته إلى فرعون، ثم قصة سليمان مع ملكة سبأ، تسرد السورة هنا جانباً من قصة صالح مع قومه ثمود، انظر أيضاً [الأعراف ٧/٧٣-٧٩]:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ نبيهم ﴿صَالِحًا﴾ قائلاً لهم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده، بلا شرك ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أي ثمود ﴿فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ آمنَ فريق، وكفرَ فريق.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٤٦)

٤٦- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ لِمَن كفر منهم ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ بالعقوبة التي تسوءكم ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ التوبة تؤخرونها ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ من شرككم وجهلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقبول توبتكم.

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾(٤٧)

٤٧- ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ أي تطيّرنا ومعناها تشاءمنا، لأن العرب كانت إذا أرادت السفر تمرّ بطائر فتزجره فإن طار يمنة تفاءلت، وإن طار يسرة تشاءمت، ومن ثمّ نسبوا الخير والشر إلى الطائر، ومنه قولهم: ميمون وأيمن. ﴿وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ تطيّرنا أيضاً بمن آمن معك من الناس ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ من قدر الله تعالى وقسمته، فهو سببكم الذي ينالكم منه ما ينالكم من الخير والشر، انظر [النساء ٤/٧٨]، ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ معرضون للفتنة والاختبار، بدعوتي لكم، هل تستجيبون أم لا؟.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾(٤٨)

٤٨- ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ في مدينة الحِجْر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ تسعة عصابات، وقالوا: إن الرهط دون العشرة أفراد ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ إفساداً بحتاً ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ليس الإصلاح من شأنهم.

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾(٤٩)

٤٩- ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أقسموا بالله، والمغزى أنهم مشركون معاندون متكبّرون مع إيمانهم بالله ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ نباغت صالحاً ليلاً وهو نائم غافل فنقتله وأهله ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ وليّ أمره ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ ومن باب أولى لم نشهد مقتله هو ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في زعمنا.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(٥٠)

٥٠- ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ مكر السوء ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ مكر الخير ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر ٣٥/٤٣].

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥١)

٥١- ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ مكر السوء ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ تسعة الرهط ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي الكفار منهم، بدليل الآية (٥٣).

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٥٢)

٥٢- ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ خالية ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ نتيجة ظلمهم أنفسهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ رسالة وعبرة عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ متصفون بالعلم.

﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(٥٣)

٥٣- ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ لأنهم كانوا فريقين يختصمون، فنجا المؤمنون، وهلك الباقون.

٥٤- وهذه القصة الرابعة بعد قصص موسى وفرعون، وسليمان وسبأ، وصالح وثمود، والمغزى أن الرسالة الإلهية واحدة للناس كافة:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾(٥٤)

٥٤- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ الفعلة المتناهية في القبح؟ بإتيان الذكور ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ما هو حلّ لكم من النساء؟

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾(٥٥)

٥٥- ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ متخاوزين النساء اللاتي هنّ محل الشهوة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعملون عمل الجاهلين، بمعنى السفاهة والمجون.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾(٥٦)

٥٦- ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ قوم لوط ﴿إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ من مجتمعكم، أو من قرية سدوم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قالوها استهزاءً بهم.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾(٥٧)

٥٧- ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ من قومه، ومن الدمار الذي لحق بهم ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ﴾ امرأة لوط كانت شاذة تميل إلى قومها ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ كان قدرها الهلاك مع مَن هلك.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾(٥٨)

٥٨- ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ المقصود به الغبار البركاني الذي رافق الزلازل والحمم البركانية.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٥٩)

٥٩- ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أن تحققت العدالة على أكمل وجه في قصص الرسل الأربعة الذين مضى ذكرهم ﴿وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ الذين سبق ذكرهم من الرسل ﴿آللَّهُ خَيْرٌ﴾ الواحد الأحد، الخالق، القاهر الغالب على أمره ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ لا يقدرون على شيء من إيصال النفع، أو إبعاد الضرر، والآيات من (٦٠) حتى آخر السورة تلفت النظر للآيات الآفاقية وإعراض الكفار عنها، وأنّ القرآن مهيمن على كتب اليهود والنصارى فيبين الصحيح فيها من الزيف، وأن الانهماك في مادة الدنيا ينعكس سلباً على أصحابه:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾(٦٠)

٦٠- ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ خلقاً باهراً ﴿وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ يستحيل عليكم، ومع ذلك لا تقدرون الله حقّ قدره، انظر [الزمر ٣٩/٦٧]، ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ من الآلهة المزعومة ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ يجعلون آلهتهم المزعومة عدلاً لله تعالى.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(٦١)

٦١- ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا﴾ تستقرّون عليها ﴿وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ برزخاً فاصلاً بين المياه العذبة والمالحة في مساقط الأنهار على البحار ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ في الوجود؟ أو في إبداع هذه البدائع؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ علماً يُعتدُّ به، فلا يفهمون بطلان شركهم مع كمال ظهوره.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾(٦٢)

٦٢- ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ الذي أحرجته الشدائد ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ فألجأته الشدائد إلى دعاء الله وحده، ولا يقدر الشركاء المزعومون على شيء ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ يرفع عن الداعي ما يعتريه من الأمر الذي يسوؤه ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ جعلها تحت تصرفكم تستفيدون من مواردها ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ تشركون به؟ ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما أنتم عليه من الضلال.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٦٣)

٦٣- ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يرشدكم إلى مقاصدكم، تستخدمون النجوم والأفلاك ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ من مقدّمات المطر ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ تشركون به؟ ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فهو فوق ما يشركون، تعالى الله عنهم علوّاً كبيراً.

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٦٤)

٦٤- ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ ابتداءً ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ بأسباب سماوية، وبسنن أوجدها في الخلق بما

تقتضيه الحكمة، أن يُرزق المؤمن والكافر على السواء ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ تشركون مع كلّ هذه الحجج؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم أن الشركاء المزعومين يقدرون على شيء من ذلك؟

﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾(٦٥)

٦٥- ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ وحده المختص بعلم الغيب، والعباد لا يعلمون سوى القليل من عالم الشهادة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ المخلوقات ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ متى يُنشرون من قبورهم؟ مع كونه لا بد لهم منه.

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾(٦٦)

٦٦- ﴿بَلِ ادَّارَكَ﴾ تدارك ﴿عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ قَصَرَ علمهم عن حقيقتها ولم يدركوها، إذ هي خارج نطاق تصوّرهم، لكونها في علم الغيب ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ ليس فقط أنّ علمهم ادّارك بها، بل هم على ما هو أفحش من ذلك بشكّهم بحقيقتها ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ ليس علمهم ادّارك بها فحسب، وشكّوا بحقيقتها، بل هم على ما هو أفحش من ذلك بأنهم عمي البصيرة عنها، وبأنّ القيامة كائنة لا محالة، كما سوف يرد بالآية التالية:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾(٦٧)

٦٧- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا على الكفر ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ من قبورنا؟ وذلك لقصور عقولهم، أو بسبب عنادهم ومكابرتهم، أو لإصرار عقلهم الباطن على التهرب من مسؤولياتهم الأخلاقية التي يترتب عليها حساب الآخرة.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(٦٨)

٦٨- ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ بما أخبرت به رسلهم ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ زعموه.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾(٦٩)

٦٩- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أيها المكذبون ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ من أمثالكم.

﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾(٧٠)

٧٠- ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أيها النبي، وأيها المسلم، وأيها الداعية ﴿وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ في صدرك ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من المكر السيّئ.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٧١)

٧١- ﴿وَيَقُولُونَ﴾ منكرو الآخرة ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ بالقيامة ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم؟

﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾(٧٢)

٧٢- ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ اقترب منكم، ولحق بكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي بوفاتكم التي هي أقرب بعيد، فماذا يهمّ بعدها من سؤالكم؟ كما أنّ سؤالكم ينمّ عن جعلكم دنياكم منتهى أملكم بما تختارون فيها لأنفسكم من مقاييس الحق والباطل بما يناسب أهواءكم، فهذا هو سبب انهيار المجتمعات والحضارات.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾(٧٣)

٧٣- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بإمهالهم وعدم أخذهم بغتة بأعمالهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ ما هم فيه من النِعم والفضل.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(٧٤)

٧٤- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ من الجحود والاستكبار ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الأقوال والأفعال المترتبة عليها.

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٧٥)

٧٥- ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ ثابتة الخفاء، كائنة ما كانت، أي من عموم الغائبة ما لا سبيل لكم إلى علمه ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الله وحده يعلمه، كونه في علم الله المسبق القديم.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(٧٦)

٧٦- الآيات من (٧٦) إلى (٨٢) في بني إسرائيل خاصةً: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ من اليهود والنصارى بالنظر إلى أنهما معاً يعدّان العهد القديم جزءاً من كتابهم المقدس ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيصحح عقائدهم وما ورد في كتبهم، في وضعها الحالي الفاسد، عن داوود وسليمان وغيرهم من الأنبياء، وقوله تعالى ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ معناه أنّ الباقي لن يعلموه إلاّ في الآخرة، لأنه من ضمن الغيب.

﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٧٧)

٧٧- ﴿وَإِنَّهُ﴾ القرآن الكريم ﴿لَهُدًى﴾ يبين طريق الهداية ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِمَن يختار الإيمان به.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾(٧٨)

٧٨- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ بين بني إسرائيل من اليهود والنصارى المشار إليهم بالآية (٧٦)، وبين المؤمنين المشار إليهم بالآية (٧٧)، ﴿بِحُكْمِهِ﴾ بحكمته جلّ شأنه، ومن ذلك نكوص بني إسرائيل عن الإسلام، وعن القرآن، واعتدادهم بكتبهم المحرفة الفاسدة، من عهدين قديم وجديد ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ لا يردُّ حكمه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بجميع الأشياء التي من جملتها قضاؤه بهم.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾(٧٩)

٧٩- ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أيها النبي، وأيها المسلم، وأيها الداعية، دعهم وشأنهم وما يختارون لأنفسهم، ولو شاء ربّك لجعل الناس أمّةً واحدةً ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ فلا تبالِ بغيرك إن أصرّ على الضلال، وما عليك سوى البلاغ، أما الهداية فهي على الله.

﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾(٨٠)

٨٠- ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ الآية تشبّه بني إسرائيل بالموتى لأنهم موتى القلوب، أو موتى العقول ﴿وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ يستحيل أن يسمعوا دعوتك إذا أصرّوا على ما هم فيه من التشنج والتقليد ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾وأداروا ظهورهم لك، فالله تعالى يهدي من يشاء الهداية، انظر [البقرة ٦/٢].

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾(٨١)

٨١- ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ﴾ عُمي البصيرة من بني إسرائيل وغيرهم ﴿عَنْ ضَلالَتِهِمْ﴾ لظنّهم أنهم على الحق ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ مَن لديه استعداد للإيمان، فيسمع سماعاً يجديه نفعاً ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون مذعنون مسلمون وجوههم لله تعالى.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾(٨٢)

٨٢- ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على المصرّين على الكفر، المذكورين آنفاً، من بني إسرائيل خاصةً وغيرهم من الناس عامةً، تصبح الحقيقة واضحة لهم تمام الوضوح، خلافاً لكل توقعاتهم ولكن بعد فوات الأوان، إذ تقع الساعة، ويفوت أوان التوبة، وينفذ القضاء ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ دابّة الأرض كناية عن انهماكهم في دنيا المادة التي أفنوا أعمارهم في الجري وراءها، فهي تكلّمهم بمادية الحياة الدنيا التي يدفعون ثمنها في آخرتهم، بعد أن

لم يعدّوا لها عدّتها ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ لم يكن لديهم يقين بالآخرة ولا بالقرآن، فهنالك طائفة من بني إسرائيل تدعى (السدوقيين) تنكر الآخرة.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾(٨٣)

٨٣- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ في كل أمة جماعات كثيرة مكذّبة بالآيات ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يتفرقون ويتوزّعون، كلٌّ بحسب حسامة آثامهم وكفرهم وحرائمهم.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٨٤)

٨٤- ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا﴾ المكذّبون بالآيات المشار إليهم آنفاً ﴿قَالَ﴾ لهم تعالى موبّخاً ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي﴾ الناطقة بلقاء يومكم هذا؟ ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ غير ناظرين فيها؟ نظراً يؤدي بالعلم بكنهها وأنها خليقة بالتصديق حتماً؟ ﴿أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في دنياكم؟ ما دمتم لم تشتغلوا بهذا العمل المهم من دراسة القرآن؟ فبأي عبث أفنيتم أعماركم؟.

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ﴾(٨٥)

٨٥- ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ فات أوان توبتهم، ووقع قضاء الله فيهم ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أنفسهم ﴿فَهُمْ لا يَنطِقُونَ﴾ بأعذار واهية.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٨٦)

٨٦- هنا تعود الآيات (٨٦-٨٨) للتذكير ببعض معجزات الكون: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ بعد انشغالهم نهاراً في السعي وراء أرزاقهم ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لجلب المنافع الدنيوية إليهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ باهرات

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لديهم قابلية للإيمان، أما من انغلقت بصيرته من المشار إليهم بالآيات (٨٠-٨١) فلا سبيل للوصول إليهم.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾(٨٧)

٨٧- ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يوم القيامة ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ وهو ما يعتري الجميع عند البعث والنشور ﴿إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ ألا يفزع ﴿وَكُلٌّ﴾ كل واحد منهم ﴿أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ أذلاّء.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(٨٨)

٨٨- ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ كتلة جامدة لا تتحرك ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ لأن الدنيا حالة عابرة، في حين أنّ الدوام للآخرة، انظر [إبراهيم ١٤/٤٨]، وهنالك معنى علمي أيضاً لمرور الجبال مرّ السحاب، وهو أنّ المادة مكونة في أكثرها من الفراغ، ولذا فهي تمر مرّ السحاب، بدليل تتمة الآية: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مَن صنعَ كلّ شيء من الذرات المكوّنة من نواة وإلكترونات تدور حول النواة في الفراغ، فجَعَلها تمرّ مرّ السحاب، ويُحتمل أيضاً أنها تمر مرّ السحاب مع دوران الكرة الأرضية ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ مَن كان صنعُه بهذا الإتقان، فهو جدير أن يكون خبيراً بأفعال العباد، أما حقيقة الجبال في الآخرة فتدلّ عليه الآيات: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ [طه ٢٠/١٠٥-١٠٧].

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾(٨٩)

٨٩- ﴿مَنْ جَاءَ﴾ يوم الحساب ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ بالأعمال الحسنة وهو مؤمنٌ ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ لأن للذين أحسنوا الحسنى وزيادة فوق حسناتهم، انظر شرح [يونس ١٠/٢٦]، ﴿وَهُمْ﴾ المحسنون ﴿مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ يوم القيامة.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٩٠)

٩٠- ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ جزاءً وفاقاً ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لا غير، لأن جزاء السيئة بمثلها، انظر يونس [٢٧/١٠]، في حين يكون جزاء الحسنة المشار إليها في الآية المتقدمة أضعافاً مضاعفة.

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٩١)

٩١- ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ وهي مكة المكرمة ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ جعلها تعالى حرماً آمناً، انظر [قريش ٤/١٠٦]، ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ في الخلق، خلقاً وملكاً وتصرفاً ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من الذين أسلموا وجوههم لله تعالى.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾(٩٢)

٩٢- ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ أنْ أُواظب على تلاوته، ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ بالقرآن ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ منفعة الهداية تعود عليه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عن القرآن وهديه ﴿فَقُلْ﴾ له ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ فليس عليّ الإكراه والقَسْر.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٩٣)

٩٣- ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعماله، إذ أنعم على عباده بنعمة الوحي بعد نعمة العقل ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ المعجزة في الآفاق وفي أنفسكم، انظر [فصلت ٥٣/٤١]، ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ على وجه اليقين ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيحازي كلّ إنسان بعمله.

سورة القَصَص - ٢٨-

مكية

مقدمة

نزلت في أواخر الفترة المكية، واشتق اسمها من ورود كلمة (القَصَص) بالآية (٢٥) منها، وهي السورة الثالثة في مجموعة سور الطواسين الثلاثة (الشعراء- النمل- القصص)، والملاحظ أنّ نصف السورة تقريباً مكرّس لقصة موسى وبيان بعض النواحي الشخصية في حياته.

ارتباط السورة بما قبلها

سورة القَصَص استمرار لسورة النمل المتقدمة من حيث أنّ نصفها تقريباً مكرّس لقصة موسى التي سبق أن وردت بإيجاز في أوّل سورة النمل، وقد ختمت سورة النمل القصة بقوله تعالى واصفاً جحود فرعون وقومه برسالة موسى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤/٢٧)، ثم في سورة القَصَص تفصيل ذلك وهو المكابرة والإصرار على التقليد: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ (٣٦/٢٨).

وفي أواخر سورة النمل المتقدمة قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٧٦/٢٧)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٩٢/٢٧)، ثم تفتتح سورة القَصَص بقوله تعالى: ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (١/٢٨-٢).

وفي سورة النمل أن الرُسُل في مأمن من الخوف في حضرة الله عزّ وجلّ: ﴿يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٠/٢٨)، وفي سورة القَصَص أنهم من الآمنين، أي في الدنيا والآخرة: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ (٣١/٢٨).

محور السورة

أن الله تعالى يجزي المتصفين بالإحسان في كل شيء بأن يؤتيهم العلم بمعناه الواسع؛ أي الإدراك الروحاني، كما يؤتيهم الحكمة، أي المقدرة المنطقية على إدراك الصواب من الخطأ، لقوله تعالى عن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤)، وقد توصل موسى عليه السلام إلى هذه المنزلة بعد الأحداث المذكورة بالآيات (١٥-٢٨)، وفي آية [يوسف ٢٢/١٢] إشارة ليوسف عليه السلام بما يشبه ذلك.

وعلى النقيض من المتصفين بالإحسان تكمن عاقبة فرعون وأمثاله في الاستكبار الزائف وإنكار البعث والحساب: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾ (٣٩).

مع أنّ الوحي الإلهي وبعث الرسل تتالى على البشرية منذ القدم فلا عذر للناس بالاستكبار والجهل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥١)، ومن ذلك نزول الوحي بالتوراة وبالقرآن: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٩).

وبعد البعثة النبوية دخل كثير من اليهود والنصارى في الإسلام كما يدخلونه اليوم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (٥٢-٥٣)، وأن المجتمعات قد تدوم مع الكفر ولا تدوم مع الظلم: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ

وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (٥٩)، وأن الله تعالى خلق الخلق واختار له ما هو خير: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٨)، ولكن الإنسان يطغى فينسب ما بيده من نعم إلى حذاقته ومهارته ومكره السيئ، وينسى المنعِم عليه، كما في قوله تعالى على لسان قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٧٨).

وأن الله تعالى يرزق المؤمن والكافر على السواء سوى أن الذين يكفرون بالنعم لا يفلحون: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٢)، وأنه بعد ختم الرسالات بنزول القرآن الكريم بشيراً ونذيراً للناس كافة لم يبقَ بعده سوى المعاد والحساب: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٨٥).

خلاصة السورة

بعثة موسى لفرعون وأسبابها (١-٦).

قصة موسى من مولده إلى بعثه لفرعون، الآيات (٧-٤٣).

تتابع الوحي بالتوراة والإنجيل، الآيات (٤٤-٥٠).

تتابع الرسالات وختمها بالقرآن ودخول اليهود والنصارى بالإسلام (٥١-٥٦).

الأمم قد تدوم مع الكفر ولا تدوم مع الظلم الآيات (٥٧-٥٩).

عجز الشركاء المزعومين، وأنّ الله تعالى يختار الخير لعباده (٦٠-٧٥).

قصة قارون، كان من قوم موسى، كمثال على سلوك المفترين (٧٦-٨٤).

حتمية المعاد والحساب ووجوب التوحيد (٨٥-٨٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسم﴾(١)

١- ﴿طسم﴾ الله أعلم بمراده، انظر [البقرة ٢/١].

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾(٢)

٢- ﴿تِلْكَ﴾ أي في هذه السورة ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ القرآن الكريم، الذي يبين حقيقة الأحداث في قصة موسى وفرعون وبني إسرائيل، خلافاً للنشاز المذكور في كتب العهد القديم.

﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣)

٣- ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ﴾ أيها الرسول، وأيها المسلم، وأيها القارئ ﴿مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾ بعثة موسى إلى فرعون ﴿بِالْحَقِّ﴾ مبيّناً الحق بوضوح ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الذين لديهم الاستعداد للإيمان، بخلاف المتشنّجة عقولهم على الباطل.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(٤)

٤- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ تجبّرَ وطغى في مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي طوائفَ بحسب منازلهم الاجتماعية، وهذا التصنيف للبشر يدينه القرآن بشدة لأن الناس خُلقوا متساوين ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل وَضَعهم فرعون في الطبقة الدنيا ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ لأن بني إسرائيل سبق لهم التحالف مع الهكسوس أعداء فرعون عندما احتلّوا شمال مصر، فخشيَ أن يعودوا للتحالف معهم إن هاجموا مصر مرة أخرى، [انظر مقدمة سورة يوسف] ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ يستبقيهم للخدمة إماءً ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ الراسخين في الإفساد.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾(٥)

٥- ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ من بني إسرائيل ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ لأنهم الأمة الوحيدة في زمانهم الذين أقرّوا بالتوحيد، وكانوا بذلك الأمة التي سبقت المسيحية والإسلام ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ لأمجاد فرعون.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾(٦)

٦- ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ في فلسطين لمدة من الزمن ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ من رغبتهم في الانفلات من العبودية، والخروج من مصر، وهامان اختصار (هـا-أمون) وهو كبير رجال الدين المصريين في معبد أمون في ذلك الوقت، وهو الذي خاطبه فرعون بالآية (٣٨) طالباً منه أن يبني له صرحاً من الطين ليطّلع منه على إله موسى، ولعل في ذلك إشارة إلى الأهرامات المصرية التي كان رجال الدين المصريين يشاركون في تصاميمها المعمارية.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٧)

٧- بعد أن افتتحت السورة بالآيات (١-٦) ببيان الأسباب التي استوجبت بعثة موسى إلى فرعون مصر، ينتقل الخطاب في الآيات (٧-٤٣) لتفصيل قصة حياة موسى من مولده إلى مبعثه لفرعون:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ بعد ولادته ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ كالمعتاد ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من جواسيس فرعون أن يأخذوه ويقتلوه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ في النيل، فجعلته أمّه في صندوق وألقته فيه ﴿وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي﴾ نتيجة فراقك إياه

﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ قريباً ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى فرعون، وإلى بني إسرائيل.

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾(٨)

٨- ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ لأنهم رفضوا بعثته فيما بعد عندما جاءهم نبيّاً رسولاً ﴿وَحَزَنًا﴾ سبّب لهم الحزن بأن أخرج بني إسرائيل من مصر، وغرق فرعون وجنوده في البحر ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ في كلّ توجّهاتهم؛ إذ لم يدركوا أهمية بعثة موسى إلى فرعون أولاً، ثم إلى بني إسرائيل ثانياً.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾(٩)

٩- ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ﴾ لزوجها، عندما التقطوه من النيل ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ مصدر السعادة لنا ﴿لا تَقْتُلُوهُ﴾ كما تقتلون الباقين من حديثي الولادة ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ في شبابه ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ نتبناه ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ ما في الخطة الإلهية من إحكام، وما ينتظرهم في مستقبله.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١٠)

١٠- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ من كلّ طمأنينة، صفراً من العقل ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ كادت تبدي شخصية ابنها الحقيقية على أمل أن يعود إليها ﴿لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ بما أنزلنا عليه من السكينة ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بوعد الله لها وبالبشارة بعودته، الآية (٧).

﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾(١١)

١١- ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أي تتبعي أثره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ أبصرته عن بعد ﴿وَهُمْ﴾ فرعون وآله ﴿لا يَشْعُرُونَ﴾ أنها تتبّعه، أو أنها أخته.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾(١٢)

١٢- ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ لم يقبل الرضاعة من أحد من المرضعات ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل مجيء أخته (فَقَالَتْ) أخته لآل فرعون ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ يضمنون رضاعه والقيام بمصالحه ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ لا يقصّرون في خدمته وتربيته.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(١٣)

١٣- ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ﴾ بهذا اللطف والتقدير ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ﴾ بل تسعد به ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ علم ظهور إلى حيّز الواقع، وليس فقط علم إيمان ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أكثر الناس غافلون عن ذلك.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(١٤)

١٤- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ قوي جسمه،واعتدل عقله، انظر [الأحقاف ١٥/٤٦]، ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ حكمةً، للحكم بين الحق والباطل، وتمييز الخطأ من الصواب ﴿وَعِلْمًا﴾ روحانياً من وحي النبوة ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ الواضح من آية [الشعراء ٢٠/٢٦] أن موسى توصّل إلى هذ المنزلة بعد الأحداث المذكورة بالآيات (١٥-٢٢)-

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾(١٥)

١٥- ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ في وقت لا يعتاد دخولها ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ من بني إسرائيل ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ من المصريين ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي قتل المصري ﴿قَالَ﴾ موسى مسترجعاً أمره ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ المعنى؛ إنّ قتله المصري كان بنتيجة تزيين الشيطان له ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ الشيطان ظاهر العداوة والإضلال، والواضح من كلام موسى أنه هبّ لنجدة العبري ليس لكونه على صواب، ولكن فقط عصبيةً وتحيّزاً له، ولعلّ هذه هي العبرة من القصة في هذا الموضع.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(١٦)

١٦- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بالعصبية، وقتلي المصريّ بلا ذنب ﴿فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾(١٧)

١٧- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من المغفرة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ مدافعاً عنهم، والمغزى أن الذي دافع عنه موسى وقتل المصري بسببه كان كافراً مجرماً.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾(١٨)

١٨- ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ ما تكون نتيجة قتله المصري بالأمس؟ ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ﴾ الإسرائيلي ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يستنجد به صارخاً ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾ للإسرائيلي ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ ضال في الغواية.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾(١٩)

١٩- ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ أي بالمصريّ، بدافع من العصبية مرةً ثانية (قَالَ) المصريّ ﴿يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ﴾ تحيّزاً لقومك، وعصبيةً ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ﴾ تضرب وتقتل ولا تنظر في العواقب ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ بين الناس بحيث تدفع التخاصم بينهم بالتي هي أحسن.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (٢٠)

٢٠- ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ لإنذار موسى، وهو على الأغلب مؤمنٌ من آل فرعون ﴿قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلأَ﴾ أي الجمع من كبار الناس، أو من كبار حاشية فرعون ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ يتشاورون في أمرك ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾ جزاء فعلتك بالأمس ﴿فَاخْرُجْ﴾ من المدينة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٢١)

٢١- ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ من المدينة ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ يترصّد الأمور ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قد يظلمونه بالقتل.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(٢٢)

٢٢- ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ خارجاً من مصر إلى سيناء باتجاه الشرق، نحو أرض مدين، ربما لأن أهل مدين كانوا من العرب العموريين، على قرابة شديدة من العبرانيين، فظنَّ موسى أنّ بإمكانه الاعتماد عليهم في محنته ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ باللجوء إلى مَدْيَن.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾(٢٣)

٢٣- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ العين التي يشربون منها ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ﴾ جماعة كثيرة من الناس من كل الأصناف ﴿يَسْقُونَ﴾ بهائمهم ومواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ﴾ في مكان أسفل منهم ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ عن غنمهما مخافة أن تختلط بغيرها، أو تمنعان غنمهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ لمَ لا تباشران السقي كغيركما؟ ﴿قَالَتَا لا نَسْقِي﴾ مواشينا ﴿حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ ننتظر حتى يصرف الرعاة مواشيهم بعد ريّها من الماء، فنحن عاجزتان عن المنافسة معهم ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يستطيع مساعدتنا.

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(٢٤)

٢٤- ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ سقى غنمهما لأجلهما ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ ليرتاح من عناء السقي والترحال ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ محتاج لأي شيء من خزائن كرمك، ما يدل على حاجته الشديدة لأي طعام أو مأوى.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٢٥)

٢٥- ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ يريد مكافأتك ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ القصة، أي الخبر المقصوص قصّته ﴿قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فليس لهم من سلطان ها هنا، ووصفهم بالظالمين لما كان عليه فرعون من ادعاء الألوهية، وعبادة قومه له، أو لما كانوا عليه من اضطهاد العبرانيين.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ (٢٦)

٢٦- ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ لرعي الأغنام وسقايتها ولخدمتك ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ فهذا الرجل يجمع بين القوة والأمانة.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٢٧)

٢٧- ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ شريطة أن تعمل معي وتبقى في خدمتي ثماني سنين على الأقل ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ الحد الأقصى عشر سنين، والخيار بين الثماني أو العشر سنين عائد لموسى ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزامك بالعشر ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في حسن المعاملة والوفاء بالعهد.

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾(٢٨)

٢٨- ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَلِكَ﴾ الأجل والعهد ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ صار مقبولاً ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ في طلب الزيادة عنهما ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ نوكل أمورنا إليه.

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾(٢٩)

٢٩- ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ غرباً، عائداً باتجاه شبه جزيرة سيناء ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ جبل سيناء ﴿نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ يدلنا على الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ من الحطب المشتعل ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون بها.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٣٠)

٣٠- ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي النار ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ﴾ الأيمن عند العرب يعني المبارك ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ المحترقة في النار ﴿أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وفي سورة النمل: ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ وهو نور الله تعالى، مصدر الإلهام ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الملائكة عليهم السلام ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تنزيه الله تعالى عن كل نقص وسوء، [النمل ٨/٢٧].

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾(٣١)

٣١- ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ لمغزى معجزة العصا انظر شرح آية [الأعراف ١٠٧/٧]، ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ منهزماً ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع ﴿يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ من المخاوف.

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾(٣٢)

٣٢- ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ فتشع نوراً روحانياً ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ يدك ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ دليل الأمان من الرهبة، بعكس مدّ اليد للدفاع ضد المخاوف ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ البرهانان المشار إليهما هما مقدرة موسى على مناقشة فرعون في بلاطه في شؤون دعوته دون خوف معنوي أو حقيقي منه، لشعوره بأن الله معه، والبرهان الثاني لفرعون لبيان أن الحقيقة والظاهر لا يتطابقان دوماً.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾(٣٣)

٣٣- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ قتلت المصري الذي استنجدني عليه العبراني الذي من قومي ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ قصاصاً.

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾(٣٤)

٣٤- ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ لم يكن موسى طليق اللسان كأخيه ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ مساعداً ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ فيشهد لي بطلاقة لسانه على صدق دعوتي ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ إن لم أعرض قضيتي بطلاقة.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾(٣٥)

٣٥- ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ أزرك ﴿بِأَخِيكَ﴾ هارون ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ حجةً وتسلّطاً ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ بآيات الله التي تحميهم ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمُ﴾ من قوم فرعون ﴿الْغَالِبُونَ﴾ على أعدائكم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾(٣٦)

٣٦- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ بالمعجزات ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾ لما اعتادوا عليه من تداول السحر في حياتهم اليومية ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ لأن ما شاهدوه من الفرق بين الحقيقة والظاهر يفوق السحر الذي اعتادوا خداع الناس به.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾(٣٧)

٣٧- ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لفرعون ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾ من عند الله، والمعنى؛ إن الله تعالى قد جعل موسى أهلاً للنبوة والهداية، ولو كان كما يزعمون كاذباً ساحراً مفترياً لما كان أهلاً لذلك، فالله تعالى لا يرسل الكاذبين، ولا ينبيء السحرة، ولا يفلح عنده الظالمون ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ

الدَّارِ﴾ العاقبة الحميدة في الدنيا ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ عند الله تعالى، فلا يتوصلون إلى نهاية سعيدة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(٣٨)

٣٨- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ﴾ يا كبار القوم ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ بزعمه أنه ابن إله الشمس (ر ع) ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ﴾ كبير الكهنة ﴿عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ من الأهرامات ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ وفي كلامه ما فيه من السخرية بموسى ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ المواظبين على الكذب.

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾(٣٩)

٣٩- ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ﴾ أعوانه ﴿فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مع كونهم على الباطل ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾ للبعث والحساب، ولا شك أن مفهوم الفراعنة للآخرة ليس له علاقة بكون الحياة الآخرة تتمّم الأولى تحقيقاً للعدالة، وإنما كانوا يتوقون للخلود في مرحلة أخرى من الحياة بعد الموت لا يُدركون كنهها، مما كان الباعث لهم على بناء الأهرامات وتحنيط الجثث.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾(٤٠)

٤٠- ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ في أثناء لحاقهم موسى إلى سيناء ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾(٤١)

٤١- ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ للضلال والفساد في دنياهم، وادعاء فرعون الألوهية ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ مصير من يتّبعهم إلى النار ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾ بنتيجة التكبر والاستكبار في دنياهم.

﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾(٤٢)

٤٢- ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ إبعاداً من رحمته تعالى، ومنعاً للألطاف والتوفيق في دنياهم، بما اختاروه لأنفسهم برفضهم بعثة موسى إليهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أعمالهم الدنيوية حرمتهم من رحمة الله.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٤٣)

٤٣- بعد أن أوجزت الآيات (٧-٤٣) قصة موسى من مولده إلى مبعثه إلى فرعون تبين الآيات (٤٤-٥٠) تتابع الوحي الإلهي بالتوراة وبالقرآن الكريم:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى﴾ من الذين أنكروا الرسل ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ التوراة بصائر للناس، أي بواسطتها تبصر القلوب وتميز بين الحق والباطل ﴿وَهُدًى﴾ ومصدر هداية إلى الحق ﴿وَرَحْمَةً﴾ للناس من التخبط في ظلمات الشك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ الله.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(٤٤)

٤٤- ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ من جبل سيناء ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ﴾ أوحينا إليه التوراة ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ على الوحي.

﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (٤٥)

٤٥- ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أجيالاً بينك وبين بعثة موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ مضت عليهم سنون طويلة ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ لم تكن يامحمد أوّل رسول للناس ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ رسلاً كثيرين إلى مختلف الأمم.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٤٦)

٤٦- ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى بالوحي ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ بعثناك أنت أيضاً بالقرآن رحمة لقومك ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كنت أول الرسل إليهم بعد حقبة طويلة من الزمن ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

﴿وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤٧)

٤٧- ﴿وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الشرور والكفر والشرك ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ يرشدنا ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ بالتوحيد، والظاهرة على يدي نبيك ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إيماناً يقيناً.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾(٤٨)

٤٨- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي أهل مكة، جاءهم القرآن وقت البعثة ﴿قَالُوا﴾ تعنتاً وتعجيزاً ﴿لَوْلا أُوتِيَ﴾ محمد ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ من الكتاب المنزل جملة واحدة ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ اليهود ﴿بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ جاءهم موسى بالكتاب جملة واحدة فكفروا به ونكصوا إلى الوثنية مراراً ﴿قَالُوا﴾ كفار مكة ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي التوراة والقرآن سحران تعاضدا وتعاونا بالنظر لنبوءة التوراة بقدوم النبي الأحمد، وقد يكون قولهم إن موسى ومحمد ساحران تظاهرا بنزول الوحي عليهما ﴿وَقَالُوا﴾ كفار مكة ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ بموسى ومحمد معاً.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٤٩)

٤٩- ﴿قُلْ﴾ لكفار مكة يا محمد ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا﴾ من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم أنهما نوع

من أنواع السحر، ولم تأتِ الآية على ذكر الإنجيل، لأن عيسى كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل خاصة.

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٥٠)

٥٠- ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أيها النبي، بعد كل هذه الحجج ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الزائغة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ بتخبط فيه ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ لأنه لا هدي إلا هدي الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يظلمون أنفسهم باتباع أهوائهم، تعنتاً وتكبّراً وعناداً.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٥١)

٥١- تأكد الآيات (٥١-٥٦) على أن الوحي الإلهي لم ينقطع عن البشرية:

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي إن الوحي نزل متواصلاً عليهم وعلى مَن قبلهم من الأمم، كما أن القرآن نزل منجّماً على مدة البعثة النبوية، لعله يكون عظةً لهم في ذلك.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾(٥٢)

٥٢- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم اليهود والنصارى، أوتوا التوراة ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن ﴿هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ يؤمنون بالقرآن، وقد دخل الكثير منهم في الإسلام زمن البعثة النبوية وبعدها.

﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾(٥٣)

٥٣- ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ القرآن الذي ختمت به الرسالات السماوية ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ بأنه وحي منزل ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ كنا نعرف حقيقته ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ مذعنين مستسلمين لله تعالى، فجاءنا القرآن الكريم مطابقاً للفطرة.

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(٥٤)

٥٤- ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم، ومرة على إيمانهم بالقرآن ﴿وَيَدْرَؤُونَ﴾ يدفعون ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ بالخصلة الحسنة ﴿السَّيِّئَةَ﴾ المعصية ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾(٥٥)

٥٥- ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ الغث والعبث من الكلام، إذا سمعوه من الكفار ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ لم يلتفتوا إليه ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ نتحمل وزرها ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ تتحملون وزرها ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ نتعامل معكم بالحجة والمنطق، وليس بالنزاع، ولا نقابل الباطل بالباطل ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ الذين يحلون مشاكلهم بالنزاعات والحروب.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(٥٦)

٥٦- ﴿إِنَّكَ﴾ أيها النبي، وأيها المسلم ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا تستطيع قهر أحد على الهداية، ولا للإيمان بالقرآن ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ يهدي الله تعالى مَن يشاء الهداية فيوفقه بالألطاف الإلهية ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ هو أعلم بمَن تميل إليه نفسُه وجبلّته إلى الخير والهدى، ومن لديه قابلية للهداية، وأعلم بذوي النفوس المعاندة المكابرة الجاحدة، كما كانت الحال مع أهل مكة الذين عاندوا البعثة سنوات طويلة:

﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٥٧)

٥٧- مع أن الوحي الإلهي تتالى على البشرية فإن المجتمعات، ومن ضمنها أهل مكة، تختلق الأعذار للتهرب من هدي الرسل، في محاولة ضمنية للتهرب من المسؤولية الأخلاقية، الآيات (٥٧-٥٩)، فيجمعون الفساد إلى الكفر:

﴿وَقَالُوا﴾ أهل مكة ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ﴾ إن استجبنا لدعوتك لنا للإسلام، وهذا مزيد من أعذارهم السطحية ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ لأن قبائل العرب سوف تعدُّ ذلك خرقاً لموائيقنا معها، وقد تهاجمنا وتخرجنا من أرضنا ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ جعل الله تعالى لأهل مكة حرماً آمناً على مر الأيام والعصور مما ينفي مخاوفهم المزعومة ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ الأرزاق المادية تتدفق على مكة أيام الحج والعمرة، وهي أيضاً الرزق الروحاني والسلام الداخلي يتمتعون به، مما لا يعرفه الكفار ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ الحكمة الإلهية من ذلك، ولا يربطون الأمور بمسبباتها، وهذا المعنى غير مقتصر على أهل مكة وقت البعثة، وإنما ينطبق على الناس من أمثالهم في كل العصور الذين يخشون الدخول في الإسلام خوفاً من الانشقاق عن أهلهم وذويهم ومجتمعهم وتقاليدهم المتوارثة.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾(٥٨)

٥٨- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من مجتمع ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ لم يكن لها همّ إلاّ الدنيا، فرفضت الرسل ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ لحق بها الانحطاط والدمار نتيجة تهالكها على الدنيا، وتمسكها بالقيم المادية فقط من دون إقامة أي وزن للقيم الأخلاقية والروحية ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ الله تعالى يرث الأرض ومَن عليها، والمغزى من الآية ملاحظة هشاشة مثل هذه المجتمعات في كل عصر، وأن مكاسبها المادية لا تصمد أمام القيم الروحانية المنبثقة من الهدي الإلهي.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾(٥٩)

٥٩- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ في كُبرى مجتمعاتها، كما في مكة ﴿رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ فيقيم عليها الحجج، ويأمرها بالإصلاح، ولا يتركها في ظلام الشك والضلال ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى﴾ المجتمعات ﴿إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ ليس فقط بالكفر، وإنما أيضاً بالفساد؛ إذ يظلم بعضُهم بعضاً، انظر [هود ١١/١١٧].

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(٦٠)

٦٠- مع تتالي بعث الرسل فالناس لم ترعوِ عن عبادة المادة والأوهام والزعامات، الآيات (٦٠-٧٥):

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من المادة ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو متاع زائل إذ تتمتعون به مؤقتاً ﴿وَزِينَتُهَا﴾ زخرفها ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ من دنياكم التي لا تلبث أن تزول ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ لأن ذلك مما يستسيغه العقل فكيف تغفلون عنه؟.

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾(٦١)

٦١- ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ بالسلام الروحاني والسعادة الداخلية ﴿فَهُوَ لاقِيهِ﴾ في نفسه حتماً ﴿كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المادية فقط ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للبعث والحساب على ما قدّم وأخّر في دنياه؟ ولأنه لم يستخدم إمكاناته وملكاته العقلية على الوجه الصحيح.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾(٦٢)

٦٢- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ يوم البعث والحساب ينادي اللهُ تعالى ضعافَ العقول من الذين تهالكوا على دنياهم ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أين الشركاء الذين اختلقتهم أوهامُكم، والزعماء الذين كنتم تطيعونهم في المعاصي، وفي التحليل والتحريم، وزعماء الكفر، والمادة التي كنتم ترهقون أنفسكم بالجري وراءها وتنسون خالقكم؟ لقد كنتم تعبدون شهواتكم وغرائزكم.

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾(٦٣)

٦٣- ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ الذين حقّت عليهم آيات الوعيد ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أضللنا ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أضللناهم كما ضللنا، فضلّوا باختيارهم ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم وممّا اختاروا لأنفسهم من الكفر والمعاصي ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ بل كانوا يعبدون شهواتهم وغرائزهم.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾(٦٤)

٦٤- ﴿وَقِيلَ﴾ يوم القيامة ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين زعمتم فهل من مجيب منهم؟ ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لأنهم لا يقدرون على شيء من نصرة أتباعهم، فضلاً عن نصرة أنفسهم ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ العابدون والعبدة في آخرتهم ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ في دنياهم.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾(٦٥)

٦٥- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الله تعالى يوم البعث ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ المغزى؛ بعثنا لكم الرسل بالوحي متضمناً الهداية لكم، ولم نترككم تتخبّطون في عماية الجهل والشك والتنظير، فأنكرتم الرسل والرسالات.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾(٦٦)

٦٦- ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ فاتتهم الحجج والأعذار التي أرادوا التكلم بها، لكونها أعذاراً وحججاً فاسدة ﴿فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فيما بينهم لفرط دهشتهم، أو لعلمهم أنهم سواء في الجهل والخيبة.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾(٦٧)

٦٧- ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ في دنياه ﴿فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ الفائزين السعداء في آخرته.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٦٨)

٦٨- ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من الخلق والعباد ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ الله تعالى يختار الخيرَ لخلقه، وليس المعنى ما زعموا أن ليس للناس الخيار في أمورهم، لأنّ (ما) ليست ما النافية، وإنّما هي اسم موصول بمعنى الذي، ولو كانت (ما) النافية كما يزعمون، لكان في ذلك من الجبرية ما ينافي حرية الخيار التي كرّم الله تعالى بها بني البشر ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيهاً له تعالى عن الشرك الذي يزعمون، نتيجة حرية الخيار التي يتمتعون بها.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(٦٩)

٦٩- ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ من الخفايا والنفاق والاعتقادات الباطلة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ على الملأ، من نفاقهم.

﴿وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٧٠)

٧٠- ﴿وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ وحده ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ﴾ الله تعالى مستحق الحمد لذاته سواء قدِرَ العباد على الإتيان بالحمد أم لم

يقدروا، وسواءٌ حَمِدَه حامدٌ أم لم يحمد ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ في الدنيا والآخرة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للبعث والحساب.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾(٧١)

٧١- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائماً بلا نهار ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ هل من شركائكم مَن يقدر على شيء؟ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ هذه الحقيقة وتعتبرون بها؟

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(٧٢)

٧٢- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ دائماً بلا ليل ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ من عناء النهار ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الحكمة والمعجزة في تتابع الليل والنهار، ومن ثمّ في الحياة معزى؟

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٧٣)

٧٣- ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ في النهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذا الإعجاز في تتابع الليل والنهار بما يناسب الفطرة ومتطلبات العيش.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾(٧٤)

٧٤- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ينادي المشركين يوم القيامة، المشار إليهم بالآيات (٦٢-٦٦)، ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ من الأوهام والبشر المولهين بزعمكم، والرؤساء الذين أطعتموهم في الأهواء وفي التحليل وفي التحريم ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ بزعمكم؟

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾(٧٥)

٧٥- ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهم الرسل الذين بُعثوا إليهم ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أيها الأمم، بما ضللتم وما زعمتم من الشرك والشركاء في دنياكم ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ إنّ الله وحده الحقيقة المطلقة، وكلّ ما عداه من إيجاده وخلقه ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الأوهام التي ابتدعتها عقولهم، وما كانوا يتّكلون عليه من الثروات والسلطات الدنيوية، كما هي الحال في قصة قارون بالآيات (٧٦-٨٢).

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾(٧٦)

٧٦- ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ من بني إسرائيل ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ تكبّر وتجبّر ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ العصبة: الجماعة الكثيرة، وهي على كثرتها وقوّتها، تنوء بحمل مفاتيح كنوزه، أي لا تستطيع النهوض بها لثقلها، فضلاً عن النهوض بالكنوز ذاتها ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ﴾ لا تفرح بثروتك فَرَح البطر ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ بزخارف الدنيا وزينتها، المتمسّكين بما يلهيهم عن أمر الآخرة.

لكنّ أبا مسلم الأصفهاني رأى أنّ المقصود من المفاتح: العلم والإحاطة، والمراد بما آتيناه من الكنوز ما إنّ حصرها وحفظها ليصعب على العصبة أولي القوة والهداية، أي هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تُتعب حَفَظَتَها والقائمين عليها أن يعلموا بها، ويحيطوا بكمياتها، فضلاً عن حفظها.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(٧٧)

٧٧- وهذه تتمة موعظة قومه له:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ من الأموال والنعم الكثيرة ﴿الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ بالإنفاق في وجوه الخير بما يكون وسيلة إليها ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ في الأمور المباحة، لا تنسَ العمل فيها لآخرتك بلا تزهّد ولا تنسَك، بل عليك التوسّط في الأمور، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة ١٤٣/٢]، ﴿وَأَحْسِنْ﴾ للناس مطلقاً بالمال والجاه وحسن اللقاء ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بما أنت عليه من الغنى والجاه والرفعة ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ بما مكّنك الله من نعمه الكثيرة عليك، لا تستخدمها في الفساد والإفساد ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ الذين يستخدمون النعم الإلهية في الإفساد.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾(٧٨)

٧٨- ﴿قَالَ﴾ قارون لهم مفاخراً: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ أي جمعت ما عندي من المال ﴿عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ حصلت عليه بمهارتي وحذاقتي وخبرتي ومقدرتي، ولا دخل لله في ذلك ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾ من الأمم المعتدّين بحولهم وقوّتهم ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال والكنوز، فلا يغترّ بما عنده ﴿وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ في الآخرة، بل يحاسبون أنفسهم عليها، لقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء ١٤/١٧]، هذا في الآخرة، أمّا في الدنيا فالمجرمون عميٌ عن أخطائهم وجرائمهم، لا ينفع فيهم النصح والإرشاد.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(٧٩)

٧٩- ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ في مواكب من الزينة والبهرجة ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ من الذين أغرتهم الدنيا وغرّرت بهم ﴿يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ من الأموال ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي في دنياه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾(٨٠)

٨٠- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بأحوال الدنيا والآخرة، من المؤمنين ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ لكم من أموال الدنيا ﴿لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ لِمَن جَمَع الإيمان والعمل الصالح معاً ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا﴾ أي هذه الخصلة من قرْن الإيمان مع العمل الصالح ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ على الطاعات، وعلى مصاعب الدنيا، وعلى مشاق التكليف.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾(٨١)

٨١- ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ﴾ بقارون ﴿وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ خَسْف الأرض به قد يكون كناية عن كارثة حلّت به خسر بها ثروته أو صحته أو زعامته أو كلّ ذلك، بعدما طغى وتجبّر وتكبّر، واشتدّ أذاه على الناس ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فتعيده إلى ما كان عليه من القوة والثروة والجبروت ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ لا يستطيع نصرة نفسه بنفسه.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾(٨٢)

٨٢- ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ المشار إليهم بالآية (٧٩)، كانوا يغبطونه على ثروته ومكانته ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ بالقدر الكثير ﴿لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ مؤمنهم وكافرهم، فلو بسط تعالى الرزق للمؤمنين فقط لصار الإيمان قسراً، ولانتفى الخيار الأخلاقي ﴿وَيَقْدِرُ﴾ على بعضهم بالقدر القليل ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بأن أحابنا لما فيه مصلحتنا مما لم نكن نعلم ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ كما خسف بقارون وذهب بجبروته وطغيانه ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ الطغاة لا يصلون إلى مبتغاهم، وإن طال بهم الزمن.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٨٣)

٨٣- ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾ على النقيض مما كان عليه قارون وأمثاله ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين بخيارهم الأخلاقي توصّلوا إلى المنزلة التي هم فيها، وليس لعدم اكتراثهم بالخيار، أو لأنّ الفرصة لم تُتح لهم للتوصّل إلى دنيا المادة.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٨٤)

٨٤- ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ يجزيه الله تعالى بأحسن من عمله الحَسَن، كما في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور ٢٤/٣٨]، انظر أيضاً [الأنعام ٦/١٦٠]، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ جزاء وفاقاً، بلا زيادة ولا نقصان، فمعاناة المجرمين في الآخرة ليست سوى نتيجة طبيعية واستمرارية لإجرامهم في الدنيا.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(٨٥)

٨٥- بعد قصة قارون والعبر منها، تبيّن الآيات التالية مسؤولية الإنسان الأخلاقية بعد نزول القرآن على البشرية:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أيها الإنسان ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ للبعث وللحساب ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾ من جاء في آخرته وهو على هدى ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ من جاء في آخرته ضالاً عن الهدي الإلهي، لم ينظر في القرآن، ولم يهتد به.

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾(٨٦)

٨٦- ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو﴾ أيها الإنسان ﴿أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ القرآن الكريم ينزل على البشرية ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ لأنّ رحمة الله تعالى، وحكمته التي لا يدرك كنهها، اقتضت ذلك، رحمةً بالبشرية، وتبياناً للحق من الباطل، ومن ثمّ اختباراً وفتنةً لها ﴿فَلا تَكُونَنَّ﴾ أيها الإنسان بعد نزول القرآن الكريم ﴿ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ لا تكنْ عوناً لهم على الباطل، بعد نزول الفرقان، وبعد أن أصبح الحق واضحاً من الباطل.

﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٨٧)

٨٧- ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ﴾ أيها المؤمن ﴿عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ في القرآن الكريم ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، انظر [النحل ١٦/١٢٥]، ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ من اليهود والمسيحية والآخرين من غير المسلمين، ولا من المسلمين الذين أشركوا بعلم أو بغير علم.

﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٨٨)

٨٨- ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أيها المؤمن ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ وحده لا شريك له ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ هو وحده الحقيقة المطلقة، وكلّ ما عداه من المخلوقات تستمدّ وجودها منه ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ جميع الخلائق ترجع إليه للحساب يوم البعث.

سورة العنكبوت - ٢٩-

مكية، وقيل مدنية

مقدمة

معظم المصادر تؤكد أن سورة العنكبوت من أواخر السور المكية، لكن بعضها ينسبها لأوائل الفترة المدنية، وبعضها الآخر يحدد أن الآيات العشر الأولى منها مكية وباقي السورة مدنية، وبعضها يرى العكس، والنتيجة أن سورة العنكبوت نزلت على ما يبدو في الفترة الانتقالية بين الفترتين المكية والمدنية، واشتُق اسمُها من ضرب المثل بالعنكبوت بالآية (٤١) منها، وهي أولى مجموعة السوَر الأربع المتتالية: (العنكبوت- الروم- لقمان- السجدة) التي تبدأ بأحرف المقطعات (ألم).

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة القصص تبين أن بعث الرسل وتنزّل الوحي على البشرية قد تتالى على مر الزمن حتّى خُتم بالقرآن، فلم يبقَ للناس من عذر بالجهل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٨/٥١-٥٢)، ثم تفتتح سورة العنكبوت أن الناس، بعد نفي الجهالة عنهم، أصبحوا في موقع المسؤولية، فيختبرهم تعالى في الدنيا بظهور أفعالهم إلى العلن، وليس بعلمه بالغيب منهم: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ (٢٩/٢) لأن الفتنة هي الاختبار، ثمّ الحياة تصبح جهاداً حقيقياً لمن ينجح في الاختبار: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٩/٦٩).

وسوف نلاحظ أيضاً ارتباطاً عامّاً بين مجموعة سور الطواسين الثلاث المتقدمة: (الشعراء-النمل-القصص) وبين مجموعة سور (ألم) الأربع التي تليها: (العنكبوت-الروم-لقمان-السجدة).

محور السورة

إن الذين يبذلون الجهد في سبيل التوصل للعلم اليقيني ويجاهدون النفس والهوى ينعكس جهادهم إيجاباً على أنفسهم فتسمو مراتبهم الروحانية: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾ (٦)، ومن جملة هذا الجهاد إعمال العقل، والانفكاك من الفكر المتحجّر المتوارث: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨).

لكنّ تمسّك بعض الناس بالتقليد وبفكر الآباء المتحجّر بلغ مبلغاً في قوم نوح أنه لبث فيهم تسع مئة وخمسين عاماً وهو يدعوهم إلى التوحيد فلم يستطع أن يثنيهم عن ضلالهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمْ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٤)، وكذا كان الأمر في دعوة إبراهيم إذ تمسّكوا بعبادة ما اعتادوا عليه وتوارثوه من الأوهام والزيف: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٧)، وكذا الأمم العديدة التي كذّبت رُسُلها رغم مقدرة الاستبصار التي أودعها تعالى في بني آدم، وهي المقدرة على التوصل إلى الحقيقة عقلاً -بالدلائل العقلية- فلم يستفد منها المكذّبون: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (٣٨)، والسبب يكمن في الاستكبار الذي يعمي البصيرة: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ (٣٩).

ثم تضرب السورة مثلاً بالمستكبرين الذين يعبدون الأوهام والثروات ويلهثون وراء السلطة والقيم الزائفة بأنهم كَمَن يلوذ ببيت العنكبوت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١)، وقد فاتهم أن الخلق ليس عبثاً وإنما ذو مغزى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٤)، كما فاتهم علم القرآن والعمل به مما هو أكثر من كافٍ لدنياهم وآخرتهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥١)، غير أن العجز الفكري والتشنج على ما يعتاده أناسٌ من أوهام يؤدي بهم إلى أسوأ العواقب: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٣).

لذا تنبّه السورة المنهمكين في الحياة الدنيا الذين لا يدركون أنها لعب ولهو في جنب الحياة الحقيقية في الآخرة: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٤)، وتختم بالفكرة التي بدأت منها أن الذين يجاهدون النفس والهوى ويجاهدون في سبيل نشر الإسلام بالقناعة والقدوة الحسنة، يهديهم الله تعالى إلى سبله القويمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٦٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم﴾(١)

١– ﴿الم﴾ الله أعلم بمراده، انظر [البقرة ٢/١].

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾(٢)

٢– ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا﴾ بالقول ﴿وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ بالفعل، أي باختبار إيمانهم بظهوره إلى حيّز العلن، نتيجة قرن الإيمان بالعمل

الصالح، ونتيجة التضحية في سبيل العقيدة، والمغزى أن العبرة ليست بالقول، بل بالقول والفعل معاً.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(٣)

٣- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم، أي قبل أهل مكة ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ إيمانهم وقرَنوه بالعمل ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ المنافقين منهم، وبما أنّ علمه تعالى محيط بالماضي والحاضر والمستقبل، فالمقصود أنّ الله تعالى يحاسب العباد بظهور أعمالهم إلى حيّز التنفيذ، وليس بعلمه بالغيب منهم.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٤)

٤- ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ولا يؤمنون بالآخرة ﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ يعجزونا فيفوت حسابهم وجزاؤهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ لا يعلمون أن الجزاء مترتب على العمل لا محالة، وليس اعتباطاً.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٥)

٥- ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾ يؤمن بالبعث والنشور ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ في الآخرة يوم تتحقق العدالة على أتم وجه ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميع لدعاء عباده، العليم بأحوالهم.

﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(٦)

٦- ﴿وَمَنْ جَاهَدَ﴾ في سبيل الحق ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ ينتفع بجهاده من حيث انسجام أفعاله مع إيمانه، ومن حيث ما ينتظره من ثواب ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ولكنّ الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون الدنيا مسرحاً لصراع الحق مع الباطل، انظر [البقرة ٢/٣٦].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٧)

٧- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من المذكورين أعلاه ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يتغاضى عنها سبحانه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيكون الجزاء والثواب موافقاً لأحسن أعمالهم.

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٨)

٨- بعد أن بيّنت الآيات (١-٧) أنّ الدنيا دار اختبار، ينتقل الخطاب إلى أنّ الاختبار يقتضي استخدام العقل السليم، وليس بمجرّد التقليد الأعمى للآباء والأجداد، كما يقتضي العمل والتضحية، وليس بمجرّد القول، الآيات (٨-١٣):

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أن يُحسن إليهما إحساناً ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ تقليداً واتّباعاً لهما لا غير، وظلماً للعقل والمنطق السليم ﴿فَلا تُطِعْهُمَا﴾ فيما لا يستسيغه العقل ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من استخدام إمكاناتكم الفكرية التي متّعتُكم بها، فأحاسبكم عليها.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾(٩)

٩- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ نتيجة اعتمادهم على الفكر المستقلّ، والعقل السليم ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ في عداد الصالحين في الآخرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾(١٠)

١٠- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ إيماناً ظاهراً، وهم المذبذبون أنصاف المؤمنين ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ اضطُهد بسبب عقيدته ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ اضطهاد الناس له ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ للكفار، إلاّ مَن أُكره وقلبه مطمئنٌّ بالإيمان،

انظر [النحل ١٦/١٠٦]، ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ للمؤمنين ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ المذبذبون للمؤمنين ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي كنّا معكم بالقول، وإن لم يظهر منّا أي تضحية فعلية ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ بما في صدور عباده من الصدق أو النفاق، وما يترتب عليهما بصورة طبيعية من ثواب وعقاب.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾(١١)

١١- ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالقول والعمل ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ علم ظهور إلى حيّز الواقع، وليس بعلمه بالغيب منهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(١٢)

١٢- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ في الكفر والضلال ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ فلا عليكم منها، قالوه على سبيل التهكّم والسخرية، لأنهم ينكرون وجود الله أصلاً، كما ينكرون الآخرة والحساب ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ انظر القاعدة القرآنية بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام ٦/١٧٤]، ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في دعواهم حمل أخطاء الآخرين.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾(١٣)

١٣- ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أثقال ذنوبهم ﴿وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي أثقال جهودهم في إضلال الآخرين ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾(١٤)

١٤- بعد أن فصّلت الآيات (١-١٣) لزوم قرن الإيمان بالعمل، ووجوب استخدام العقل والنهي عن التقليد في التوصل إلى الحقيقة التي جاءت بها الرسل، تضرب السورة مثلاً بقصص بعض الرسل، الآيات (١٤-٤١):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا﴾ فبقيَتْ عقولُهم متشنجة بحلى التقليد، لا يتمكنون من تقويم رسالة نوح لهم من حيث حدارتها وأصالتها، مع طول المدة ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ بنتيجة عنادهم واستكبارهم ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أنفسهم بعدم استخدام إمكاناتهم الفكرية التي كرّمهم بها الله تعالى.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١٥)

١٥- ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ من قومه المصرّين على الكفر ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ ومَن معه من المؤمنين ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ سفينة نوح ﴿آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ عبرة لِمَن يعتبر، في نجاة المؤمنين وغرق الكفار.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١٦)

١٦- عطف على الآية (١٤) والتقدير: وأرسلنا إبراهيم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ في أور كلدان، بالعراق اليوم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده بلا شرك، ولا شركاء تزعمونهم ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ بنبذ عبادة الكواكب من شمس وقمر وغيرها ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في دنياكم وآخرتكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الحقيقة، وليس الأوهام.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١٧)

١٧- ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ هي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء ٢١/٥٧-٦٣]،

﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ كذباً سافراً ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان، ومن الكواكب والنجوم، انظر آيات [الأنعام ٦/٧٦]، ﴿لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ مادياً، ولا روحانياً، ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ المادي، والهداية الروحانية ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ وحده ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ بالقول والعمل ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وتُحاسَبون من ثواب وعقاب.

﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾(١٨)

١٨- ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فلاقوا نتيجة تكذيبهم، جزاءً وفاقاً ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ وليس عليه القسر والإكراه، لأن الإيمان لا يكون إلاّ بالخيار والقناعة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(١٩)

١٩- الآيات (١٩-٢٣) المضمّنة في قصة إبراهيم تحشد البراهين على صدق الرسالة وعلى وجود خالق مُهَيْمِن:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ في كل مظاهر الخلق من حولهم، كالنباتات تموت في الخريف وتحيا في الربيع، وكالحيوانات خلقها تعالى من نطفة، ولم تكن شيئاً مذكوراً، وهذا القدر من العلم كافٍ في حصول العلم بإمكان الإعادة ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق ٥٠/١٥].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢٠)

٢٠- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ واستكشفوا أسرارها بالدراسة وبالبحث العلمي ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ من سلالةٍ من طين، انظر [المؤمنون ٢٣/١٢]، وانظروا الإعجاز، ليس في خلق الأجسام فقط، التي يحار الأطباء في

تركيبها، بل أيضاً ما فيها من العقول والفكر والشعور والغرائز ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ كما بدأ تعالى أوّلَ خلق يعيدُه، انظر [الأنبياء ٢١/١٠٤]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو خالق الأكوان لا يعجزه شيء.

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾(٢١)

٢١- ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بعد النشأة الآخرة يعذّبُ مَن يشاء تعذيبَه من المُنكرين لها ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ رحمتَه وهُم المقرّون بها ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تُرَدّون للحساب.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾(٢٢)

٢٢- ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أن يُجري الله تعالى حكمه وقضاءه عليكم ﴿وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ لا تستطيعون النفاذ من أقطار السماوات والأرض، ومن قضاء الله فيكم ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ فالله وحده متولّي أموركم ﴿وَلا نَصِيرٍ﴾ الله وحده يستطيع نصركم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢٣)

٢٣- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الآفاقية والتكوينية الدالّة على وجوده ووحدانيته، كما آيات الوحي التي نزلت على الرسل ﴿وَلِقَائِهِ﴾ وأنكروا البعث والنشور ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ يئسوا من ألطافه تعالى ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نتيجة إصرارهم على الكفر.

والخلاصة أنّ استعداد الإنسان للإيمان بالخالق هو بذاته نتيجة للألطاف والرحمة الإلهية، وعلى النقيض من ذلك يكون عذاب الآخرة نتيجة طبيعية للمصرّين على الكفر.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢٤)

٢٤- عودة الخطاب إلى الآية (١٨):

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ على دعوته لهم لعبادة الله وحده ﴿إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ بأن جعلها تعالى برداً وسلاماً عليه، انظر [الأنبياء ٢١/٦٩]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ عِبَراً باهرة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بما يمليه عليهم المنطق والعقل السليم.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾(٢٥)

٢٥- ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم لقومه ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ تعبدونها ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مودّةَ بين العَبَدَة لأنهم يُقلّد بعضهم بعضاً في عبادة الأوثان، فتكون سبباً لائتلافهم وتوادّهم، وهذا محض التقليد وإنكار دور العقل ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ تُنكرون بعضكم بعضاً، وما كنتم عليه من الألفة والمودّة والجهالة ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ على النقيض مما كنتم عليه من المودّة ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ تأوون إليها ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ لأنها المصير الطبيعي لأمثالكم من المقلّدين.

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢٦)

٢٦- ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ ابن أخيه ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ إلى حيث أمَرَني ربّي، وإلى حيث لا أحد يمنعني من عبادة ربّي، فهاجرا معاً إلى حرّان شمال بلاد الشام، ومنها إلى فلسطين حيث نزل إبراهيم في قرية من قراها، ونزل لوط في قرية سدوم وهي المؤتفكة على البحر الميت، انظر قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم ٥٣/٥٣]، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿الْحَكِيمُ﴾ جميع أفعاله متصفة بالحكمة، وإن بقيت حكمته أحياناً خافية على معظم الخلق.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٢٧)

٢٧- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ لإبراهيم ﴿إِسْحَاقَ﴾ ابنه الثاني، بعد إسماعيل الذبيح، عليهما السلام ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ الملقّب بإسرائيل، ابن إسحاق ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ﴾ في ذرية إبراهيم ﴿النُّبُوَّةَ﴾ تفرعّت النبوّة في ذرية إبراهيم إلى فرعين الأولى: الأنبياء من ذرية إسحاق، وكان آخرهم عيسى المسيح عليه السلام، آخر أنبياء بني إسرائيل، والثانية: الأنبياء من ذرية إسماعيل وانحدر منهم خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ، انظر شرح آية [البقرة ١٢٢/٢]، ﴿وَالْكِتَابَ﴾ الكتاب اسم جنس للكتب السماوية، والمقصود به الوحي ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ فكان إبراهيم للناس إماماً، أي قدوةً، لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة ١٢٤/٢]، ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في عداد مَن أنعم الله عليهم من الصدّيقين والشهداء.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾(٢٨)

٢٨- عطف على الآية (١٦) والتقدير: وأرسلنا لوطاً: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ وهم أهل سدوم، وهُم قومُه مجازاً لكونه استوطن مجتمعَهم، ونُبّئ عندهم مبعوثاً إليهم خاصةً، ودعاهم إلى الصلاح ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ الفعلة الشاذّة البالغة في القبح، تشمئزّ منها الطباع السليمة، والنفوس الكريمة ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ من ذوي الطباع السليمة.

﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(٢٩)

٢٩- ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ شذوذاً ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ المعتاد مع النساء ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ﴾ مجالسكم ﴿الْمُنْكَرَ﴾ القبيح تفعلونه جهاراً،

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا﴾ ساخرين متهكّمين ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّـهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك أنك نبيّ مرسل.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾(٣٠)

٣٠- ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ بعد أن أيس منهم، ورأى منهم الإصرار على الفساد.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾(٣١)

٣١- ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ بشرى ولادة إسحاق، انظر [هود ٦٩/١١-٧٣]، ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أتبعوا بُشراهم، بخبر ما سوف يحلّ بقرية لوط من الهلاك ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ظلموا أنفسهم بالخروج عن سلامة الفطرة.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾(٣٢)

٣٢- ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ مما سوف يحلّ بالآخرين ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ سوف تبقى مع الهالكين لا محالة، لأنها تميل إلى الشواذ.

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾(٣٣)

٣٣- ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ اعتراه السوء والغمّ خيفة أن يتعرّض لهم قومُه بالسوء كما هي عادتهم مع الغرباء ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم، وذرعه أي طاقته، أي ليس طويل الذراع بما يمكنه من حمايتهم ﴿وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ﴾ إنّا رسلُ ربّك ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ من العذاب الذي سوف يصيبهم ﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الهالكين معهم.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(٣٤)

٣٤- ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ سدوم قرية قوم لوط ﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ وهو العذاب الذي يقلق المعذَّب، انظر أيضاً معنى الرجز في آية [الأعراف ٧/٧١]، وفي هذه الحالة أصابتهم الزلازل التي قلبت قراهم عاليها سافلها، فسمّيت المؤتفكة أي المنقلبة، وغشيهم الغبار البركاني والحمم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بنتيجة خروجهم عن الطريق السوي.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٣٥)

٣٥- ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا﴾ من القرية ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ هي آثار ديارها الخربة بقيت ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(٣٦)

٣٦- ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ لمزيد من التفصيل عنهم انظر شرح آية [الأعراف ٧/٨٥]، ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ ولا تجعلوا الدنيا منتهى أملكم ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لأنهم كانوا يأكلون أموال الناس بالباطل ويبخسون الكيل والميزان، وبعبارة أخرى كان نظامهم الاقتصادي قائماً على الفساد.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(٣٧)

٣٧- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الأرضية، ولا تزال بقايا الحمم البركانية في أراضي الحرّة ماثلة إلى اليوم شاهدة على ذلك، وفي آية [الشعراء ٢٦/١٨٩] أنه أخذهم عذاب يوم الظلة ويبدو أن الرماد البركاني انتشر في الجو كالضباب حاجباً عنهم الشمس ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ هامدين موتى بلا حراك.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾(٣٨)

٣٨- ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ﴾ من الأمم العديدة التي كذّبت رُسُلَها، انظر [الأعراف ٧/٦٥-٧٩]، ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ ما جرى عليهم من الهلاك ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فجعلها تبدو حسنة في نظرهم، واعتدّوا بأخطائهم ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ القويم ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ لم يستفد المكذّبون من مقدرة الاستبصار التي أودعها تعالى في بني آدم، وهي المقدرة على التوصل إلى الحقيقة والتمييز بين الحق والباطل بالدلائل العقلية.

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾(٣٩)

٣٩- ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الآيات الواضحة من معجزات حسية، ومن وحي إلهي ما هو أكثر من كافٍ لغير المكابر ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بقوا مصرّين على العناد والمكابرة، معتدّين بأنفسهم ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ ما كانوا فائتين أمره تعالى، وقد أدركهم أمرُه فعلاً بالنهاية البائسة التي وصلوا إليها.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٤٠)

٤٠- ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ نتيجة طبيعية مترتبة على ذنب كل منهم ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ كقوم عاد ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كثمود ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كما هي حال قارون ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ كفرعون وملئه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ اعتباطاً ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بما اختاروا لأنفسهم من سوء العقيدة والعمل.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(٤١)

٤١- الآيات (٤١-٤٤) تلخص، بشكل رمزي، موقف الأمم البائدة التي سبق ذكرها بالآيات المتقدمة (١٤-٤١)، وتضرب لها مثلاً بيت العنكبوت:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ من الأوثان، والأوهام، والرؤساء المؤلّهين ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ من نسيجها الضعيف، تكمُن فيه، وتصطاد به فرائسها ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ لأنّ الحشرات التي تلوذ ببيت العنكبوت يكون مصيرها الهلاك، فالعنكبوت تفترسها رغم مظهرها الضعيف، وكذا عَبَدَة الأوهام، فإن معبوداتهم الضعيفة توردهم موارد الهلاك ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ مَا يلوذون به من أوهامهم سوف يقضي عليهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٤٢)

٤٢- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ما يدعون مِن دون الله ليس سوى الخيال والوهم ﴿وَهُوَ﴾ الله وحده ذو الوجود الحقيقي ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبير شؤون عباده وإرشادهم.

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾(٤٣)

٤٣- ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ كمَثَل بيت العنكبوت المذكور آنفاً ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ يفقه المغزى منها ﴿إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ الراسخون في العلم، الناظرون المتدبّرون في الآيات.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤٤)

٤٤- ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ وليس عبثاً، بل هنالك مغزى، وهذا المغزى يستتبع الإيمان بالله الواحد، وكل شيء في الخلق ذو معنى، وليس من صدفة في شيء، انظر [الأنبياء ١٨/٢١]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالحكمة الإلهية الخافية على معظم الخلق.

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾(٤٥)

٤٥- ما دام الأمر على النحو المذكور في الآية (٤٤) من وجود مغزى للخلق، فلم يبقَ على المؤمن سوى تلاوة آيات الذكر الحكيم تلاوة فهم وتدبّر، والمواظبة على الصلوات المكتوبة، للتوصل إلى السلوك القويم أولاً، وإلى هذا المغزى ثانياً:

﴿اتْلُ﴾ أيها المؤمن ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ ما فهمتَه، أيها المؤمن، من الوحي القرآني ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾ في مواعيدها ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ يستحيل أن يجتمعا مع الصلاة، وإلاّ كانت الصلاة نفاقاً ورياءً، انظر [الماعون ١٠٧/٥]، ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ من أي شيء من الخيرات، فلا شيء أفضل من ذكر الله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من خير أو شر، فتُحاسبون عليه.

﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٤٦)

٤٦- انتقال الخطاب من واجبات المؤمن تجاه نفسه إلى تحديد واجباته في الدعوة تجاه الآخرين من أهل الكتاب، الآيات (٤٦-٥٥):

﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بأحسن الأساليب، والجدل والنقاش مطلوب من ذوي المؤهلات فقط، وليس أن يتصدّى له كل أحد من الناس ﴿إِلاّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ المصرّون على الظلم من أهل الكتاب لا ينبغي مجادلتهم أصلاً ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من الوحي ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ لا نعبد غيره ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مستسلمون منقادون مذعنون.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاّ الْكَافِرُونَ﴾(٤٧)

٤٧- ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أيها الرسول، وأيها المؤمن، أنزلنا إليك القرآن، وما قبله من الكتب السماوية المقدسة ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ في الخطاب محذوف وتقديره: الذين آتيتهم فهم القرآن والكتب المقدسة من قبله ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أولئك يؤمنون بالقرآن يقيناً ﴿وَمِنْ هَؤُلاءِ﴾ من أهل الكتاب ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ وقت البعثة النبوية، وبعدها على مر العصور، وقد دخلوا الإسلام بعد الفتوحات بأعداد كبيرة جداً ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ جحوداً، فينكرها وهو يعلم صحتها ﴿إِلاَّ الْكَافِرُونَ﴾ المتوغلون في الكفر المصمّمون عليه، وذلك لشدة وضوحها وبيانها بما لا يترك مجالاً للجدال بصحتها.

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾(٤٨)

٤٨- ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو﴾ أيها الرسول ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن ﴿مِنْ كِتَابٍ﴾ مقدس أو غير مقدس، فالنبي كان أمّياً لا يقرأ ﴿وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ ولا تعرف الكتابة ﴿إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ لكان هنالك شك لدى الذين يحاولون إبطال القرآن بشتى الوسائل، وعلى أية حال لم يُعرف في جزيرة العرب، وقت البعثة ولا قبلها، أيّ مركز ثقافي أو ديني يروّج لكتب اليهود والمسيحية، كالعهد القديم والعهد الجديد، ولم تكن هذه الكتب مترجمة للعربية أصلاً.

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾(٤٩)

٤٩- ﴿بَلْ هُوَ﴾ القرآن الكريم ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ واضحات من تلقاء نفسها لا تحتاج إلى برهان ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الذين فهموه وعلموا معانيه ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ فينكرها وهو يعلم صحتها ﴿إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ أنفسهم بخداعها.

﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾(٥٠)

٥٠- ﴿وَقَالُوا﴾ الكفار والسذّج ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يريدون آيات مادية ومعجزات تلمسها أيديهم، كنزول القرآن مكتوباً، وذلك لشدة طفولتهم العقلية، وعجزهم عن استخدام مداركهم الفكرية في تقويم القرآن من حيث جدارته ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ﴾ المادية ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ هو وحده يقرر نزولها إن شاء، إن اقتضت الحكمة والمصلحة ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ لاغير، فليس من وظيفتي احتراح المعجزات.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٥١)

٥١- ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ هولاء الكفار والمكابرون والسُذّج ﴿أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ بما فيه من إعجاز، فأين عقولهم التي كرمهم الله تعالى بها؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في نزول القرآن ﴿لَرَحْمَةً﴾ لأنه معجزة كائنة وباقية في كل زمن وكل مكان ﴿وَذِكْرَى﴾ للناس، يذكّرهم بدين الفطرة، انظر [الأعراف ١٧٢/٧]، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بما يميل إليه العقل السليم، والفطرة السليمة، بخلاف المكابرين المعاندين.

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٥٢)

٥٢- ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ على مصداقية القرآن والوحي، فآياته تشهد على ذاتها بذاتها ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أحاط علمُه القديم بكل شيء ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ رغم الآيات البينات ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ يكونون كَمَن أوصل نفسَه بنفسه إلى الحضيض، إذ استخدم عقله استخداماً سلبياً ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ خسروا أنفسهم، وليس أعظم من خسارة الأنفس.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾(٥٣)

٥٣- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ تهكّماً وتعجيزاً ﴿وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ بإمهالهم، وإعطائهم الفرص للتفكّر والتدبّر في القرآن، وإعطائهم فرص التوبة، رحمةً منه تعالى ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عاجلاً غير آجل، لكنّ الله تعالى أرحم بهم من أنفسهم ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ إذا أصرّوا على الكفر ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بمجيئه، فالموت أقرب بعيد، وليس بعده سوى الحساب.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾(٥٤)

٥٤- ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ تهكّماً وتعجيزاً ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ بالمصرّين على الكفر، لا مناص لهم منها.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٥٥)

٥٥- ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يأتيهم عذاب الآخرة من كل الجهات ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي هذا نتيجة عملكم أوصلكم إلى هذه الحال.

﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾(٥٦)

٥٦- بعد أن حضّت الآيات (٤٦-٥٥) على وجوب الدعوة، تبين الآيات (٥٦-٦٩) أن الدعوة تتطلب الهجرة والأسفار وجهاد النفس وتحمل المشاق: ﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ فلا مبرر أن تتحمّلوا الاضطهاد الديني من قبل أعدائكم، ولا أن يفتنوكم عن دينكم ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ ولا مبرر لحلول وسط في أمور العقيدة مع الكفار.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٥٧)

٥٧- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ سواء في دار الهجرة أو غيرها، فلا تخشوا السفر والهجرة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ للحساب.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(٥٨)

٥٨- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ فلا تضيع أعمالهم سدى.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٥٩)

٥٩- ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الاضطهاد الديني، وعلى مشاق التكليف، وعلى مشاق الهجرة ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ بعد أن يتخذوا للأمور عدّتها.

﴿وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٦٠)

٦٠- ﴿وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ في هجرتها ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ فالله تعالى وحده متولّي شؤون عباده ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعائكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(٦١)

٦١- ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يقرّون بذلك ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ فكيف لهم أن يُصرفوا إلى الشرك وعبادة الأوهام مما فيه تحقير لعقولهم.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٦٢)

٦٢- ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بعلم مصالح عباده، فيبسط الرزق لأناس، ويقدره على آخرين، بغض النظر عن مؤمنهم وكافرهم، وفق حكمته الخافية على الناس.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾(٦٣)

٦٣- ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يقرّون بأنه الخالق ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على وصولهم إلى هذه الدرجة من المعرفة، والحمد لله على إحيائه الأرض بعد موتها ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ مع ذلك، لا يتوصّلون إلى وجوب التوحيد، والإعراض عن الشرك، ويتهالكون على الدنيا، كما سوف تبيّن الآية التالية.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(٦٤)

٦٤- ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ في جنب الآخرة، وهي لهو ولعب للمنهمكين فيها، الذين جعلوها منتهى همّهم وأملهم ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ هي الحياة الحقيقية ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الأمور.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾(٦٥)

٦٥- ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ في السفن، أو في الطائرات، وأشرفت بهم على الخطر ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ تضرّعوا إلى الله تعالى، وحده، من شدة خوفهم طالبين النجاة، لعلمهم أن الله وحده يرفع الشدائد ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ إلى شاطئ الأمان ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ينسون ما كانوا عليه من الخطر، ويعودون إلى عبادة أوهامهم ونزواتهم وشهواتهم، ويتهالكون على دنياهم، وينسون آخرتهم.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(٦٦)

٦٦- ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ بعد نجاتهم يكفرون بما آتاهم الله من نعمه، وينسون استجابته لدعائهم وقت الشدة ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ ويعودون إلى ما كانوا عليه من اللهو واللعب والتمتع بدنياهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ العواقب في وقتها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾(٦٧)

٦٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ كفار قريش ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ يلوذون به آمنين، فلا يجرؤ أحدٌ من العرب على الإغارة عليه، أو الاعتداء على من فيه، مما يحقق لهم الطمأنينة والسلام الداخلي، ومما هو جدير أن يحفزهم للإيمان ببعثة النبي ﷺ ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ تسود الفوضى والاقتتال خارج الحرم بين قبائل العرب ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ يعبدون الأوثان ويتقربون إليها ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ يكفرون بما آتاهم الله تعالى من الأمن والأمان في ديارهم، ومما ساق إليهم من الأرزاق في مواسم الحج والعمرة، ومن ثمّ يكفرون ببعثة النبي ﷺ، كما سوف يرد بالآية التالية:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾(٦٨)

٦٨- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن جعل له شركاء من الأوثان والأوهام ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ كذّب ببعثة النبي أحمد خاتم الأنبياء والرسل ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ نتيجة طبيعية لإصرارهم على الكفر،وعمايتهم عن الهدي الإلهي.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٦٩)

٦٩- ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ في شأننا، وفي سبيلنا، ومن أجلنا، ولوجهنا خالصاً، وليس أكبر من جهاد النفس، أما الجهاد القتالي في القرآن فهو مختص بالدفاع فقط، وليس بالعدوان، والجهاد أيضاً مختصّ بالدعوة إلى الله بالحكمة وبالموعظة الحسنة وبالمجادلة بالتي هي أحسن، لمَن هم أهلٌ لذلك، انظر [النحل ١٦/١٢٥]، والآية (٤٦)، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ هؤلاء نزيدهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقاً لسلوكها، ما يدل أن هنالك أكثر من سبيل للهداية، وأكثر من سبيل لمعرفة الله عزّ وجلّ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يتوخّون الإحسان في كلّ شيء، وفي كل عمل يقومون به، أن يكون على أحسنه.

سورة الروم - ٣٠-

مكية

مقدمة

نزلت في السنة السادسة بعد البعثة كما هو واضح من الإشارة لهزيمة روم بيزنطة على يد الفرس في سنة ٦١٦م أي ست سنوات بعد البعثة، وقد نتج عنها احتلال الفرس للشام ومصر وآسية الصغرى، فلما نزلت النبوءة المذكورة بالآيات (٢-٥) بأن النصر سوف يتحقق للروم بعد ذلك في بضع سنين (أي خلال ٣-٩ سنوات) قابلها مشركو قريش بالتهكم وبالازدراء، وكانوا قبلها يعيّرون المسلمين بأن مجوس الفرس انتصروا على أهل الكتاب، ثمّ في العام ٦٢٢م تمكن الروم من هزيمة الفرس في معركة إيسّس Issus فأخرجوهم من آسية الصغرى، وفي العام ٦٢٤م نقلوا المعركة إلى قلب فارس، وتزامن ذلك في الجزيرة العربية مع وقعة بدر وهو ما تشير له الآية (٥) عندما يفرح المؤمنون.

ارتباط السورة بما قبلها

في أواخر سورة العنكبوت المتقدمة أن الحياة الدنيا لهو ولعب وأن حياة الآخرة هي الحياة الحقيقية: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٤/٢٩)، وفي سورة الروم أنّ الكفار مغترّون بظاهر الحياة الدنيا وغافلون عن حقيقة الدنيا والآخرة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (٧/٣٠).

وفي سورة العنكبوت أن القرآن الكريم أكثر من كافٍ لهداية ذوي العقول النيّرة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً

وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥١/٢٩)، ثمّ في سورة الروم أنّ الكفار يحاولون إبطال القرآن بشتّى الوسائل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ﴾ (٥٨/٣٠).

محور السورة

أغلب الناس مغترّون بظاهر الحياة الدنيا غافلون عن حقيقتها ومغزاها وعن حقيقة الحياة الآخرة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (٧)، وأنّ علاج الغفلة ذكْرُ الله على الدوام: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (١٧-١٨)، والالتزام بدين الفطرة دون تبديل ولا إفساد: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠).

وقرن القول بالعمل بما فيه من إيتاء الصدقات والزكاة لمستحقّيها وتجنب الربا الفاحش: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (٣٨-٣٩).

وبخلاف ذلك فإن الفساد يظهر في البر والبحر بنتيجة منع الخير والتهالك على المادة عند الذين يعدُّون النجاح الاقتصادي المادي معياراً وحيداً للنجاح، فتفسد البيئة الطبيعية من بر وبحر بنتيجة النفايات والمخلفات والتلوث، كما تفسد الأخلاق: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١)، فلا يفيق الغافلون من غفلتهم إلا عند وقوع الساعة فيكذبون على أنفسهم بأن لبثهم في الدنيا كان قصيراً لدرجة

أن لم تتح لهم فرصة الإصلاح والتوبة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٥٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم﴾(١)

١- ﴿الم﴾ الله أعلم بمراده، انظر [البقرة ٢/١].

﴿غُلِبَتْ الرُّومُ﴾(٢)

٢- ﴿غُلِبَتْ الرُّومُ﴾ انهزم روم بيزنطة على يد الفرس سنة ٦١٦م، انظر المقدمة.

﴿فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾(٣)

٣- ﴿فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ من جهة بلاد العرب ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ بعد انهزامهم ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ سوف يغلبون الفرس.

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٤)

٤- ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ سوف تكون غلبة الروم على الفرس في بضع سنين، أي خلال (٣-٩) سنين ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ بيده تعالى مقاليد الأمور في كل الأوقات والعصور ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ في ذلك اليوم، أي يوم وقعة بدر، التي تزامنت مع انتصار الروم على الفرس ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يفرح المسلمون بنصرهم على كفار قريش، وفي حين أن وقعة بدر انتهت في يوم واحد، فإن نصر روم بيزنطة على الفرس استغرق بضع سنوات، انظر المقدمة.

﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(٥)

٥- ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ يفرح المؤمنون بنصر الله، إذ نصَرَهم الله تعالى على كفار قريش في بدر ﴿يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ نصْرَه، على قاعدة ﴿إن تنصروا الله

ينصركم﴾، انظر [محمد ٤٧/٧]، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده، مؤمنهم وكافرهم.

﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(٦)

٦- ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصر المسلمين في بدر، ونصر الروم على الفرس ﴿لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لا محالة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الأمور، وإنما يعلمون ظاهرها فقط.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(٧)

٧- ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولا يعلمون أقل القليل من الغيب ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ﴾ عن حقيقتها ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ النتيجة أنهم غافلون عن حقيقة الدنيا، وحقيقة الآخرة.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾(٨)

٨- بعد أن أوجزت الآيات (١-٧) تحقق النبوءات في نصر روم بيزنطة من جهة، ونصر المسلمين في بدر من جهة أخرى، وأن أكثر الناس مغترّون بالظاهر من الأمور، ينتقل الخطاب بالآيات (٨-١٩) إلى وجوب أخذ العبر من تاريخ الأمم السابقة وأسباب انحطاطها وسقوطها، والتفكر في مغزى الخلق وعاقبة الإيمان والكفر:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يتفكّروا لمصلحتهم، لأنّ التفكّر مفيد لهم ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ ليدركوا بنتيجة التفكّر أنّ الخلق ذو مغزى وليس عبثاً ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ المخلوقات تنتهي في الزمان والمكان لكنّ الخالق لا أوّل له ولا آخر ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ منكرون للآخرة بسبب عمايتهم، فهم إمّا من غير المفكّرين، أو من ذوي التفكير المنحرف.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٩)

٩- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ فيدرسوا تاريخ مَن سبقهم من الأمم ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ويدرسوا العواقب التي انتهت إليها، وأسباب نشوء الحضارات ثم انحطاطها وسقوطها ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فلم تغنهم شيئاً ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ في حضارات أعظم من حضاراتهم ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فأنكروا الرسل وكذّبوا الرسالات ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بعد أن حباهم كل هذه النعم الدنيوية، وأتبعها بالهدي الإلهي ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالجحود والاستكبار.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾(١٠)

١٠- ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى﴾ بمقتضى سننه تعالى في الخلق أنّ السيئات تحيق بأصحابها، والسوءى تعني العقوبة السوءى، وهي تأنيث الأسوأ ﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بنتيجة التكذيب والاستهزاء بالآيات، وذلك ناتج من العناد والمكابرة والاستكبار.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١١)

١١- ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ للبعث والنشور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾(١٢)

١٢- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يصبحون في منتهى اليأس.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾(١٣)

١٣- ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ من الزعماء والقادة الذين أضلّوهم ﴿شُفَعَاءُ﴾ ظنّوا فيهم الشفاعة ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ بعد أن كانوا تابعين لهم تبعية عمياء في دنياهم.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾(١٤)

١٤- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ إلى مؤمنين وكفار.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾(١٥)

١٥- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الذين صدّقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ الحبر السرور، أي هم في الجنة في منتهى السرور.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾(١٦)

١٦- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ الذين اعتقدوا الدنيا نهاية المطاف ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ تفكيرهم المنحرف في دنياهم، وإصرارهم على الكفر، أدّيا بهم إلى هذا المصير.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾(١٧)

١٧- ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزيهاً له تعالى عن كل نقص وسوء، وعلى تحقق العدالة في الآخرة، ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ على الدوام.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾(١٨)

١٨- المغزى؛ اذكروا الله في كل الأوقات:

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو مستحقّ الحمد على إيجاده الخلق وعلى نعمائه ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ قالوا: إنّ في الآيتين (١٧-١٨) دلالة على الصلوات الخمس المفروضة، حين تمسون: صلاة المغرب، وعشيّاً: صلاة

العشاء، وحين تصبحون: صلاة الصبح، وحين تُظهرون: صلاة الظهر، ثم العصر.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(١٩)

١٩- ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كخلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، انظر [الإنسان ١/٧٦]، ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ بوفاته ﴿وَيُحْيِي الأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعد أن كانت قاحلة ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من موتكم للبعث والنشور والحساب.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾(٢٠)

٢٠- بعد أن أشارت الآيات المتقدمة إلى مغزى الخلق ينتقل الخطاب بالآيات (٢٠-٢٥) لبيان بعض الآيات الآفاقية:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ من سلالة من طين، انظر [المؤمنون ١٢/٢٣]، كما الجسم مخلوق من المواد العضوية الموجودة في التراب ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ في دنياكم تتصرّفون بها، وتتمتّعون بالفكر والعقل والغرائز في هذا الجسم المادي المخلوق من التراب، وما في ذلك من إعجاز يذهل عنه معظم الناس.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢١)

٢١- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ لأنّ المرأة زوج الرجل، كما الرجل زوج المرأة، والجنس البشري كلّه من نفس واحدة ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ الرجل والمرأة كلّ منهما يلقى السكينة عند الآخر ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ بين الزوجين ﴿مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بالزواج الذي شرّعه لكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ إشارات وعِبَراً ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الذين يُمعنون الفكر في هذه

الأحوال ممّا يعده الآخرون، غير المفكّرين، مسلّمات وبدهيات، غافلين عمّا تتضمّنه من إعجاز.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾(٢٢)

٢٢- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وما فيهما من إعجاز هائل يكتشفه العلماء والفلكيون كل يوم ﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ اللغات المختلفة التي تتكلمون وتتفاهمون بها، واختلافها باختلاف الشعوب والأمم ﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ باختلاف المناطق التي أنتم تقطنونها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ معجزات باهرات ﴿لِلْعَالِمِينَ﴾ للناس كلّهم.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾(٢٣)

٢٣- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ﴾ نومكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ لراحة الجسم والفكر ﴿وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالليل والنهار طلباً للرزق، الذي هو من فضله تعالى، والمغزى ألا ينسب المرء ما يكسبه من الرزق إلى حذاقته وحدارته لا غير، وينسى مسبّب الأسباب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ لديهم قابلية للسماع، سماع تفهّم واستبصار.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٢٤)

٢٤- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ تخافون الصواعق والعواصف ﴿وَطَمَعًا﴾ وتطمعون في نزول المطر ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بإنبات النبات بعد أن كانت أراضيَ قاحلة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في استنباط الأسباب، وكيفية تكوّن المطر وهطوله، وما في ذلك من إعجاز مذهل.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾(٢٥)

٢٥- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ جميع الأكوان تستمد وجودها منه، فلا وجود حقيقياً لها بذاتها ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ﴾ يوم القيامة ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ للنشور والحساب في الآخرة.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾(٢٦)

٢٦- الآيات (٢٦-٢٩) تفيد التفرد بالألوهية وصفتها، واستحالة الشرك والشركاء:

﴿وَلَهُ﴾ وحده ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من المخلوقات العاقلة وغير العاقلة ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ خاضعون منقادون له طوعاً أو كرهاً، ويستمدّون وجودهم منه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢٧)

٢٧- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ أول مرّة، من أكوان ومن مخلوقات حيّة وجمادات ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يوم القيامة ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ لا يعجزه شيء ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ له الوصف العجيب المذهل الذي خارج التصور البشري لتعريف الإله، فليس لغيره ما يدانيه، وليس كمثله شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿لا إله إلاّ الله﴾ [محمد ١٩/٤٧]، فليس من وجود حقيقي إلاّ هو ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادر على كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ تجري أفعاله وفق سنن الحكمة والمصلحة التي قد يخفى الكثير منها على الخلق.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٢٨)

٢٨- ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد والإماء والخدم ﴿مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ هل تقبلون أن تكونوا معهم شركاء على قدم المساواة في الرزق والممتلكات ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ فيصيروا متساوين معكم في المستوى الاجتماعي ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ الرسالات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستفيدون من عقولهم، والمغزى؛ ما دام الأمر على هذا النحو، فكيف تجرؤون على نسب شركاء إلى الله تعالى، مع أنّ هؤلاء الشركاء المزعومين ليسوا سوى مخلوقاته؟

﴿بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾(٢٩)

٢٩- ﴿بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالشرك، متوهّمين الشفاعة أو الوساطة بين الشركاء المزعومين وبين الله عزّ وجلّ، مما يدلّ أنهم لا يعرفون الله حق المعرفة، خاصة إحاطته بكل شيء وجوداً وعلماً ﴿أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ اتّبعوا الهوى بغير علم يقيني ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ الله تعالى لا يجبر الناس على الهدى، بل يخلّيهم لأنفسهم وما منحهم من العقول والفطرة السليمة ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ غير الله.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(٣٠)

٣٠- ما دام الأمر على النحو المذكور آنفاً: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أيها الإنسان، وإقامة الوجه للدين حنيفاً كناية عن التوجّه بالكامل والاستسلام لدين الفطرة بلا انحراف ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ في خلقهم، كما في الحديث: ((كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه))، والمقصود أنّ المولود يولد على فطرة الإسلام، ثم المجتمع قد يفسد فطرته ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ إلاّ بفساد الفطرة ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ دين

الاستسلام والإذعان لله تعالى، بإقامة الوجه للدين بلا انحراف ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ من الكفار ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقيقة.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٣١)

٣١- ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه تعالى، دعوا إذن كلّ ما هو باطل، وتوجّهوا أيها الناس إلى الله تعالى وحده ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ بمعرفته حق المعرفة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ له وحده ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فتبطل أعمالكم.

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(٣٢)

٣٢- ولا تكونوا: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ باختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم، أو اختلاف عقائدهم مع اتحادهم في عبادة الله، والإشارة إلى اليهود والمسيحية أولاً، ثمّ هي تطال المسلمين ثانياً ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ فرقاً ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ طائفة منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ يعتقدون أنهم محتكرون للحقيقة.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾(٣٣)

٣٣- وهذه من غرائب سلوك الإنسان وتناقضه، الآيات (٣٣-٣٧):

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ﴾ وحده ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه دون غيره ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ مستجيباً لدعائهم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ من الذين تأصّل الشرك فيهم ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يعودون إلى ما كانوا عليه من الشرك بعد نجاتهم من الضرّ.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(٣٤)

٣٤- ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ اللام لام العاقبة، فتكون النتيجة أنهم كفروا، بعد ما آتاهم الله تعالى من الرحمة ومن كشف الضرّ عنهم ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ قليلاً بدنياكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عواقب شرككم في وقته.

﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾(٣٥)

٣٥- ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في الوحي ﴿سُلْطَانًا﴾ حجّةً وبرهاناً ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ يؤيّد شركهم؟ والجواب بالنفي، والمعنى على أي شيء يستندون في دعواهم؟ سوى الوهم.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾(٣٦)

٣٦- ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ من نعمة وصحة ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ فرح البطر ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وفق سننه تعالى في خلقه ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ من رحمة الله، لمزيد من التفصيل انظر شرح [النساء ٤/٧٨-٧٩].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣٧)

٣٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بوفرة ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيّقه على من يشاء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ رسالات وعِبَراً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالسنن التي جعلها تعالى في الخلق، وارتباط الآية بما قبلها إنكار فرحهم وبطرهم في حال الرخاء، وإنكار قنوطهم في حال الشدّة.

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣٨)

٣٨- ﴿فَآتِ﴾ أيها المؤمن، أو أيها السامع ﴿ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ من الصدقات والمعونات، فهو حقّ له وليس تفضّلاً ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أعطهم حقّهم أيضاً ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ فمَن بسط الله له رزقه لا ينقص بالإنفاق، ومَن قدَرَ عليه رزقه لا يزداد بالإمساك ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لأنهم أنفقوا من المال الفاني، في مقابل الثواب الدائم.

﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾(٣٩)

٣٩- وعلى النقيض من إعطاء الصدقات والمعونات، هنالك مَن يأكل الربا:

﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا﴾ ما حتتم به من ربا ﴿لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ ليزيد في أموال المرابين ﴿فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾ بل على النقيض من ذلك، يمحقُ الله الربا فلا يبارك به، ويُربي الصدقات، انظر [البقرة ٢/٢٧٦]، ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ﴾ ما أعطيتم مِن الزكاة، ومن الصدقات غير الزكاة المفروضة ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وليس منّةً، ولا رئاءَ الناس ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ الذين تتضاعف أموالهم وحسناتهم، انظر [البقرة ٢/٢٦١]، وفي حين أن القرآن الكريم يحرّم بتاتاً كلّ زيادة غير مشروعة على القروض التي قد يقرضها طرف لآخر لأي غرض من الأغراض، ويطلق على الزيادة اسم الربا، فالقرآن لم يتطرّق إلى الفرق بين المواد العينية المقترَضة، وبين قيمتها المتغيّرة من النقود.

وحتى الآن لم يتمكن علماء المسلمين من التوصل إلى إجماع مطلق حول تعريف الربا ضمن المتغيرات الاقتصادية الحديثة، وضمن النظريات والمعطيات الاقتصادية المتغيرة باستمرار، وخاصة تعريف الربا في مقابل تعريف نسب الفوائد المصرفية، ونسب التضخم السنوية في قيمة النقود الورقية، وهل المقصود بالربا اليوم (الربا الفاحش) الذي تفوق نسبتُه نسبَ التضخم النقدية قليلاً أو كثيراً؟ أو تفوق نسب الفوائد المصرفية المفترض أنها تعوّض التضخّم؟ وهذا جزء من التحدّي الكبير الذي يواجه علماء المسلمين من الاقتصاديين لحل هذا الإشكال في العصر الحاضر.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٤٠)

٤٠- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ بيان الرزق بعد الخلق بالدرجة الأولى يأتي بعد أنْ أوجبت الآيات (٣٧-٣٩) الزكاة والصدقات، ونهت عن الربا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بحلول آجالكم الدنيوية ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يبعثكم يوم القيامة ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ بل لا يقدرون على أي

شيء من ذلك ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ تنزيهاً له ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من شركاء الزيف والوهم.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٤١)

٤١- وبسبب عماية البشر عن فحوى الآيات (٣٧-٤٠) فقد ظهر الفساد:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ من التهافت على جمع الأموال، والربا الفاحش، ومعايرة الأمور بما يسمونه النمو الاقتصادي مقياساً وحيداً ومطلقاً لتقدم المجتمعات، وهو مقياس مادي بحت تسبّبَ عنه خراب البيئة الطبيعية في معظم البلدان، فتلوّث الهواء، وتلوّثت مياه الأنهار والبحار، وتلوّثت الأراضي، وازداد التلوّث النووي، وتكرّرت كوارث البيئة، ونقصت مساحة الغابات في العالم بشكل مريع، وانقرض الكثير من فصائل الكائنات الحية الضرورية لمعيشة البشر، وبعضها الآخر قارب الانقراض، وما تبع ذلك من تدهور الصحة وحدوث التشوهات الخلقية وغير الخلقية في أجسام البشر وأجسام الحيوانات بسبب أنظمة التغذية المصطنعة، يضاف إلى كل ذلك التدهور في القيم الأخلاقية للكثير من المجتمعات، بل تفكك عرى المجتمع، والانفلات الجنسي بلا أي رادع ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ نتيجة طبيعية لما كسبته أيديهم من الفساد والإفساد، لأنّ اللام لام العاقبة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى رشدهم وإلى الصواب.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾(٤٢)

٤٢- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وادرسوا تاريخ الأمم من قبلكم، تفادياً للفساد الذي حلّ بكم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ ما آلت إليه عاقبتهم من الاضمحلال والسقوط ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ كانوا يعبدون

المادة والسلطة والأهواء والنزوات، وغابت عنهم القيم الروحانية والأخلاقية، ما أدّى إلى خرابهم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾(٤٣)

٤٣- ما دام الأمر على ما ذَكَرَتْه الآيات (٣٩-٤٢) فلا بد من الاعتصام بالإسلام، انظر أيضاً الآية (٣٠):

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أيها الإنسان ﴿لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ دين الاستسلام لله، والإذعان لقِيَمِه الصحيحة ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ إمّا بحلول الأجل الدنيوي للمرء، أو بمجيء القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ يتصدّعون، والمعنى يتفرّق الناس بحسب ما كانوا عليه من العقائد والأعمال المختلفة، ويكون حسابهم جزاء وفاقاً نتيجة طبيعية واستمرارية لما كانوا عليه في الدنيا.

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾(٤٤)

٤٤- بعد أن حثّت الآية المتقدمة الإنسان على اتّباع الدين القيّم، تبيّن هذه الآية عاقبة مَن يكفر وعاقبة مَن يستجيب:

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ يعود وبال كفره عليه ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ وحدهم يستفيدون من عملهم الصالح بانعكاسه عليهم إيجاباً في آخرتهم، فكأنهم يمهّدون آخرتهم بعملهم الصالح.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾(٤٥)

٤٥- ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ تفضّلاً منه ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ منكري الحقيقة، ينالهم العقاب نتيجةَ إصرارهم على الإنكار.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٤٦)

٤٦- مزيد من تفصيل الآيات وإثبات الألوهية والتوحيد:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ بالمطر ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ فتنمو الزروع والمحاصيل ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ في البحار ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤٧)

٤٧- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ أيها النبي ﴿رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ كما جئتَ أنتَ بها إلى قومك ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ وأصرّوا على الكفر ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين استجابوا للرسل.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(٤٨)

٤٨- ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ قد تكون رياح الأمل للعباد القانطين ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ قطعاً ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ من خلال السحاب، وفي المجاز قد تكون لهذه الآية دلالة رمزية على الحياة الروحانية، والباعث فيها على الأمل، بالإضافة لمعناها الظاهر ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ بالمطر ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ تنتعش أرواحهم.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾(٤٩)

٤٩- ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ في غاية اليأس والقنوط.

﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٥٠)

٥٠- ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ على العابد ﴿كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعد أن كانت قاحلة بلا نبات، أو بعد الشتاء والجمود ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ يوم البعث ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنه أيضاً يحيي موتى القلوب، فيهدي مَن لديه القابلية للهداية.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾(٥١)

٥١- ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ حارّة ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ رأوا بساتينهم ومحصولاتهم الزراعية مصفرّة محترقة بسبب الرياح الحارقة ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ بما سبق لهم من نعم الله، إذ يريدون أن تسير الأمور على هواهم، ناسين سنن الله تعالى في الأسباب والمسبَّبات، وتوسط هذه الآية بين سابقتها وما بعدها فيه إشارة لكون الخطاب مجازاً عن إحياء النفوس التي ماتت بالكفر، والنفوس المصرّة على الكفر:

﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾(٥٢)

٥٢- ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ لا سبيل إلى إسماع موتى القلوب والعقول الذين أغلقوا عقولهم سلفاً عن سماع الدعوة ﴿وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ الذين أغلقوا أسماعهم سلفاً عن السماع سماع ذهن مفتوح ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ عن دعوتك لهم، أيها النبي، أو أيها المؤمن.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾(٥٣)

٥٣- ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ﴾ ولا سبيل لهداية عمي القلوب أيضاً، لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج ٢٢/٤٦]، ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ الذين عندهم قابلية للسمع بذهن مفتوح غير متشنّج على التقليد، فهؤلاء يؤمنون، بخلاف منغلقي الذهن فلا طائل منهم ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يسلمون وجوههم لله تعالى.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾(٥٤)

٥٤- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ في طفولتكم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ في شبابكم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ في كهولتكم ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ بحسب الحكمة ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ العليم بالمصالح ﴿الْقَدِيرُ﴾ يخلق ما يشاء، بقدر ما يشاء.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾(٥٥)

٥٥- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يوم القيامة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ يغيب عنهم مفهوم الزمن الحقيقي، والآية تبرز نسبية الزمن، وإن فترة لبث الإنسان في الدنيا في منتهى القصر بالمقارنة مع طول اللبث في الآخرة ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ يُصرَفون عن الحقيقة، لأنهم يريدون إقناع أنفسهم أن فترة اللبث في الدنيا كانت قصيرة جداً لدرجة لم تسمح لهم بالتوبة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(٥٦)

٥٦- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الذين فهموا علم الكتاب -القرآن- وأيقنوا به ﴿وَالإِيمَانَ﴾ وأُوتوا الإيمان اليقيني ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في علم الله القديم الشامل ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ القيامة ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ لم تكونوا تريدون العلم، بل رفضتموه في عقلكم الباطن، تهرباً من الشعور بالمسؤولية وتهرباً من الحساب.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾(٥٧)

٥٧- ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم في دنياهم، ولم يتوبوا فيها، بل أنكروا آخرتهم ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لا تنفعهم الأعذار بعد الفوات ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يُطلب منهم الاعتذار.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ﴾(٥٨)

٥٨- ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ تمثيلاً لما غاب عنهم من علم الغيب بما يعرفون من المحسوس ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ برسالة من ربهم ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المتشنّجون المصرّون على الكفر ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ﴾ تدّعون أموراً باطلة.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾(٥٩)

٥٩- ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ الذين لا يريدون العلم يمنعهم تعالى من توفيقه وألطافه، ويخلّيهم لأنفسهم، انظر [البقرة ٢/٧].

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾(٦٠)

٦٠- ﴿فَاصْبِرْ﴾ عليهم أيها المؤمن ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا بد من تحقق العدالة في الآخرة على أكمل وجه ﴿وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ لا يستفزّونك ولا يجعلونك خفيف التفكير ﴿الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ لا يوقنون بالآخرة.

سورة لقمان -٣١-

مكية

مقدمة

نزلت في أواسط الفترة المكية، واشتق اسمها من ذكر لقمان بالآيات (١٢-١٣) وهو حكيم عربي قديم.

ارتباط السورة بما قبلها

اختتمت سورة الروم بأن الكفار يحاولون إبطال القرآن بشتى الوسائل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ﴾ (٥٨/٣٠)، وفي سورة لقمان أن المستكبرين من الناس مَن يتلاعب بأفكار فلسفية زائفة يحاول إقناع الآخرين بها بهدف الصدّ عن القرآن: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٦/٣١).

محور السورة

القرآن الكريم هدى ورحمة للذين يحسنون استخدام مداركهم العقلية: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (٣)، ومن ثم فإنّ شكر الله لا يقتصر على القول، ولكن يتجاوزه إلى العمل، ما يعود مردوده على المرء نفسه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (١٢).

لكن الاستكبار والاعتداد بالنفس يقف حائلاً بين المرء وبين رؤيته الحقيقة: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٧)، ما يوجب الانعتاق من الفكر المتحجّر المتوارث إن كان يخالف العقل، كما في وصايا لقمان لابنه: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٥)، وسبيل ذلك تجنب الاستكبار والإعجاب بالنفس: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٨-١٩)، وتجنب التقليد الأعمى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢١).

وأن علم الله القديم وحكمته وآياته في عالم المشاهدة وعالم الغيب لا مُتَناهٍ ويستحيل أن تحيط به الكتب: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٧).

ولذا وجب حسم الأمور، واغتنام الفرصة قبل فوات الأوان: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (٣٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم﴾(١)

١- ﴿الم﴾ الله أعلم بمراده، انظر [البقرة ٢/١].

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾(٢)

٢- ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ الكتاب الحكيم هو القرآن، وهو حكيم من عدة وجوه: لأنه الكتاب المشتمل على الحكمة، والحكيم أيضاً بمعنى الحاكم -فعيل بمعنى فاعل- فهو يحكم بالحق، ويميز بين الاعتقادات الصحيحة والباطلة،

والأعمال صوابها من خطئها، ويحكم بصدق النبوّة، والحكيم أيضاً بمعنى المُحكَم الذي لا يتطرق إليه الخلل ولا التناقض، لأنّ القرآن في منتهى الإحكام والإتقان، كما أنّه مُحكم لا يُنسخ منه شيء بخلاف الرسالات السابقة التي نُسخت، راجع آية [البقرة ١٠٦/٢].

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾(٣)

٣- القرآن أيضاً ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يحسنون استخدام إمكاناتهم ومداركهم العقلية، ويستفيدون منها، فيكون فهم القرآن الكريم هدى لهم من جهة، كما هو رحمة لهم من الله تعالى في الدنيا والآخرة.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(٤)

٤- ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ تصديقاً لإيمانهم، وما يترتّب عليه من تكليف ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ إنّ الدنيا ليست نهاية المطاف، بل هي مرحلة أولى وجيزة، تتبعها الآخرة.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٥)

٥- ﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون ﴿عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ باتّباعهم آيات الكتاب الحكيم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في التوصّل إلى عاقبة سعيدة في الدنيا وفي الآخرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(٦)

٦- ومع ذلك: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ شريحة من الناس المصمّمين على الكفر، وهم على النقيض من المذكورين بالآيات (٣-٥)، ﴿مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ يبتدعون وينشرون كلاماً لا طائل منه سوى الضلال والإضلال، كالنظريات الفلسفية في خلق الكون والإنسان، والسفسطة، بعيداً عن هدي القرآن الذي هو أحسن الحديث، انظر [الزمر ٢٣/٣٩]، ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بهدف

إضلال الناس عن الطريق السوي ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يقيني، وإنما باتباع الظن والتقليد ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ يتخذ سبيل الله والآيات القرآنية مجالاً للهزء تنفيراً للناس منها، وإمعاناً في الضلال ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وأمثال هؤلاء الناس موجودون في كل العصور، وليسوا مقتصرين على كفار مكة.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٧)

٧- ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ من الناس المذكورين أعلاه ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ الوقر المانع من السماع، فقد أصمَّ الاستكبار أذنيه عن سماع الحقيقة ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يتناسب مع ما اختار لنفسه من الاستكبار، والضلال والإضلال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾(٨) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٩)

٨-٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ بخلاف المذكورين آنفاً بالآية (٧)،

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾(١٠)

١٠- بعد أن ذكرت الآيات (١-٩) أن القرآن مشتمل على الحكمة بما يكفي لإيمان المحسنين، بخلاف المستكبرين الذين يشترون لهو الحديث، تبين الآيتان (١٠-١١) من الإعجاز في خلق الأكوان ما لا يترك مجالاً لغير الإيمان بخالق واحد، وإبطال كلام المُبطلين:

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ المعنى هنالك عَمَد لا ترونها، وهي قوانين الفيزياء التي أوجدها تعالى، وبموجبها يسير النظام الكوني ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي لئلاً تميد الأرض وتهتز بكم،

فالجبال تساعد على توازن القشرة الأرضية ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أنواعاً كثيرة ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ المطر ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ من كل جنس، لأنّ كلاً منها مشتمل على عناصر التذكير والتأنيث ﴿كَرِيمٍ﴾ كثيرة النفع من النباتات، والتغير في الضمائر من الغائب إلى الحاضر في اسم الجلالة، كما هي العادة في تغيير الضمائر في الكثير من الآيات، يفيد أن الله تعالى ليس كمثله شيء، لا تحيط به الضمائر التي تستخدم للبشر.

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(١١)

١١- ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ بما فيه من إعجاز وآيات باهرات ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ ممّن تشركون ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ المشركون الذين يعتقدون الألوهية في غير الله تعالى ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أمام هذا الإعجاز.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(١٢)

١٢- بعد مقدّمة الآيات (١-١١) ينتقل الخطاب إلى ذكر نصائح لقمان لابنه، الآيات (١٢-١٩)، ولقمان: حكيم قديم عند العرب، ورد ذكرُه قبل الإسلام في قصيدة للنابغة الذبياني.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ يعود نفع الشكر على صاحبه، كما الجحود ينعكس عليه سلباً ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن العالمين، غير محتاج للشكر، ولا يتضرر بجحود جاحد ﴿حَمِيدٌ﴾ جدير بالحمد وإن لم يحمده حامد.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(١٣)

١٣- ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأن الإنسان يظلم نفسه بالشرك، بالنظر لما في الشرك من تحقير لصاحبه إذ يُخضع نفسَه للأوهام والزيف والزعامات، وما في ذلك من إهانة للعقل السليم، والشخصية السليمة.

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾(١٤)

١٤- قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ حُسناً ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ ضعفاً على ضعف، فهو ضعيف وهي ضعيفة، ويزداد ضعفُها ضعفاً بازدياد الحمل ﴿وَفِصَالُهُ﴾ فطامه وترك إرضاعه ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ في انقضاء عامين على رضاعه، وقيل أيضاً: هي الفترة الإجمالية التي تبدأ بالحمل وتنتهي بالفطام، أي هي فترة اعتماد الطفل على والدته اعتماداً كلّياً ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ جعَلَ الله تعالى شكر الوالدين بعد شكره، إذ بعد أن خلقَه جعل الوالدين السبب المباشر لوجوده ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ فأحاسبكم على برّ الوالدين أو عقوقهم.

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١٥)

١٥- ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ من الزيف والأوهام ﴿فَلا تُطِعْهُمَا﴾ ولا تحقّر نفسك بالشرك، ولا تهمل عقلك وتفكيرك المستقل ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ بما يرتضيه الشرع ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ رَجع إلى الله بالتوبة والإخلاص والتوحيد ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيُجازى كلٌّ بحسب عمله.

﴿يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(١٦)

١٦- عودة الخطاب إلى لقمان لابنه: ﴿يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ﴾ الخصلة الحسنة أو السيئة ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ إشارة إلى أنها في غاية الصغر ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ محجوبة بها ﴿أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ في غاية البعد ﴿أَوْ فِي الأَرْضِ﴾ في ظلمات الأرض ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ يُحضرها فيحاسب عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمُه إلى كلّ خفيّ ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه.

﴿يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾(١٧)

١٧- ﴿يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ لأنّ الإيمان يستوجب التكليف ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المعروف في موافقته للفطرة السليمة، وفي المجتمع أنه حسَن ﴿وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ ما تنكره الفطرة السليمة، وينكره المجتمع ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ من الشدائد ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ من الأمور الواجبة.

﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(١٨)

١٨- ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تُمِل خدّك عن الناس تكبّراً ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ متبختراً من الخيلاء ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ المتكبّر المختال.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(١٩)

١٩- ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ لا يكن مشي المُتماوت، ولا مشي المتجبّر، بل وسطاً بينهما ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ انقص منه ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ لشدة حدّتها وارتفاعها، والخلاصة أن لقمان أمر ابنه بالاعتدال.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾(٢٠)

٢٠- بعد انتهاء وصايا لقمان لابنه، عودة إلى الآية (١٠):

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ مكّنكم من الاستفادة منهما بما أودع فيكم من العقول، وما استنبطتم بها من العلوم ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً﴾ من النعم المادية ﴿وَبَاطِنَةً﴾ من النعم الروحانية، كهدي القرآن ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ مع ذلك، ومع كلّ هذا الإعجاز البيِّن، هنالك ﴿مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ في توحيده، بل في وجوده ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يقيني، ولا مستفاد من دليل عقلي، بل مجرّد جدل ظنّي ﴿وَلا هُدًى﴾ مستفاد من الوحي ﴿وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ولا هو مبني على القرآن.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾(٢١)

٢١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ للمُجادلين بغير علم ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من الوحي والهدى ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ يعبدون ويعتقدون ما عبدَ واعتقدَ الآباء بلا تغيير، في ظلم واضح لعقولهم، من حيث عدوا عقول الآباء خيراً من عقولهم ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ ويدعو آباءهم ﴿إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ لأنّه يأمرهم بالتقليد، وبتعطيل عقولهم عن التفكير وعن تدبّر القرآن.

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾(٢٢)

٢٢- ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ كناية عن تفويض الأمر إلى الله، والإقبال عليه بالكليّة قلباً وقالباً، لأن الوجه هو الذات ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في أعماله ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي تعلّقَ أتمّ التعلّق بأوثق ما يمكن التعلّق به من الأسباب، فلا يقع في هاوية الكفر والضلال، وهذا تشبيه تمثيلي لمَن أسلمَ وجهه لله وهو محسن في أعماله ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ تصير إليه، لا إلى غيره.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(٢٣)

٢٣- ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ فقد اختار لنفسه الباطل، ولا عليك قسره ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ للحساب ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ حتى يتبيّن لهم الصواب من الخطأ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بمن تميل به جبلّته إلى الإيمان، ومَن تميل به جبلّته إلى الإنكار بمحض اختياره.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾(٢٤)

٢٤- ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ في دنياهم لعلهم يتوبون ويتّعظون ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ إن لم يتوبوا، والاضطرار إلى العذاب لأنّه مرتبط بالكفر والجحود ارتباط السبب بالمسبّب.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(٢٥)

٢٥- ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يقولون ذلك بلا تفكير ولا تمعّن، بل هي استجابة عفوية منهم دون الإقرار بالتوحيد، ودون الإقرار بأنّ الله تعالى وحده الخالق ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إقرارهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون ما يترتّب على إقرارهم من نفي الشرك والشركاء المزعومين.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(٢٦)

٢٦- ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وحده لا شريك له ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن حمد الحامدين ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق الحمد لذاته، سواء حمدهُ حامدٌ أم لم يحمد.

﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢٧)

٢٧- ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ لو كانت كل أشجار الأرض أقلاماً ﴿وَالْبَحْرُ﴾ المحيط، باعتباره اسم جنس للبحار جميعاً، يمدّ الأقلام - الأشجار- بالمداد ﴿يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ البحار السبعة تمدّ البحر المحيط، والمراد بالسبع التكثير، أي كثرة الماء والسعة، وليس العدد (سبعة) بالتحديد ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ فالخلق في تجدّد دائم، وكلمات الله وعلومه وحكمته لا نهاية لها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء جلّ شأنه ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه وعن حكمته شيء، إذ أحاطت علومُه وحكمتُه بكلّ شيء، في الماضي والحاضر والمستقبل.

﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(٢٨)

٢٨- ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ لا فرق عنده تعالى بين خلق البشرية بكاملها وبعثها، وخلق نفس واحدة منها وبعثها، فالأمر عنده سيان في السهولة لقوله تعالى: كن فيكون ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده، مؤمنهم وكافرهم ﴿بَصِيرٌ﴾ بأحوالهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٢٩)

٢٩- ومن الدلائل مقدرتُه تعالى على تسخير الشمس والقمر، بحيث يتتابع الليل والنهار:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المؤمن، وأيها السامع، وأيها القارئ ﴿أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ حيث يتتابعان الواحد تلو الآخر، وفي تعبير ولوج كل منهما في الآخر، في آن واحد، دلالة غير مباشرة على كروية الأرض ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لحياة الإنسان على الأرض، فالشمس تُمِدّ الأرض بالطاقة، والقمر يعكس نور الشمس على الأرض، وبه يتم حساب الشهور القمرية ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ضمن مدار كل منهما، الشمس ضمن المجموعة الشمسية، والقمر في منازله حول الأرض، ثمّ جريانهما معاً ينتهي

بالقيامة يوم تبدّل الأرض غير الأرض، والسماوات، انظر [إبراهيم ٤٨/١٤]، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لأنّ مَن كانت هذه مقدرته في الخلق، وهو أهونُ عليه، لا يغفل عن أعمال عباده صغيرها وكبيرها.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾(٣٠)

٣٠- ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما أشارت إليه الآيات (٢٦-٣٠) مِن مقدرته تعالى بلا حدود ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ وحده ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ هو الحقيقة الوحيدة في الكون على الدوام ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ ما عداه عبارة عن وهم لا وجود حقيقي له، ولا وجود له بذاته، فلا يوجد إلاّ بغيره ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ وحده ﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ على غيره ﴿الْكَبِيرُ﴾ عن أن يكون له شريك.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(٣١)

٣١- هذه الآية عطف على الآية (٢٩) لبيان المزيد من الإعجاز:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ﴾ السفن ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ بما سخّر في الخلق من قوانين الفيزياء التي تحكم جريان السفن فوق الماء، وما أودع في عقول البشر من إمكانات للاستكشاف والتقدم العلمي في مجال السفن وغيره ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ مِن معجزاته التي تَرَوْنها مِن المسلّمات ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ رسالات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ كثير الصبر على استنباط الأدلّة من الأنفس والآفاق ﴿شَكُورٍ﴾ لله تعالى على ما أنعم به من الخلق والهدى.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾(٣٢)

٣٢- استمرار الخطاب من الآية المتقدمة: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ﴾ أي المشار إليهم بالآيات (٢١) و (٢٥)، ﴿مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ فارتفع بهم الموج، وهم في عرض

البحر، فصار أعلى منهم، كأنّه الجبال، أو كأنه ظلال الموت وهم مشرفون على الغرق ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ اضطرّوا لدعائه تعالى وحده، لما دهاهم من الخوف الشديد، بعد أن زال عنهم ما ينازع الفطرة السليمة من الهوى والتقليد ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ انقسموا فريقين: ﴿فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ منهم من سَلَكَ طريق القصد، أي الطريق المستقيم، وهو طريق التوحيد بلا منازع وطريق العمل الصالح، ويحتمل المعنى أيضاً أنّه عادَ مقتصداً في سلوكه فهوَ مذبذب بين الإيمان والكفر، أو بين الإيمان والشرك، ومنهم الجاحد: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ ينكرها استكباراً ومكابرةً مع علمه بصحتها ﴿إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدّار شديد الغدر، لأنه لا يصبر على العهد الذي قطعه على نفسه في محنته، فينقضه، ﴿كَفُورٍ﴾ مبالغ في كفران نعمه تعالى، وهذا المعنى ينطبق على كل من يقع في الشدائد، وليس مقتصراً على ركّاب السفن في البحر، ولا غيرها من وسائل المواصلات.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ولا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾(٣٣)

٣٣- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ اثبتوا على الإيمان، ولا تكونوا كالمذبذبين بين الإيمان والشرك، ولا كالجاحدين الذين ينكصون إلى الكفر بعد أن نجّاهم الله تعالى من الشدائد، وكلا الفريقين مشار إليهما بالآية المتقدّمة ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ولا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ عملاً بالقاعدة القرآنية: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام ٦/١٦٤]، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ لا بدّ من تحقّقه لا محالة ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ من متاع لا يلبث أن يزول بحلول الأجل، ومن لذّات فانية مؤقتة ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ الغرور كل ما يغرّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وهو من قبيل الضلالات التي تزيّن للمرء عملَه السيّئ، وتمنّيه بالجنة والمغفرة رغم

المعاصي، فذلك من قبيل التمنّي الخادع، فاتقوا الله أيها الناس قبل فوات الأوان، كما سيرد بالآية التالية:

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤)

٣٤- ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ وحده يعلم موعدها، لا تأتيكم إلا بغتةً ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ المطر ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ ليس فقط أنه يعلم نوع الجنين من ذكر أو أنثى، بل أيضاً إن كان سوف يخرج الجنين إلى قيد الحياة، وفي تلك الحال ما سوف تكون عليه جبلّته وشخصيته في الدنيا؟ وما الدور الذي سوف يقوم به في حياته؟ الحياة التي رمزَت الآية إلى أوّلها بالغيث، وإلى آخرها بقيام الساعة ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ في مستقبلها من خير أو شرّ ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فمن باب أولى أنها لا تدري توقيت موتها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده فلا يكشف لهم حجب الغيب من موعد قيام الساعة ولا موعد آجالهم ﴿خَبِيرٌ﴾ في ظواهر الأمور وبواطنها.

سورة السجدة -٣٢-

مكية

مقدمة

نزلت في أواخر الفترة المكية، وهي آخر سورة في مجموعة سُوَر (العنكبوت-الروم-لقمان-السجدة) التي تفتتح بالحروف (ألم)، واشتُق اسمها من الإشارة لسجود المؤمنين بالآية (١٥) بالنظر إلى أن الإيمان نقيض الاستكبار.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة لقمان المتقدمة أن القرآن الكريم هدى ورحمة لِمَن يحسنون استخدام مداركهم العقلية: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (٣/٣١)، ومن ثم فمَن لا يستخدم العقل يزعم أن القرآن الكريم مفترى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٣/٣٢).

وفي سورة لقمان أن يَدَع المؤمنُ المصرّين على الكفر وشأنهم: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢٣/٣١)، ثم في سورة السجدة أن المصرّين على الكفر لا يوقنون إلا بعد الفوات: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (١٢/٣٢).

وفي سورة لقمان استكبار الكفار وإعراضهم عن الآيات: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٧/٣١)، ثم في سورة السجدة أن لو شاء الله تعالى لأحبرهم على الهدى:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣/٣١).

محور السورة

أنّ الله تعالى يدبّر شؤون خلقه فلا يتركهم بلا هداية، وأن المفهوم البشري للزمن نسبي ولا حقيقة له: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٥)، وأنّ لو شاء تعالى لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الإيمان: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣)، ولكن اقتضت حكمته تعالى تكريم الإنسان بحرية الخيار، ومن ثم تحمّل المسؤولية، مما يترتب عليها أنْ يلقى المرء عاقبة عمله إنْ خيراً فخير: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧)، أو شراً بشر، وقد يكون العذاب الدنيوي للمجرمين حافزاً لهم على الاستبصار قبل وقوع الأجل: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢١).

وقد نزل الهدي القرآني على محمد هدى للناس كما نزل الكتاب على موسى من قبل هدى لبني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٢٣)، وأن بني إسرائيل كانوا أئمة للهداية في زمانهم ما داموا صابرين على متطلبات الرسالة، ولكنهم فسدوا وحرّفوا التوراة، ومنهم مَن أنكر الآخرة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢٥) أي فيما اختلف فيه بنو إسرائيل بعد انحرافهم عن رسالة موسى.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم﴾(١)

١- ﴿الم﴾ الله أعلم بمراده، انظر [البقرة ١/٢].

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢)

٢- هذا ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ القرآن الكريم ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾(٣)

٣- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ زعمَ كفار مكة أن النبي ﷺ أتى بالقرآن من عنده، وهذا الزعم ليس مقتصراً على كفار مكة، بل يعمّ الكفار في كل العصور ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ القرآن قول الله تعالى ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ لمضيّ فترة من الزمن لم تُبعث فيها الرسل إلى العرب ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ لعلّ العرب، والناس من بعدهم، تهتدي بنزول القرآن عليهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾(٤)

٤- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ في ستة حقب زمنية، وليس اليوم المشتمل على ٢٤ ساعة كما نعرفه، بل هو مطلق الزمن ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ كناية عن مقدرته تعالى المطلقة في الخليقة، وحرف (ثمّ) ليس للتراخي الزمني، بل للبعد المعنوي، وقد يفيد معنى العطف، فالزمن في هذا المقام لا معنى له، وليست هنالك حالة ولا هيئة لم تكن لله سبحانه وتعالى ثم كانت، فهو سبحانه منزّه عن الحدوث، وعن الزمان والمكان، انظر [الأعراف ٥٤/٧]، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ الله وحده يتولّى أموركم وشؤونكم ﴿وَلا شَفِيعٍ﴾ وليس مَن يشفع لكم عنده، من شركائكم المزعومين ﴿أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ حقيقة التوحيد المغروسة في فطرتكم منذ أخذَ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم؟

﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(٥)

٥- ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ يدبّر شؤون عباده ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ﴾ بكل ما هو موجود فيهما من مخلوقات، انظر [الطلاق ٦٥/١٢]، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ الأمر يوم القيامة ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ لأن الزمن الذي نعرفه على الأرض زمن نسبي لا يقاس بالزمن المطلق، والمغزى أيضاً؛ إنّ يوم القيامة سوف يكون طويلاً جداً بالنسبة إلى من ينتظر الحكم والقضاء.

﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(٦)

٦- ﴿ذَلِكَ﴾ الله تعالى منزّل القرآن ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ يعلم كلّ ما غاب عن علم البشر، وما هو خارج نطاق تصورهم ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ وما هو مُشاهد في ظاهر الخليقة ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾(٧)

٧- ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ وفقاً لِما هو مقدّر له في الخلق من وظيفة، ما قد تكون خارج نطاق الفهم البشري ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ لقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون ٢٣/١٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر ١٥/٢٦].

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾(٨)

٨- ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ من نطف المنيّ.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾(٩)

٩- ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ لِما هو مخلوق لأجله ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ من روحه تعالى، كناية عن إمداده بالحياة ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ هذا الجسد الذي بدأ خلقه من طين، صار لديه ميزة العقل والإدراك والإبصار

والسمع والفريزة، وتعلم الأسماء كلها، وما في كل ذلك من إعجاز ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم المترتبة على رفع الإنسان إلى هذه المنزلة العالية.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾(١٠)

١٠- ﴿وَقَالُوا﴾ الكفار، بعد كل هذا الإعجاز ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ إذا فنيتْ الأجساد في القبور ﴿أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أنُبعث أحياء بعد ذلك؟ ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ الذي خلقهم أول مرة ﴿كَافِرُونَ﴾ منكرون للبعث.

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾(١١)

١١- ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وليس ذلك نهاية المطاف ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ تُبعثون للحساب والجزاء بعد ذلك.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾(١٢)

١٢- ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ مُطرقوها من الخزي والحياء ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ في الآخرة، بعد أن كنّا عَمين في الدنيا نحسبها غاية همّنا ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ لتكن لنا فرصة أخرى ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ بالبعث والحساب والجزاء، لكنّ هذا اليقين لا يفيد بعد الفوات لأنه كإيمان المعاينة.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(١٣)

١٣- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ قسراً، فلا يكون هنالك خيار لأحد بالزيغ والكفر، وتنتفي المسؤولية الأخلاقية الفردية ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ الذين اختاروا الكفر على الإيمان، بمحض حريتهم وإرادتهم.

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١٤)

١٤- ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ مع أنه كان معلوماً لديكم بما جُبلتم عليه من الفطرة، ولكنكم نكثتم وأنكرتم ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ تركناكم في العذاب ترك المنسي ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأن عذاب الخلد مترتّب على عملكم، وناتج عن الاستكبار كما سوف تبيّن الآية التالية.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾(١٥)

١٥- ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ كونها معلومة لديهم سلفاً ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ إقراراً بها ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ تنزيهاً له عن كل ما لا يليق به من العجز والظلم ﴿وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لأن إنكار الآيات ناتج عن الاستكبار.

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(١٦)

١٦- ومن صفاتهم أيضاً قيام الليل: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ كناية عن تركهم النوم لصلاة النوافل بالليل ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ من سخطه وعذابه عزّ وجلّ ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير من زكاة وصدقات.

﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١٧)

١٧- ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ في الجنة، لأن وصفها لا يمكن تمثيله بعالم المشاهدة الذي نعرفه، وهي في علم الغيب الذي هو خارج نطاق تصوّر البشر، وفي الحديث: إنها لا كعين رأت، ولا كأذن سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في دنياهم من الخير.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ﴾(١٨)

١٨- ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ﴾ في عاقبتهم، كما سوف تبيّن الآيات التالية:

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١٩)

١٩- ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ انظر [النجم ٥٣/١٥]، ﴿نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بنتيجة الأعمال الصالحة التي كانوا مواظبين عليها في دنياهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾(٢٠)

٢٠- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ خرجوا عن الطاعة، فكفروا وارتكبوا المعاصي ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ جزاء الإنكار والاستكبار.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٢١)

٢١- ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى﴾ في الدنيا، رحمةً بهم وزجراً، قبل أن تفوتهم فرصة الدنيا ﴿دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ﴾ في الآخرة حيث لا تنفع وقتئذٍ التوبة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى صوابهم ويتوبون.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾(٢٢)

٢٢- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ التي يعرفها في قرارة نفسه يقيناً ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ رغم أنها مغروسة فيه بالفطرة ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ منكري الحقيقة عمداً ﴿مُنْتَقِمُونَ﴾ بما يترتّب على إنكارهم وإجرامهم من عواقب.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٢٣)

٢٣- بعد أن بيّنت السورة أن الناس فريقان، فريق يستجيب للفطرة السليمة فيؤمن، وفريق ينكرها فيستكبر ويكفر، تعود السورة لموضوع الآيات (٢-٣):

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ جنس الكتاب، وهو الوحي، وتحديداً هو التوراة التي نزلت على موسى ﴿فلا تَكُنْ﴾ أيها النبي، أو أيها المؤمن، أو أيها السامع ﴿فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ لا تكن في شك من لقاء جنس الوحي الذي نزل على موسى، فقد نزل أيضاً على النبي ﷺ، والوحي القرآني استمرار لما سبقه من نزول التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب، وهو التوراة ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هادياً لهم من الضلال.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(٢٤)

٢٤- ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ الإشارة إلى أنبياء بني إسرائيل وهُم كُثُر ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ في إشارة إلى أن الكثير من رجال الدين عندهم لم يصبروا، بل شوّهوا التوراة، وحذفوا منها، وكتبوا من عندهم الكثير ونسبوه إلى الوحي، انظر [البقرة ٢/٤٢]، ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ الموسنون منهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(٢٥)

٢٥- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ اختلف اليهود في الآخرة، فمنهم مَن يقرّ بها ومنهم مَن ينكرها، انظر قوله تعالى فيهم: ﴿إِنْ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ [الدخان ٤٤/٣٤-٣٥].

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾(٢٦)

٢٦- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ من الأمم والمجتمعات التي كفرت فانحطّت فبادَت، والتي يجب أن تكون عبرة لهم وهدى ممّا هم فيه من الضلال ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ هيَ على طرق أسفارهم يمرّون بها في ذهابهم وعودتهم، بعد أن صارت خاوية على عروشها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ رسالات ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع فهم وتفكّر.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾(٢٧)

٢٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الكفار في كل العصور والمجتمعات ﴿أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ المطر والسيول ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ الأرض اليابسة المنقطع نباتُها ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾ بإحياء الأرض بعد موتها، وهو إعجاز تذهل له العقول المفكّرة ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ إبصار القلب والتفكّر؟.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢٨)

٢٨- ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مكابرةً وعناداً، وعلى وجه التكذيب والاستهزاء ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ متى الفصل في الخصومة بيننا وبينكم، المشار إليها بالآية (٢٥)، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم أنّ هنالك آخرة وبعثاً وحساباً؟

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾(٢٩)

٢٩- ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ يوم القيامة ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ لأنّ إيمان المعاينة يصبح اضطراراً وإلجاءً، فيخلو من أي قيمة أخلاقية ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ لا يُمهَلون، ولا تكون لهم فرصة للتوبة، ولا ينفعهم الندم.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾(٣٠)

٣٠- ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أيها المؤمن، ولا تناظر أمثالهم لعدم الجدوى من رجوعهم ﴿وَانْتَظِرْ﴾ حكم الله فيهم ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ أي كما تنتظر النصر عليهم، فإنهم ينتظرون الغلبة عليكم.

سورة الأحزاب - ٣٣-

مدنية

مقدمة

نزلت سورة الأحزاب على فترات متباعدة تراوحت بين الأعوام ٣ - ٧ هجرية، وقد نزلت الآيات (٩-٢٧) بعد وقعة الخندق التي حدثت في شهر شوال بالعام ٥ للهجرة، وهي الوقعة التي أعطت السورة اسمها إذ عُرفت أيضاً بوقعة الأحزاب.

ارتباط السورة بمجموعة السور المكية الأربع المتقدمة (العنكبوت-الروم-لقمان-السجدة):

بعد أن ضربت سورة العنكبوت مثلاً بالمستكبرين الذين يعبدون الأوهام والشروات، ويلهثون وراء السلطة والقيم الزائفة بأنهم كَمَن يلوذ ببيت العنكبوت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٩/٤١)، وقد فاتهم أن الخلق ليس عبثاً وإنما هو ذو مغزى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٩/٤٤)، كما فاتهم علم القرآن والعمل به ما هو أكثر من كافٍ لدنياهم وآخرتهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٩/٥١)، وفاتهم أنّ الحياة الدنيا لهو ولعب وأن حياة الآخرة هي الحياة الحقيقية: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ، وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٩/٦٤).

ثم بينت سورة الروم أنّ أغلب الناس مغترّون بظاهر الحياة الدنيا غافلون عن حقيقتها ومغزاها، وعن حقيقة الحياة الآخرة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (٧/٣٠)، وبنتيجة الغفلة ينتشر الفساد في البر والبحر بنتيجة منع الخير والتهالك على المادة عند الذين يعدُّونَ النجاح الاقتصادي المادي معياراً وحيداً للنجاح: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١/٣٠)، فلا يفيق الغافلون من غفلتهم إلا عند وقوع الساعة، فيكذبون على أنفسهم بأن لبثهم في الدنيا كان قليلاً لدرجة لم تتح لهم فرصة الإصلاح والتوبة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٥٥/٣٠).

ثم في سورة لقمان أن المستكبرين مِن الناس مَن يتلاعب بأفكار فلسفية زائفة يحاول إقناع الآخرين بها بهدف الصدّ عن القرآن: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٦/٣١)، وأن القرآن الكريم هدى ورحمة للذين يحسنون استعمال الفكر والعقل: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (٣/٣١)، لكن الاستكبار والاعتداد بالنفس يقف حائلاً بين المرء وبين رؤيته الحقيقة: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٧/٣١)، وكذا تمسكه بالتقليد الأعمى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢١/٣١).

ثم بيّنت سورة السجدة أن الله تعالى لا يترك عباده بلا هداية، ولا يقسرهم على الهدى، بل يكرّمهم بحرية الخيار، وقد يذيق الكفار من عذاب الدنيا قبل الآخرة لعلهم يتوبون: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢١/٣٢)، وأنّ القرآن الكريم استمرار لما سبقه من الوحي كتوراة موسى التي اختلف اليهود عليها وتلاعبوا بها حتى أنكر فريقٌ منهم الآخرة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢٥/٣٢).

ثم تنتقل سورة الأحزاب المدنية إلى بحث مواضيع حياتية وممارسات مهمة في حياة الأمة الإسلامية، وهنالك أيضاً اتصال مباشر بين آخر آية من سورة السجدة: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ [السجدة ٣٠/٣٢]، وافتتاح سورة الأحزاب بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب ١/٣٣].

الخلفية التاريخية للآيات (٩-٢٧)

بعد هزيمة مشركي قريش في وقعة بدر في رمضان من العام ٢ هجرية تتابعت الأحداث سراعاً، فكانت وقعة أُحُد في شهر شوال من العام ٣ للهجرة عندما عادت قريش تحاول الانتقام لهزيمتها، ومع أن المسلمين تحملوا خسائر كبيرة في أُحُد إلا أن المدينة نَجَت وفشلت قريش في تحقيق هدفها وعادت إلى مكة خائبة، ثم استمر التآمر بين مشركي مكة، ويهود بني النضير الذين طردهم المسلمون من المدينة (راجع سورة الحشر)، ويهود بني قريظة في المدينة، ومنافقي المدينة بقيادة عبد الله بن أبيّ، وعرب الجزيرة من قبيلة غطفان، إذ جمعت بينهم رابطة مشتركة وهي كراهيتهم للإسلام والمسلمين، فكان أن حشدت الجاهلية قواها في حوالي ١٠٠٠٠-١٢٠٠٠ مقاتل، وعادت لحصار المدينة في شهر ذي القعدة من العام ٥ للهجرة، وهو الحصار المشار إليه في آيات سورة الأحزاب (٩-٢٧) وانتهى بفشل ذريع للمشركين بعد أنّ استمر أسبوعين من الزمن، وقيل بل استمر ٢٧ يوماً بعد أن تسبب في محنة ومعاناة كبيرتيْن للمسلمين المدافعين عن المدينة ليس في محاولة صدهم العدو الخارجي فقط، بل في تآمر المنافقين ويهود بني قريظة بين ظهرانيهم، وقد فاجأ المسلمون المشركين بخطة

حربية لم تكن معروفة في جزيرة العرب قبل ذلك، وهي حفر خندق أحاط بالمدينة قبل وصول القوات الغازية إليها مما أحبط عدة هجمات للمشركين في محاولة اختراقه رغم أن قوة المدافعين من المسلمين لم تتجاوز ٣٠٠٠ رجل، وقد صادف الحصار في شهر آذار (مارس) من شتاء عام ٦٢٧م وكان شتاءً قاسياً شديد البرودة هبت خلاله عواصف شديدة اقتلعت خيام المهاجمين وأطفأت نيرانهم، وهبّت رمال العواصف في وجوههم، وهطلت الأمطار الغزيرة عليهم ففزعوا وتفرّقوا ودب الخلاف بينهم ما اضطرهم إلى فك الحصار والانسحاب خائبين.

محور السورة

أولاً: نبذ عادات الجاهلية كعادة الظهار، وعادة التبني، الآيات (١-٨).

ثانياً: وقعة الخندق ونتائجها والعبر منها، الآيات (٩-٢٧).

ثالثاً: المنزلة السامية لنساء النبي ﷺ بالنسبة إلى الأمة الإسلامية، الآيات (٢٨-٣٥).

رابعاً: موضوع زواجه ﷺ من زينب بنت جحش، الآيات (٣٦-٤٠).

خامساً: الدعوة النبوية إلى الإسلام، الآيات (٤١-٤٨)

سادساً: عدة المطلقات قبل المسيس (الآية ٤٩).

سابعاً: منزلة أزواج النبي ﷺ بالنسبة إليه، الآيات (٥٠-٥٢).

ثامناً: آداب المسلمين تجاه النبي ﷺ وتجاه أزواجه، الآيات (٥٣-٦٢).

تاسعاً: إن الإنسان يتحمل مسؤولية حمله حرية الخيار بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، الآيات (٦٩-٧٣)، وسوف نلاحظ في خلاصة السورة كيف أن هذه المواضيع متسلسلة ومرتبط بعضها ببعض.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(١)

١- ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ كنْ على الدوام مستشعراً وحوده وهيمنته ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ لا تساعدهم على شيء، ولا تقبل لهم رأياً ولا مشورة، وجانبهم واحترس منهم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأحوالك ﴿حَكِيمًا﴾ بالمصالح، إذ طاعة الكافرين والمنافقين ومسايرتهم لن تفيدَ شيئاً في استمالتهم للدعوة، بل على النقيض من ذلك، وسوف تعود السورة لموضوع المنافقين في الآية (١٢) في معرض الحديث عن وقعة الخندق، والآية (٦٠) في معرض الحديث عن منافقي المدينة، والآية (٤٨) في معرض النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، والآية (٧٣) في معرض الحديث عن فشل المنافقين عموماً في حمل الأمانة.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(٢)

٢- ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ بلا اجتهاد ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لا يفوته شيء من أعمالكم، فيأمركم بتصحيحها عند اللزوم، ما دام الوحي يتنزّل على النبي.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾(٣)

٣- ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فوّض جميع أمورك إلى الله عزّ وجلّ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظاً موكولاً إليه الأمور كلّها، فلا تخف من كيد الكائدين والكفار والمنافقين، وفي ذلك عودة إلى موضوع الآية (١).

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾(٤)

٤- ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ استمرار الخطاب من الآيات المتقدّمة، والمعنى لا يمكن للإنسان أن يكون تقيّاً وفي الوقت ذاته يتماشى مع رغبات الكفار والمنافقين، وفي العموم ومن الناحية الأخلاقية والمنطقية لا يمكن له، ولا يجب عليه، وليس المتوقع منه، القيام بدورين متناقضين في سلوكه وفي علاقاته مع الآخرين ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ هذه الآية أبطلت الظِّهار، وهي عادة جائرة كانت عندهم في الجاهلية، وهي أن يقول الرجل لامرأته: أنت عليَّ كظهر أمّي، فتطلق منه طلاقاً بائناً لا رجعة فيه، وفوق ذلك يمتنع عليها الزواج من غيره، فتبقى حبيسة منزله مدى الحياة ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الذين تدّعونهم وتزعمون أنهم أبناؤكم بالتبنّي، وهذا أيضاً إبطال لِما كانوا عليه في الجاهلية وصدر الإسلام في حال تبنّى أحدُهم ولدَ غيره أُجريت عليه أحكام الأبناء الحقيقيين ﴿ذَلِكُمْ﴾ النسب الذي تدّعون ﴿قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ فهو مجرّد كلام ليس له مصداق واقعي، ولا يتطابق مع حقيقة العلاقات الإنسانية، فهنالك مثلاً قيود الزواج التي تنطبق على الأبناء والبنات الحقيقيين، ولا تنطبق على الأبناء والبنات بالتبنّي، انظر مثلاً الآية (٣٧)، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ بأن يبيّن لكم حقيقة العلاقات البيولوجية بين الآباء والأبناء، بالمقارنة مع العلاقة المصطنعة التي ابتدعتموها بين الآباء والأبناء بالتبنّي ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ سبيل الحق الذي يجب العمل به.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(٥)

٥- ﴿ادْعُوهُمْ﴾ أي الأولاد بالتبنّي ﴿لِآبَائِهِمْ﴾ انسبوهم لآبائهم الحقيقيين ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أعدل، لأنه وضع الشيء في موضعه الحقيقي ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ الحقيقين ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ ليكون واضحاً أنهم أولاد بالتبنّي، ولا تعطوا الانطباع في المجتمع أنهم أولادكم الحقيقيين، بل حافظوا على هويتهم الحقيقية، وفي هذه الحالة ادعوهم إخواناً لكم في العقيدة،

أو مواليَ تتولّون أمورَهم ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ إثمٌ ﴿فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ مخطئين جاهلين قبل النهي ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ الإثم واقع عليكم فيما تعمّدتموه بعد النهي ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ للمخطئ إذا تاب ﴿رَحِيمًا﴾ برفع الإثم عن المخطئ.

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾(٦)

٦- ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ هُوَ أحقّ وأقرب إليهم، وأشدّ ولايةً ونصرةً لهم، لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلاّ ما فيه صلاحهم ونجاحهم، بخلاف أنفسهم فإنها أمّارةٌ بالسوء ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ هنّ بمنزلة أمهاتهم في تحريم النكاح واستحقاق التعظيم، فلا يحق لأحد التزوج منهنّ بعد وفاة النبي ﷺ، ولهنّ حق التعظيم والاحترام كما يعظّم المؤمنون أمهاتهم ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ ذوو القرابات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ في الميراث والتوارث ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في علمه القديم المنزّل في القرآن ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ من المؤمنين في المدينة المنورة بحق أخوّة الإسلام، والمهاجرين إليهم من مكة بحق الهجرة، انظر [الأنفال ٨/٧٥]، ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ﴾ من المؤمنين والمهاجرين غير ذوي القربى ﴿مَعْرُوفًا﴾ بأن توصوا لِمَن أحببتم منهم من ميراثكم فإنه لا وصية لوارث ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ كلّ ما ذُكر آنفاً ﴿فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ مثبتاً في القرآن.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾(٧)

٧- هذه الآية متعلقة بموضوع الآيات (١-٣) من حيث الميثاق المأخوذ على كل الأنبياء والرسل بتأدية رسالاتهم:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ وقتما كانوا في عالم الذرّ، عندما أخذ ربُّك من بني آدم من ظهورهم ذريّتهم، انظر [الأعراف ١٧٢/٧]، وقد أخذ تعالى ميثاقهم بتبليغ الرسالة والشرائع والدعوة إلى الدين الحق، وتصديق بعضهم بعضاً، واتّباع بعضهم بعضاً ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ عطف الخاص على العام، إيذاناً بالمزيد من فضلهم ومزاياهم وكونهم من كبار الأنبياء ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عهداً عظيم الشأن، تأكيداً على تأديتهم الرسالة على أتم وجه.

﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٨)

٨- ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ﴾ الأنبياء ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾ ماذا كانت استجابة الناس لرسالاتهم الصادقة؟ انظر [المائدة ١٠٩/٥]، و [الأعراف ٦/٧]، ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ الذين أصرّوا على الكفر والإنكار وماتوا عليه ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بما اختاروا لأنفسهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾(٩)

٩- بعد أن ذكرت الآيتان (٧-٨) أخذ الميثاق من النبيين، وسؤال الصادقين عن صدقهم، ينتقل الخطاب إلى مثال تطبيقي عمّا قد يترتّب عن التبليغ والدعوة من مشاقّ، وهو وقعة الأحزاب أو وقعة الخندق كما عُرفت:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ما أنعم الله تعالى عليكم يوم الأحزاب ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ من قريش وحلفائها من قبائل جزيرة العرب، وبنو النضير وحلفاؤهم من يهود المدينة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ من عوامل الطبيعة كالبرد القارص والأمطار الغزيرة والعواصف الشديدة ما جعل مستحيلاً على الأحزاب متابعة الحصار، انظر الخلفية التاريخية ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق واستعداداكم واتخاذكم الإجراءات

العملية للحرب إعلاءً لكلمته تعالى، والتحاكم إليه ورجائكم نصرته ﴿بَصِيرًا﴾ بأحوالكم، فأيّدكم بنصره بعدما أعددتم للأمور عدّتها.

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ﴾(١٠)

١٠- ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ جاءت بنو غطفان، ومَن تابعهم من قبائل نجد وبنو النضير وبنو قريظة، من أعلى الوادي بالجهة الشمالية الشرقية للمدينة ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ جاءت قريش ومَن تابعها من قبائل الحجاز وأهالي تهامة الساحلية، من أسفل الوادي بالجهة الجنوبية الغربية للمدينة، والخلاصة أن العدو أحاط بالمسلمين مّن كل جنب ﴿وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ﴾ أبصار المؤمنين مالت وانحرفت عن مستوى نظرها حيرةً ودهشةً ﴿وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ خافت خوفاً عظيماً كأنها تحرّكت من مواضعها لتخرج من الحناجر ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ﴾ ظنوناً كثيرة، فظنّ المخلصون الثابتون في أرض المعركة أن ينجز الله وعده لهم بالنصر، وظنّ البعض أن يمتحنهم تعالى فتزلّ أقدامُهم ولا يتحمّلون ما نزل بهم، وظنّ المنافقون والذين في قلوبهم مرض أنّ محمداً وأصحابه سوف يُستأصلون، كما سوف تبيّن الآيات التالية.

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾(١١)

١١- ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ اختبرهم الله تعالى بظهور أعمالهم من النوايا إلى التنفيذ ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ لقلّتهم وكثرة الأعداء، اضطربوا اضطراباً شديداً من شدة الفزع.

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾(١٢)

١٢- ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ من المذبذبين أنصاف المؤمنين ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ من الظفر وإعلاء كلمة الإسلام ﴿إِلاَّ غُرُورًا﴾ وعد غرور، أي قولاً باطلاً يُغرّنا ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾(١٣)

١٣- ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ من المنافقين وضعاف النفوس ﴿يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ﴾ يا أهل المدينة لا ينبغي ولا يمكن لكم الإقامة هنا ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى منازلكم بالمدينة فيكون ذلك أسلم لكم من القتل، يريدون بذلك الفرار، وارجعوا إلى ما كنتم عليه من الشرك، وعمّا بايعتم محمداً عليه ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ استئذاناً ظاهراً ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا﴾ بالمدينة ﴿عَوْرَةٌ﴾ يزعمون أنّ بها خللاً، يمكن اختراقها ويُخشى عليها من العدو ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ لا يريدون بالاستئذان سوى الهرب من القتال.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا﴾(١٤)

١٤- ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ﴾ المدينة، أو بيوتهم ﴿مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جميع جهاتها واشتدّت الحرب ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ طُلب منهم الردّة والرجوع إلى الشرك ﴿لآتَوْهَا﴾ لاستجابوا لما طُلبَ منهم ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا﴾ المعنى أنهم في تلك الحال لا يبقون على ما ارتدّوا إليه من الفتنة والكفر إلا لبثاً قليلاً، لأن الله تعالى يهلكهم بردّتهم.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾(١٥)

١٥- ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ﴾ كانوا قد جبنوا يوم أحُد، ثم تابوا وعاهدوا قبل يوم الخندق ألاّ يفرّوا ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾ عن الوفاء به.

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(١٦)

١٦- ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ لأن المقدّر المكتوب عليكم واقع لا محالة ﴿وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وإن نفعكم الفرار مؤقّتاً بأن أخّرَ عنكم القتل فمُتّعتم فلا يكون لكم إلاّ متاعاً قليلاً أو زماناً قليلاً، فأيام الحياة وإن طالت قصيرة.

﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾(١٧)

١٧- ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ مَن يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً، ومَن يمنع رحمة الله عنكم إن أراد بكم رحمة؟ ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع الضرر عنهم.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١٨)

١٨- ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ المثبّطين عن نصرة الرسول ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ المنافقون واليهود كانوا يقولون لإخوانهم من أهالي المدينة تعالوا وكونوا معنا، ولا تكونوا مع محمد ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ الحرب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يقاتلون إلاّ قتالاً قليلاً، أو يتظاهرون بالقتال إلى جانبكم.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾(١٩)

١٩- ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ جمع شحيح، أي هُم بخلاء على أهل المدينة بالنفقة وبالنصرة وبكل ما فيه منفعة لهم، كما يخافون على أنفسهم في حال تحققت الغلبة للنبي ﷺ ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ من العدوّ، وتوقّعَ المعوّقون أن يُستأصل أهل المدينة ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ أيها النبي، وأيها المؤمن ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ أحداقهم ﴿كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ كالذي يعاني سكرات الموت

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وتحققت الغلبة للمؤمنين ﴿سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ آذوكم بالكلام، وخاصموكم بألسنة سليطة ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ بخلاء حريصين أن يأخذوا من مال الغنائم ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بالإخلاص، فهُم منافقون أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ لأنها باطلة إذ صحتها مشروطة بالإيمان بالإخلاص وهُم يبطنون الكفر ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإحباط ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يبالي به.

﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٢٠)

٢٠- ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ بسبب خوفهم وجبنهم لم يصدّقوا أن الأحزاب انهزمت ورحلت ﴿وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ﴾ كرة ثانية، ويحتمل أنّهم اعتقدوا أنّ الأحزاب ستعود لحصار المدينة بقوة كبيرة ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ﴾ في البدو مع الأعراب خارج المدينة ليكونوا سالمين من القتال ﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ يتعرفون أحوالكم بالاستخبار عن بُعد لا بالمشاهدة، لشدة جبنهم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ يتظاهرون بالقتال إلى جانبكم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(٢١)

٢١- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ القدوة الحسنة في كل أعماله وأقواله وثباته في الحرب ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ يأمل رحمة الله ﴿وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ لقاء اليوم الآخر ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ذكراً كثيراً باستحضار معناه وليس بمجرّد القول، والمغزى أن الأسوة الحسنة لا تتحقق ولا تكون إلاّ لمن توافرت فيه هذه الخصال الثلاث.

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾(٢٢)

٢٢- ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ قد يكون في ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة ٢/٢١٤]، ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ هول الموقف ﴿إِلاَّ إِيمَانًا﴾ بالله تعالى وبوعده بالنصر ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ استسلاماً لأمر الله ولأوامر النبي ﷺ.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾(٢٣)

٢٣- ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ من الثبات في الحرب ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ وفى بنذره، فقاتل حتى قُتل، لأن النحب النذر ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ يوماً فيه جهاد، فيقضي نحبه ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ ما بدّلوا عهدهم، وما غيّروه تبديلاً.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(٢٤)

٢٤- ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ﴾ الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ بسبب صدقهم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لِمَن تاب.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾(٢٥)

٢٥- ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ بل كانت حملتهم وبالاً عليهم ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بأن سلّطَ على الأحزاب عوامل الشتاء القاسي من العواصف والأمطار والبرد القارص، وأوقع الفرقة بينهم فانهزموا ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ غالباً على كلّ أمر.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾(٢٦)

٢٦- ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهُم يهود بني قريظة ظاهروا قريشاً في وقعة الخندق ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ كان بنو قريظة أشد اليهود عداوة للنبي ﷺ وقد نقضوا العهد وغدروا بالمسلمين، إذ حالفوا قريشاً والأحزاب في أثناء وقعة الخندق، وفي رواية ابن إسحاق أن النبي ﷺ حاصرهم بعد ذهاب الأحزاب حتى استسلموا وقبلوا أن يحكم فيهم حليفهم السابق سعد بن معاذ سيد الأوس، فحكم أن تقتل الرجال منهم، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال، فقتل منهم ٦٠٠-٧٠٠ رجل، غير أن رواية ابن إسحاق هذه لا يمكن الوثوق بإسنادها، رغم أن الواقدي وابن سعد نقلاها عنه فيما بعد، إذ لاحظ العالم بركات أحمد في كتابه (محمد واليهود) أن أبا بكر بن شهاب الزُهري، الذي سبق ابن إسحاق في كتابة السيرة، لم يذكر هذه الحادثة، كما لاحظ أيضاً أن اليهود أنفسهم لم يذكروها في تاريخهم، ومن غير الطبيعي وغير المعتاد عند اليهود، ألاّ يكتبوا عن أحزانهم، ناهيك عن تضخيمها في حال حدوثها، ومن الجدير بالذكر أن مجموع قتلى المسلمين وغير المسلمين في جميع حروب النبي ﷺ لم يكد يبلغ خمسَ مئة.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾(٢٧)

٢٧- ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أصبحت ملكاً للمسلمين ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا﴾ ومنها خيبر، وغيرها من البلاد التي فتحها المسلمون بعد ذلك، وصاروا بعد ذلك في حالة من اليسر، وذلك وجه اتصال هذه الآية بما بعدها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ومنها نصرة دينه والمومنين.

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾(٢٨)

٢٨- عندما نزلت هذه الآية كان المسلمون قد فتحوا خيبر بأراضيها الزراعية الغنية، وتغيّرت حالهم من العسر والضيق المادي إلى اليسر، غير أن حالة اليسر هذه لم تنعكس على بيت الرسول ﷺ مما كانت تتوق إليه زوجاته، فالرسول كان يرى أن وضعه المادي يجب أن يضاهي وضع فقراء المسلمين وليس أغنياءهم، مما أدّى به أن يعرض على زوجاته الخيار بين سراحهنّ أو البقاء معه، وقرأ عليهنّ الآيتين (٢٨-٢٩) فاخترنّ جميعاً البقاء معه:

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي السعة والتنعّم فيها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ زخرفها ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أعطيكنّ متعة الطلاق، انظر [البقرة ٢/٢٤١]، ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا﴾ طلاقاً ﴿جَمِيلًا﴾ لا ضرار فيه، ولا خصومة ولا مشاحرة.

﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢٩)

٢٩- ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ بغضّ النظر عن الدنيا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ﴾ في أقوالهنّ وأعمالهنّ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ في الآخرة.

﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾(٣٠)

٣٠- ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ من الكبائر، كمعصية النبي، أو طلبهنّ منه ما يشق عليه، أو ما يضيق به ذرعاً ويغتم لأجله، وعقوقه وفساد عشرته ﴿مُبَيِّنَةٍ﴾ ظاهرة القبح ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ يوم القيامة يعذّبنَ ضعفي عذاب غيرهنّ ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يمنعه جلّ شأنه كونهنّ نساء نبيّه.

﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾(٣١)

٣١- ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ﴾ تخشع ﴿مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ في مقابلة: يضاعف لها العذاب ضعفين ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ في الآخرة.

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾(٣٢)

٣٢- ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فقد امتازت كل واحدة منكنّ بشرف الزوجية للنبي ﷺ وصارت كل واحدة منكنّ أمّاً للمؤمنين ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ مخالفة حكم الله تعالى، واتّقيتنّ سخط رسوله ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ لا تقلنّ كلاماً ليّناً رقيقاً تجاه الأجانب ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ من ضعاف النفوس لأنه يحمل الكلام على غير محمله ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ بعيداً عن الريبة.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٣٣)

٣٣- ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ من القرار، وقيل من الوقار، والخطاب لنساء النبي ﷺ، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ كما كانت عليه النساء في الجاهلية من الغنج والزينة ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ القيام بجميع الطاعات ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ الرجس: القبيح المستقذر حسّياً أو معنوياً، والرجْس والنجَس بمعنى واحد، انظر شرح [الأعراف ٧/٧١]، ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ نساءً ورجالاً، وهُم أزواجه ﷺ وبناته وعلي والحسن والحسين رضي الله عنهم ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ من الذنوب.

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾(٣٤)

٣٤- ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ للعظة والتذكير ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ من القرآن ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ ما يترتّب عليها من الحكمة، أو من السنّة الشريفة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ لا يغيب عن علمه شيء، خبير بالبواطن، والآية التالية تؤكد أن ثواب نساء النبي ونساء المؤمنين كثواب الرجال:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(٣٥)

٣٥- ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الداخلين في السلم المنقادين لحكمه تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يقيناً ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ الذين قرنوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ في أقوالهم ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ على المكاره وعلى المعاصي ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ متواضعين لله تعالى ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ من زكاة وصدقات ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ فرضاً أو نفلاً ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ عمّا لا يرضى به الشرع ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ بالألسنة والقلوب ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً﴾ لأنّ الحسنات يذهبن السيئات، انظر [هود ١١/١١٤]، ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على ما قدّموا من عمل.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾(٣٦)

٣٦- سلوك المؤمنين المذكور في هذه الآية من طاعة الله ورسوله مترتّب على ما هو مذكور بالآية المتقدّمة:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ لا يصحّ لهم أن يختاروا وفقاً لأهوائهم، ولا أن يقدّموا رغباتهم الشخصية على قضاء الله ورسوله، بل يجب أن يكون رأيهم واختيارهم تبعاً لرأيه ﷺ، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في أي أمر من الأمور ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا﴾ منحرفاً عن الصواب بشكل واضح.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾(٣٧)

٣٧- بعد مقدمة الآية (٣٦) ينتقل الخطاب إلى قصة زينب بنت جحش والعبرة منها:

﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ أيها الرسول ﴿لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وهو زيد بن حارثة، أنعم الله عليه بتوفيقه للإسلام، وبقربه من النبي ﷺ، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أحسنَ النبي إليه، فقد كان زيد عبداً أهدته خديجة لمحمد قبل نبوّته، فأعتقه وتبنّاه، ثمّ كان زيد من أوائل الذين دخلوا الإسلام بعد البعثة النبوية، وبعد سنوات أراد النبي كسر عادة من عادات الجاهلية في استهجان زواج عبد، أو عبد محرر، من امرأة حرة، فأقنع زيداً بالزواج من زينب بنت جحش ابنة عمة النبي، فوافق زيد على مضض إذ كان سعيداً بزواج سابق من أم أيمن، والدة ابنه أسامة، وكانت أمةً محررة، ومن جهتها كانت زينب بنت جحش تحب النبي منذ صغرها على عدم علمه بذلك، ولكنها انصاعت لرغبة النبي في تزويجها من زيد على مضض منها، وما كان للزواج أن ينجح على هذه الحال، وفي مناسبات عديدة رغب زيد بتطليقها، ومن جانبها لم تبدِ زينب أية رغبة في زيد، وقد حاول النبي مراراً إقناعهما بالحفاظ على زواجهما، وهو المقصود بقوله مخاطباً زيد: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ حتى تبيّنَ أن الحفاظ على الزواج لم يعد ممكناً

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ بأن الزواج الذي أصرّ عليه النبي بين زيد وزينب كان مقدّراً له الفشل من البداية لضعف مقوّماته ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ أن تتكلم بفشل الزواج ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ في كل أمر ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ فطلّقها زيد في العام الخامس من الهجرة، وبعد ذلك بقليل تزوجها النبي تعويضاً لها عن تعاستها السابقة: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ أيها النبي ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ وهذه الحكمة المستفادة من القصة أنه يجوز للمرء الزواج من مطلّقة ابنه بالتبني، بخلاف حرمة زواجه من مطلّقة ابنه الحقيقي، انظر الآية (٤)، ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ إذا طلّقهنّ الأدعياء، أي الأولاد بالتبنّي ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ لا محالة.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾(٣٨)

٣٨- ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ في زواجه من زينب بنت جحش، وبيان الحكمة من ذلك، والتشريع المنبثق عنها ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ مثل هذا الأمر كان سنّة لدى الأنبياء المشار إليهم بالآية التالية، من حيث مسايرة رغباتهم الشخصية وتطابقها مع التشريع الإلهي ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ نافذاً لا محالة.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾(٣٩)

٣٩- ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ﴾ الأنبياء الذين بُعثوا قبل محمد ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ يخافونه تعالى ﴿وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ﴾ وحده، فمن طبيعتهم أن كانت رغباتهم وتوجّهاتهم منطبقة مع الشرع الإلهي ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ وحده محاسباً على أفعال العباد.

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(٤٠)

٤٠- ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أُبوّةً حقيقيةً يترتّب عليها أحكام الإرث وحرمة المصاهرة، لأنهم زعموا أن النبي تزوّج زوجة ابنه ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ استدراك من نفي الأبوّة الحقيقية الشرعية، إلى إثبات الأبوّة المجازية، فالرسول أب لكل واحد من الأمة ما يوجب التوقير والتعظيم له ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ لانقطاع النبوّة بعده، وإن رسالة القرآن هي الرسالة الإلهية النهائية للبشرية ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيشرّع من الأحكام ما هو مطابق للفطرة ومصلحة المجتمع، وهذه الآية بالمناسبة تنفي ما يظنّه البعض أن اتخاذ أحدهم بالنسب الحقيقي من النبي ﷺ يضفي عليه ميزة من الميّزات.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾(٤١)

٤١- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بما هو أهلٌ له، فاحمدوه واشكروه ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ يعمّ أغلب الأوقات.

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(٤٢)

٤٢- ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ نزّهوه عن كل ما لا يليق به ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ في أول النهار وآخره، إشارة إلى المداومة، لأنّ ذكر الله والتسبيح، قولاً وقالباً، يعود بالفائدة الروحانية على صاحبها.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(٤٣)

٤٣- ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ يرحمكم، وأنتم لا تذكرونه ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ تستغفر لكم، لأنّ الصلاة من الله تعالى على عباده رحمة، ومن الملائكة استغفار للعباد، ومن مؤمني الإنس والجن دعاء ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الجهالة إلى نور معرفته جلّ وعلا ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ رحمةً بكم.

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾(٤٤)

٤٤- ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ يوم القيامة ﴿سَلَامٌ﴾ مناسب لحالهم بما ذُكر بالآيات (٤١-٤٣)، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ ثواباً حسناً لما كانوا عليه في دنياهم مِن نور معرفته.

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾(٤٥)

٤٥- ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ على أمّتك، لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء ٤/٤١]، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بحسن مآلهم ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين بسوء عاقبتهم.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾(٤٦)

٤٦- ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى الإقرار بوجوده وبوحدانيته ﴿بِإِذْنِهِ﴾ إشعاراً بأنّ نجاح الدعوة لا يكون إلاّ بإمداد وتوفيق من الله تعالى، لما فيها مِن صرف الناس عن الملل الأخرى التي اعتادوا عليها ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ يستضيء ببعثته الضالّون الباحثون عن الحقيقة.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾(٤٧)

٤٧- ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين استجابوا لدعوتك ﴿بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ يمتازون به من الجاحدين.

﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾(٤٨)

٤٨- ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ لا تجاملهم في أمور الدعوة ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ لا تبالِ بمحاولاتهم إيذاءك فلن يضرّوك شيئاً، ومن جهة ثانية لا تؤذهم ودعهم وشأنهم، لأن الدعوة فكرية مبنية على الخيار وليست قسراً ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فوّض أمورك إليه، فمَن يهدِ اللهُ فهو المهتدي، ومِن يُضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ على شؤون عباده.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾(٤٩)

٤٩- هذه القاعدة في عدم وجوب العدّة للمطلقة قبل المسيس عبارة عن مقدمة لما سوف يرد بالآية التالية من قواعد الزواج المنطبقة على النبي ﷺ دون غيره:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بإبرام عقد النكاح ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ إذا تمَّ الطلاق قبل المسيس، أي قبل الجماع ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ لا عدّةَ عليهنّ في هذه الحالة خلافاً لما ذُكر في آية [البقرة ٢/٢٢٨]، ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أعطوهنّ المتعة، انظر شرح الآيات [البقرة ٢/٢٣٦، ٢٤١]، ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ طلّقوهنّ ﴿سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ بلا عداوة ولا خصومة، بل طلاقاً مشتملاً على طيب الكلام عارياً عن الأذى، وقيل أيضاً: إن السراح الجميل ألاّ يطالبوهنّ بما آتوهنّ.

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(٥٠)

٥٠- عودة إلى موضوع الآيات (٣٢-٣٥)، لبيان أصناف النساء التي تحل للنبي ﷺ:

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهنّ ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ بعقد نكاح، وبلا مهر، لأن الحربة التي تتمتع بها الأمَة بعد زواجها من حرّ تعدُّ بمثابة مهر لها، وملك اليمين إشارة إلى سبايا الحروب الدينية الدفاعية ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ﴾ تنطبق على كل النساء من قريش، لأن والد النبي كان من قريش ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ

خَالاتِكَ﴾ تنطبق على كل النساء من بني زُهرة، لأن والدته ﷺ كانت من بني زُهرة ﴿اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ بشكل خاص، لأنّ هجرتهنّ معه أثبتت منتهى إخلاصهنّ له ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ بلا مهر، رغبةً منها بالفوز بشرف خدمته ﷺ، والدخول مع أمهات المؤمنين ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ الاستنكاح بمعنى النكاح، وإرادة النبي جارية مجرى قبول الهبة منها ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم تأخذ مهراً، أي هذه الخصلة في النكاح بلا مهر لا تنطبق على غيرك من المؤمنين ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ من مهور، والزواج بما لا يزيد عن أربع ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ بالزواج منهنّ بلا مهور ﴿لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ في الخصوصية التي تتمتّع بها من دون المؤمنين ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ كثير المغفرة ﴿رَحِيمًا﴾ وافر الرحمة.

﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾(٥١)

٥١- استمرار الخطاب من الآية المتقدمة:

﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ تترك نكاح من تشاء من نساء أمّتك ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ وتنكح منهنّ مَن تشاء (وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ) أي ممّن طلّقت، ليس عليه إثم ﷺ في إرجاع المطلّقة ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ فلا إثم عليك في الإرجاء والإيواء والابتغاء، فكل ذلك عائد لمشيئتك ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ بتفويض الأمر إلى مشيئتك ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ في قلوب النبي وأزواجه من عواطف ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ مبالغاً في العلم، عالماً بالظاهر وبالخفايا ﴿حَلِيمًا﴾ مبالغاً في الحلم، لا يعاجل بالعقوبة.

﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾(٥٢)

٥٢- ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ من بعد التسع اللاتي في عصمتك اليوم ﴿وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ ولا يحلّ لك أن تستبدل بأن تطلّق واحدة وتنكح أخرى ﴿إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ بعقد النكاح من التسع اللاتي بعصمتك ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ مراقباً لأحوال عباده.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾(٥٣)

٥٣- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾ لا تدخلوها في وقت من الأوقات إلا وقت أن يؤذن لكم، ولا تدخلوها إلاّ غير منتظرين نضوج الطعام ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ غير منتظرين نضجه ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ لأن المراد من الإذن إلى الطعام الدعوة إليه ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ إذا أكلتم الطعام تفرّقوا ولا تلبثوا، والخلاصة؛ إن النهي مختص بمَن دخل بغير دعوة وجلس منتظراً الطعام ﴿وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ فيضيع الوقت بالحديث ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ من إخراجكم ﴿وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي نساء النبي ﴿مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ السؤال من وراء حجاب أكثر تطهّراً من الخواطر الشيطانية التي تخطر للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال، لأن الرؤية سبب للتعلق والفتنة، ومع ذلك قالوا: إن الصحابة كانوا يسمعون منهنّ وهنّ مستترات الأبدان لا الأشخاص ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ بفعل يكرهه ويتأذّى منه كالدخول عليه من غير دعوة، وكاللبث والاستئناس بحديث ﴿وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ

أَبَدًا﴾ من بعد وفاته، فذلك من خصوصياته ﷺ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ من إيذاء الرسول، أو نكاح أزواجه من بعده ﴿كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أمراً عظيماً وخطباً هائلاً.

﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(٥٤)

٥٤- ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا﴾ على ألسنتكم مما لا خير فيه ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدوركم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصي.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾(٥٥)

٥٥- استئناف لبيان مَن لا يجب عليهنّ الاحتجاب عنه: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لا يخفى عليه شيء.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(٥٦)

٥٦- استمرار الخطاب في تعظيم شأن النبي: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ اختلفوا في معنى الصلاة من الله وملائكته على النبي، فمنهم مَن قال: هي الثناء عليه، وقيل: هي من الله رحمة، ومن الملائكة الدعاء له ﷺ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ قولوا: اللهم صلّ على النبي، دعاءٌ له ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ تحتمل عدّة معان، أحدها:السلامة أي سلمْتَ من النقائص والآفات، وثانيها: السلام من أسماء الله، فيكون المعنى: حفظك السلام من كلّ مكروه، وثالثها: يفيد الاستسلام والانقياد والإذعان، أي استسلمنا لأوامرك وسنّتك أيها النبي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾(٥٧)

٥٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالكفر والمعاصي الكبيرة، والمعنى مجازي بالنسبة إليه تعالى، وحقيقي بالنسبة إلى الرسول ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أبعدهم الله تعالى من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ في الآخرة خاصةً.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾(٥٨)

٥٨- ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بالقول أو بالفعل ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ بغير جناية يستحقون بها الأذيّة شرعاً ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا﴾ فعلاً شنيعاً، أو كذباً يبهت له الإنسان لفظاعته، إذا كان الإيذاء بالقول ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ ظاهراً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(٥٩)

٥٩- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ﴾ للتستر، والجلابيب جمع جلباب، وهو كل ثوب تلبسه المرأة فوق ثيابها، واختلفوا في كيفية هذا التستر لأنّ الآية أبهمته، ولعلّ الحكمة من ذلك مسايرة الأوضاع الاجتماعية في مختلف المجتمعات والعصور ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ بأنهنّ نساء عفيفات ﴿فَلا يُؤْذَيْنَ﴾ بالتعرّض لهنّ من أهل الريبة ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ كثير المغفرة ﴿رَحِيمًا﴾ كثير الرحمة.

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٦٠)

٦٠- ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ عن نفاقهم وإيذائهم ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ من المذبذبين أنصاف المؤمنين ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ المشاغبون

الذين يسببون الاضطرابات في المدينة ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ فندعوك إلى قتالهم وإجلائهم عن المدينة ﴿ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ ريثما يجلو عنها.

﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾(٦١)

٦١- ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ مبعدون من رحمة الله، أينما وُجدوا وحُصروا، في حال قتالهم ﴿أُخِذُوا﴾ أسرى ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ بأعداد كثيرة، لأن هذا معنى التقتيل، بسبب إصرارهم على الفساد والإفساد.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾(٦٢)

٦٢- ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ في وجوب قتال المفسدين من القوم وإجلائهم وقهرهم ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ في وجوب مثل هذه الأمور.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾(٦٣)

٦٣- ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ متى موعدها؟ وهو سؤال تحدٍّ من قبل المشككين العابثين المستهزئين المتعنتين ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا يطّلع عليها أحد من خلقه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ قد تتحقق في أقرب وقت، فالزمن الدنيوي نسبي، ولا تقاس به الأمور، بخلاف الزمن المطلق.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾(٦٤)

٦٤- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ على الإطلاق، أي أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ بما يتناسب مع كفرهم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ (٦٥)

٦٥- ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولّى شؤونهم ﴿وَلا نَصِيرًا﴾ ينصرهم.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾(٦٦)

٦٦- ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ فلا نُبتلى بهذا العذاب.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾(٦٧)

٦٧- ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ أطعنا الزعماء لمّا أغرونا بالدنيا، ولِما فيهم من قوة البطش ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ جعلونا ضالّين بما دعونا وأحبرونا عليه، وزيّنوا لنا الباطل.

﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾(٦٨)

٦٨- ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ لضلالهم في أنفسهم، وإضلالهم لنا ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ شديداً عظيماً بإبعادهم من رحمتك.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾(٦٩)

٦٩- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾ بمعصيته وتكذيبهم إياه، كقولهم له: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة٥/٢٤] وقولهم له: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء ٤/١٥٣]، ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ من تعنّتهم ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ ذا جاه، رفيع القدر، مستجاب الدعوة.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾(٧٠)

٧٠- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أقوالكم وأعمالكم ﴿وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ لتكن أقوالكم متوجّهة دوماً للحق بلا ريبة، ممّا يوافق ظاهرها باطنها.

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٧١)

٧١- ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ بقبولها، وبالتوفيق في المجيء بها صالحة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ باستقامتكم في القول والعمل يجعل أعمالكم مكفّرة لذنوبكم ﴿وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأوامر والنواهي ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لايقدّر قدره.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(٧٢)

٧٢- ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾ قالوا في الأمانة أقوالاً كثيرة: منها العقل ومقدرة الإنسان على الخيار بين الصواب والخطأ، وما يترتب على ذلك من مسؤولية، ومنها الطاعة التي هي من أفعال المكلّفين، كالتكاليف الشرعية والفرائض وصعوبتها، فهي كل ما يؤمن عليه ويُطلَب حفظُه ورعايتُه، وعبّر عنها بالأمانة تنبيهاً على أنها حقوق مرعيّة أودعها تعالى المكلّفين وائتمنهم عليها، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد، وقبلَ الإنسان حملَها رغم ثقل مسؤوليتها، مع الإيذان بأن ما صدر عن بني آدم من الطاعة كان بعد قبول الأمانة والتزامها اختياراً من غير جبر، وقد حملها الإنسان بما خُلِقَ وجُبِلَ عليه من استعدادٍ فطري، وبتكليفه إياها يوم الميثاق، وقبوله القولي لها، يوم أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم،[الأعراف ١٧٢/٧]، وعبّرَ تعالى عن ثقلِها بأن لو كُلّفت الأحرام السماوية بها وكانت ذات شعور وإدراك، لأبت حملَها اختياراً ولخافت منها ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ بعدم وفائه ما تحمّل من مسؤولية، فكان مفرطاً في الظلم، مبالغاً في الجهل، والإشارة إلى غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة، فلم يقهر سلطان العقل عندهم شهوتيْ الظلم والجهل، كما أنّ التكليف لم يعدّل قوى الظلم والجهل عندهم ولم يكسر حدّتها.

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(٧٣)

٧٣- ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ اللام في قوله ﴿لِيُعَذِّبَ﴾ لام العاقبة، والمعنى حملَ الإنسان الأمانة ليعذّب اللهُ تعالى بعض الناس الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة، فالتعذيب مترتّب على خيانتها والفشل بحملها، والخروج عن الطاعة والتكليف ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الفريق الثاني الذين نجحوا بحمل الأمانة، ولم يخلعوا الطاعة، وقاموا بالتكاليف رغم ما فرط منهم من أخطاء قلّما يخلو منها الإنسان بحكم طبيعته وجبلّته، فتداركوا أخطاءهم بالتوبة ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ كثير المغفرة، كثير الرحمة لأمثالهم.

سورة سبأ -٣٤-

مكية

مقدمة

نزلت في النصف الثاني من الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

اختتمت سور الأحزاب المتقدمة بأن الإنسان، من بين جميع المخلوقات، حمل العبء الثقيل للأمانة التي أمكنته من حرية الخيار الأخلاقي بين الحق والباطل، والصواب من الخطأ، وهذا العبء تكريم منه تعالى لبني آدم، وهو تكريم لم تنله حتى الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ثم إن الأكثرية من الناس لم تكن بمستوى هذه المسؤولية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (٧٢/٣٣)، وإن حال الإنسان في الآخرة مترتبة على نتيجة خياره الأخلاقي في الدنيا: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٣/٣٣)، ثم تفتتح سورة سبأ بأن الله تعالى مستحق الحمد في الآخرة لتحقق العدالة بها على أتم وجه: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ﴾ (١/٣٤)، وأن الذين أوتوا العلم من بني آدم على يقين من تحققها: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٦/٣٤).

وفي سورة الأحزاب أن المشككين يسألون عن الساعة: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنْ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾

(٦٣/٣٣)، ثم في سورة سبأ تأكيد وقوعها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ (٣/٣٤).

محور السورة

إنّ التشكيك بالآخرة ناتج عن عمى البصيرة لدى المكذّبين، إذ إن كل شيء في عالم المشاهدة، وفي عالم الغيب، يشير إلى حتميتها: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (٩)، مما يدل على أنّ ما يرونه من عالم المشاهدة هو أقل القليل مما هو في عالم الغيب، ثم في قصة سليمان نلاحظ أن المعارف الدنيوية لا تغني شيئاً إن لم يصاحبها الهدي الإلهي: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (١٤)، وفي قصة سبأ أن المنجزات البشرية مهما عظمت فهي عابرة وإلى زوال: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ (١٦)، وبالرغم من ذلك فالإنسان معتد بحوله وقوته، دائم الجحود يكفر النعمة: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاّ الْكَفُورَ﴾ (١٧).

لكن الغرور لا يصل بالمؤمنين إلى التبجح باحتكار الحقيقة، بل يتركون الحكم بينهم وبين المكذّبين إلى الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٤-٢٦)، رغم أن المكذّبين ينكرون إمكانية الوحي الإلهي مطلقاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (٣١) وإنكارهم ليس مقتصراً على القرآن بل على ما تبقى بين يديه من الوحي الصحيح من الرسالات السابقة، وبعبارة أخرى إنهم يريدون التهرب

ذهنياً من فكرة البعث والحساب كي يتصرّفوا في الدنيا على هواهم بلا أي وازع أخلاقي.

ثم إنّ الترف يؤدي بأصحابه إلى الظن أن نجاحهم المادي هو بحد ذاته دليل قاطع أنهم على صواب: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (٣٤-٣٥)، وقد يظنّون أن النعم التي يتمتعون بها دليل على رضا الله عنهم، في حين أن الله تعالى يبسط الرزق للمؤمن والكافر على السواء: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦)، وقد ينتهي بهم الضلال أن يصبحوا عبيداً للمادة والقيم الزائفة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (٤٠-٤١)، بل يعتذرون بتقليد الآباء والأجداد: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٤٣)، مع أنه ليس لديهم من الكتب السماوية ما يؤيد دعواهم ومزاعمهم: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ (٤٤).

وأن ما نزل من الوحي على الأمم السابقة لم يبلغ معشارَ ما نزل في القرآن الكريم على البشرية ما لا يترك لأحد عذراً بالجهل: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٤٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾(١)

١- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمائه ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ مُلكاً وتصرّفاً، بالإيجاد والإحياء والإماتة، لجميع ما وُجد في

السماوات والأرض داخلاً في حقيقتهما، ما ليس له في حدّ ذاته استحقاق الوجود، ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ﴾ أن كانت مرحلة ثانية من الحياة، تُكمِل الأولى، وتُظهر المغزى منها، وتكتمل بها العدالة ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أحكمَ أمرَ الدار الأولى، والدار الآخرة، بما تقتضيه الحكمة ﴿الْخَبِيرُ﴾ العالم ببواطن الأمور.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾(٢)

٢- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ ما يدخل فيها ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ تشمل الأشياء المادية، والمعنوية الروحانية معاً، فمن الأشياء المادية المياه التي تختفي في باطن الأرض ثم تظهر في الينابيع، وهنالك البذور المختفية في الأرض ثم تظهر بإنبات النبات، وهنالك النباتات التي تتفسخ في الأرض وتتحول إلى نفط وفحم، وهنالك جثث الأموات من بشر وحيوانات تتحوّل إلى مواد عضوية تغذّي النبات فينشأ منها حياة جديدة، وهنالك أبخرة المياه تصعد نحو السماء ثم تهبط بهطول الأمطار والثلج والبَرَد، ومن الأشياء الروحانية هنالك الأرواح والدعاء والكلم الطيّب وأعمال العباد الصالحة تعرج إلى السماء، والمراد بالسماء جهة العلوّ، ثمّ ما ينزل من السماء من الأرزاق ومن الوحي الإلهي كالقرآن، ثم الإلهام الذي يتنزّل على البعض فيتحدّد الإيمان ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بإنزال الأرزاق من السماء ﴿الْغَفُورُ﴾ عندما تعرج إليه الأرواح والأعمال.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٣)

٣- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ مع كل الإعجاز الذي تقدّم ذكره، زعَمَ المصمّمون على الكفر أن ليس هنالك من آخرة، وهذا الزعم يترتّب عليه نقطتان، الأولى: أن الكون خالد، فليس له بداية ولا نهاية في الزمان والمكان، وإنما يطرأ عليه التغيير فقط، ومن ثمّ إنكار أن الخلود غير متحقق إلاّ

لله تعالى وحده، والثانية: أن ليس هنالك من آخرة ولا بعث ولا حساب، فلا مغزى للحياة الدنيا ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ لا محالة، بخلاف ما تُنظِّرون، وتظنّون ظنّاً ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ الله تعالى وحده يعلم ما هو خارج عالم المشاهدة، وخارج نطاق التصوّر البشري ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ لا يبعد عنه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ علمُه القديم أحاط بكل شيء مهما صغُر أو كبُر.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(٤)

٤- استمرار الخطاب من الآية المتقدمة، والمعنى بلى وربّي لتأتينّكم الساعة ليتحقق الثواب والعقاب:

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بمجيء الساعة ضروري لتحقيق العدالة ولتحقّق المغزى من الحياة، فيُجزى الذين قرنوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ على ما صدر منهم من هفوات وأخطاء ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الرزق الروحاني في الجنة من السكينة والطمأنينة.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾(٥)

٥- ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ الذين أرادوا التعجيز، يحسبون أنهم كاملو الاعتماد على أنفسهم، ويظنّون أنهم يفوتون نظام الخلق بما فيه من أسباب ومسببات ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ الرجز والرجس بمعنى واحد، وهو القبيح المستقذر حسّياً أو معنوياً، وفي هذه الحالة فإن إصرارهم على الكفر وإنكارهم الآخرة قد لوّثَ نفوسهم بالخَبَث والقذارة الروحية، انظر آية [الأعراف ٧/٧١]، ويكون تقدير الخطاب: أولئك لهم عذابٌ أليمٌ من رجز، أي العذاب مترتّب على الرجز أو النجس الذي كانوا عليه في دنياهم، فالعذاب ليس اعتباطياً.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(٦)

٦- ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الذين أوتوا فهم القرآن ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ يسلّمون أنّ القرآن هو الحق، بعد أن فهموه، وفهموا إعجازه ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ﴾ القرآن يهدي إلى سبيل الله الغالب على أمره ﴿الْحَمِيدِ﴾ المستحق الحمد على نعمائه، سواءٌ حمدَه حامدٌ أم لم يحمد، في إشارة إلى الآية (١).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(٧)

٧- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المصرّون على الكفر يقولون ذلك في كل العصور ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ هو النبي ﷺ، يقولون ذلك استهزاءً ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يخبركم بأمرٍ عجيب ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ إذا صرتم في القبور وفنيت أجسادكم ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يقول لكم: إنكم سوف تُبعثون من جديد.

﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾(٨)

٨- ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ المعنى أنهم مقرّون بوجود الله، لكنهم منكرون للآخرة، فنسبوا قول النبي عن الآخرة إلى الكذب والافتراء بظنّهم ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ زعموا: إن لم يكن كاذباً فهوَ مجنون ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ منكرو الآخرة ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ المترتّب على إنكارهم، لتحقّق الرجس فيهم، وهذا العذاب دنيوي، لأن الضلال البعيد التالي ذكره لا معنى له أن يكون في الآخرة، والعذاب الدنيوي ينتج عن التخبط الأخلاقي وانعدام القيَم الأخلاقية، والفساد، لرغبة المنكرين اللاشعورية في التهرب من المسؤولية والحساب ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ هُم في كمال اختلال العقل وغاية الضلال الذي هو الجنون حقيقةً، فقد أنكروا حكمة الله تعالى في خلق الكون ولزوم الآخرة.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾(٩)

٩- ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من عالَم المشاهدَة، يعاينونه أينما توجّهوا، ما يدلّ على كمال قدرته وحكمته عزّ وجل، فكيف يزعمون قصور قدرته عن البعث والإحياء؟ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ من عالم الغيب الذي لا يحيطون به؟ ما هو فوق تصوّرهم، وأكثر بكثير من عالَم المشاهدة ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ﴾ بالزلزلة فجأةً، فتفوتهم فرصة التوبة ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قطعاً من السماء، كالنيازك والمذنّبات والأشعّة الكونية تسقط عليهم، ما يدل على تفاهة الإنسان وضعفه غير المتناهي تجاه العَظَمة والمعرفة الإلهية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ دلالة ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ لديه استعداد أن يرجع إلى ربّه بالتوبة، ويترك التعصّب.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾(١٠)

١٠- ارتباط الخطاب بما قبله لكون الآية المتقدّمة ختمت بأن كل عبد منيب يرى دلالةً في الإعجاز الكوني، فهذه الآية تضرب مثلاً داود لكونه أناب إلى ربّه، انظر قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص ٢٤/٣٨]:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً﴾ لِحسن إنابته وتوبته ﴿يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ رجّعي معه التسبيح وردّديه، إشعاراً أن ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلاّ وهو منقاد لمشيئته تعالى غير ممتنع على إرادته ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ من المعروف تاريخياً أن العصر البرونزي كان قد انتهى في فلسطين قبل عهد داود بزمن، ثم إن داود كان يستورد فلز الحديد إلى فلسطين خصيصاً لصناعة الدروع، ولأغراض أخرى منها صناعة الأدوات المعدنية اللازمة للزراعة والحراثة، وهو معنى الآية، انظر [الأنبياء ٧٩/٢١-٨٠].

﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١١)

١١- ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ أعمالاً سابغات، أي صالحة وافرة وكاملة، لأنّ سابغات مشتقة من ﴿أَسبِغْ﴾ انظر [لقمان ٢٠/٣١]، ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ ليكن عملك مستمرّاً، وهو معنى السرد ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أيها الناس ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فتكون العواقب بحسب أعمالكم.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾(١٢)

١٢- ﴿وَلِسُلَيْمَانَ﴾ سخّرنا ﴿الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ من أجل أساطيله التجارية العاملة في البحر الأحمر تسير ذهاباً وإياباً شهراً بشهر إلى الحجاز، بما فيها مكة المكرمة والكعبة المشرّفة، وكان سليمان يخدم الأراضي المباركة في فلسطين والحجاز، واستخدام سليمان لأساطيل تجارية في البحر الأحمر، وفي البحر الأبيض المتوسط، ثابت تاريخياً، انظر قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ أي بأساطيله التجارية ﴿رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص ٣٦/٣٨]، انظر أيضاً [الأنبياء ٨١/٢١]، ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ فلزّ النبرونز من الحديد والنحاس، وقد ورد ذلك أيضاً في العهد القديم، انظر (سفر الأيام الثاني/٤)، ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ شياطين الإنس والجنّ تعمل بأمره ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ انظر [الأنبياء ٨٢/٢١]، ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(١٣)

١٣- ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ﴾ جمع محراب، في المعابد ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ كانوا يضعونها في معابدهم ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ وأحواض كبيرة كالسواقي التي تجري فيها المياه ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ جمع قدر، وهو ما يُطبخ

فيه، وراسيات أي القدور ثابتات على الأثافي أي الركائز التي تحتها ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ لأن شكر النعم لا يكون بمجرّد القول بل بالعمل النافع ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ حتى المتّقون منهم، لا يستطيعون أن يشكروا الله حقّ الشكر على نعمائه.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾(١٤)

١٤- ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ المنسأة العصا، والقصة تفيد أن سليمان كان متكئاً على العصا عندما حان أجلُه، فلم يخرّ على الأرض إلاّ بعد أن أكلت قوارضُ الأرض عصاه، وعندئذٍ فقط علمت الجنّ بوفاته، بعد أن كانت تعمل بأمره وتحت ناظره، وقد تكون هذه القصة رمزية كغيرها من بعض القصص القرآنية، والعبرة منها توضح ضعف الإنسان وتدبيره بغض النظر عمّا كان يظن في نفسه من قوة وجبروت وهو في أفضل حالاته من القوة والسلطة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية توضح أن علم الغيب ممتنع حتى على الجنّ، ومن ثمّ فإن جميع المخلوقات معتمدة بالكلية على الهدي الإلهي ولا تكفيها العلوم الدنيوية مهما تقدّمت ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ سقط سليمان على الأرض ميتاً ﴿تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ لو علموا ما هو خارج عالم المشاهَدة، لعلموا أن سليمان قد توفّي في حينه ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ فقد استمرّوا بالعمل وسليمان قد مات.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾(١٥)

١٥- اتصال هذه الآية مع قوله تعالى بالآية (١٣): ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ أي حتى المتّقين منهم، لأنّ أهالي سبأ، على النقيض من الشكر، جحدوا النِعم: إذ كانت مملكة سبأ الواقعة في جنوب غرب الجزيرة العربية في أوج ازدهارها في الألف الأول قبل الميلاد مكوّنة من اليمن وجزء كبير من

حضرموت والحبشة، وعاصمتها مأرب، واشتهرت في عصرها بنظام ريّ رائع مكون من السدود والقنوات لا يزال بعضها باقٍ إلى اليوم، وأكبرها سدّ مأرب الذي اشتهرت به، ويبدو أن الفترة التاريخية التي تشير إليها هذه الآية كانت بعد زمن بلقيس ملكة سبأ بكثير، انظر سورة [النمل ٢٧/٢٣-٤٤]، أي بعد الأعوام ٩٧٠-٩٣٥ ق.م وهي فترة حكم سليمان:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ موطنهم ﴿آيَةٌ﴾ معجزة ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ بلاد زراعية غنية وممتدة إلى الشرق والغرب من عاصمتهم مأرب على حوافّ الربع الخالي ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ من نتاجها ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ بالقول والعمل ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ بلدتكم مأرب، بلدةٌ طيبة ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ يغفر الزلّات والأخطاء.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾(١٦)

١٦- ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ جحدوا وكفروا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ السيل الصعب، نتيجة انهيار سد مأرب لأول مرة، ولا يعرف تاريخه على وجه التحديد، ممّا أدى لخراب أراضٍ شاسعة نتج عنها هجرة الكثير من قبائل قحطان الجنوبية نحو شمال الجزيرة العربية، ومع أنه تم إصلاح السدود وشبكة الري بعد ذلك فإن سبأ لم تعد إلى سابق عهدها من الازدهار، وتلا ذلك الانهيار الثاني والنهائي لسد مأرب بضع عشرات من السنين قبل ظهور الإسلام ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ بأراضيهم الزراعية الغنية نحو الشرق والغرب ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ مرّ ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ الأثل والسدر من الأشجار الصحراوية، والمعنى تحوّلت من أراضٍ ذات إنتاج زراعي خصب ووفير إلى أراضٍ صحراوية لا تكاد تفي بالحاجة.

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾(١٧)

١٧- ﴿ذَٰلِكَ﴾ الانهيار الذي حدث، وما تلاه من التدهور في الزراعة ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ بما كسبت أيديهم من الفساد والغرور والعمى الروحاني، واعتبارهم أن ما وصلوا إليه من الحضارة والغنى استحقوه بمحض مهارتهم واستحقاقهم ولا علاقة له بالتوفيق الإلهي ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ فلا شيء اعتباطي، والجزاء مترتّب على العمل.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾(١٨)

١٨- ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بينهم وبين مكة المكرمة والقدس ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ بعضها على مرأى من بعضها الآخر ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ جعلنا السفر بينها سهلاً ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ بلا خوف.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(١٩)

١٩- ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ زعموا أنّ ما توصّلوا إليه من الترف والنِعم، وسهولة تنقّلهم، وسفر قوافلهم التجارية بين اليمن والحجاز وبين بلاد الشام، كل ذلك ظنّوه نتيجة مهارتهم ومقدرتهم وذكائهم المحض، فبطروا وكفروا وتحدّوا أن تكون أسفارهم أبعد وأشقّ من ذلك، وظنّوا أنهم مالكو أمورهم بالمطلق ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ باعتدادهم بأنفسهم واستكبارهم وغرورهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ جمع أحدوثة، أي صاروا أحاديث على ألسنة الناس تحكي غابر تاريخهم ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ بانهيار سدودهم وتفرقهم وهجرتهم في البلاد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دلالات ورسالات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ يصبر على دواعي الهوى ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه تعالى، فلا ينسبها لمحض جدارته.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢٠)

٢٠- ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ وجد ظنّه في سبأ صادقاً ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ اتّبعوا وساوسه، ما نتج عنه استكبارهم وغرورهم وفسادهم ﴿إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يتّبعوه.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾(٢١)

٢١- ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ فلا يستطيع سوى الغواية، دون القهر والإجبار ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ﴾ من الذين يرفضون وساوس إبليس ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ في شك من الآخرة، من الذين يتقبّلون وساوس الشيطان، والمغزى من وساوس إبليس أنها تفرز الذين يقبلونها ويخرجونها إلى نطاق التنفيذ، من الذين يرفضونها، ممّا يترتّب عليه الثواب والعقاب، وليس مجرّد علمه تعالى بالغيب ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ قائم على أحوال كل شيء.

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾(٢٢)

٢٢- بعد انتهاء قصة سبأ وبيان العبر منها، وبعد أن ذكرت الآيات (٧-٩) أنّ من الكفار من ينكر الآخرة، تبيّن الآيات (٢٢-٢٧) أن منهم المشركين الذين يعتقدون الشفاعة في شركائهم:

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الذين زعمتم فيهم الألوهية ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ عاجزون لا يقدرون على شيء ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ لا يملكون شيئاً ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ الله تعالى ليس بحاجة إليهم.

﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾(٢٣)

٢٣- ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ تشريفاً له، وعندما يكون المشفوع له تقياً مستحقاً، أما شركاؤهم وآلهتهم فلا تشفع في شيء ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ زال الفزع عنهم ﴿قَالُوا﴾ بعضهم لبعض، أي الذين بُعثوا ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ماذا حكمَ فيكم؟ ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ أي حكمُه تعالى فينا هو الحقّ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ عن الشركاء.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(٢٤)

٢٤- ﴿قُلْ﴾ أيها المؤمن لهؤلاء المشركين ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ وحده يرزقكم، في حين أنّ الشركاء المزعومين لا يقدرون على شيء ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ وهذا القول من قبيل التواضع، ومعناه؛ إننا لا ندّعي احتكار الحقيقة، ولكن من المؤكد أنّ أحدنا على ضلال، وهو الأدب في النقاش والجدال.

﴿قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢٥)

٢٥- ﴿قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ نسبوا الإجرام إلى أنفسهم ولم ينسبوه إلى المشركين، إمعاناً في الحرص على مشاعر الآخرين، والأدب في الدعوة، انظر [النحل ١٦/١٢٥]، ﴿وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لأن كل إنسان يتحمل عاقبة عمله.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾(٢٦)

٢٦- ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ يومئذٍ يتبيّن لكم الحق من الباطل ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ القاضي في القضايا المنغلقة، فكيف بالواضحة؟ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما ينبغي القضاء به.

﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢٧)

٢٧- ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ إذ كنتم تعبدون أوهامكم ونزواتكم ﴿كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ وحده المستحق للعبادة ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب القاهر ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(٢٨)

٢٨- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أيها النبي ﴿إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ رسالة الإسلام عالمية ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ إن الرسالات السماوية قد ختمت بالإسلام.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢٩)

٢٩- ﴿وَيَقُولُونَ﴾ منكرو الآخرة ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ بيوم القيامة المشار إليه بالآية (٢٦)؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم؟

﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾(٣٠)

٣٠- ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ إذا فاجأكم ﴿لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ لا يمكنكم تقديمه ولا تأخيره.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾(٣١)

٣١- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كفروا بالرسالات السماوية مطلقاً، بالقرآن وبما تبقى بين يديه من الوحي الصحيح من الرسالات السابقة اليهودية والمسيحية، وبهذا الإنكار يظنّون أنّ بإمكانهم التصرف في الدنيا على هواهم بلا أي رادع ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يوم الحساب ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ في جدل عقيم ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ من الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ من الزعماء الذين كانوا منهمكين في الدنيا ﴿لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بما جاءت به الرسل.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ﴾(٣٢)

٣٢- ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ من الزعماء ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ من الأتباع ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ تبرأ الزعماء من الأتباع ﴿بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ باختياركم، إذ اتبعتم أهواءكم ومصالحكم الشخصية.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣٣)

٣٣- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ كنتم ممكرون بنا ليلاً نهاراً استغلالاً لنا ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ تنفون أن يكون هنالك إله وبعث وحساب ﴿وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ بأن نجري وراء مكاسب دنيوية زائلة ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فصارت أرواحهم حبيسة ما كانوا عليه من القيم الزائفة ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلا شيء يتم اعتباطاً، وكل عمل يحمل نتائجه في طيّاته.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾(٣٤)

٣٤- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ في مجتمع من المجتمعات ﴿مِن نَّذِيرٍ﴾ نبي من الأنبياء ﴿إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ الغارقون في ملذّاتهم ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ سلفاً قبل أن نطّلع على فحوى الرسالة، استكباراً وخوفاً على مكاسبهم الدنيوية.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(٣٥)

٣٥- ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا﴾ منكم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ فليس هنالك من بعث ولا ثواب ولا عقاب.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(٣٦)

٣٦- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يبسط له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ بالقليل على من يشاء ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ قد يظنّون بسط الرزق تكريماً لهم، ودليل رضا الله عنهم، ولا يعلمون أن الله تعالى يبسط الرزق للناس مؤمنهم وكافرهم، بحسب الحكمة، ولو بسط الرزق للمؤمنين فقط لانتفى الخيار الأخلاقي ولصار الإيمان إلجاءً.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾(٣٧)

٣٧- ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ ليست العبرة عند الله بكثرة المال والولد ﴿إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ لكن العبرة بالإيمان والعمل الصالح ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ أضعافاً مضاعفة ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الصالحات ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ﴾ في منازل الجنة العالية ﴿آمِنُونَ﴾ من مكاره الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾(٣٨)

٣٨- ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالرد والطعن فيها ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ لغرض التعجيز بزعمهم ﴿أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ بنتيجة ما قدّموا.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(٣٩)

٣٩- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ فلا تخشوا الفقر وأنفقوا في سبيل الله ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ في سبيله ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ يعطي بدله عوضاً عنه ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لأنه وحده الرزّاق حقيقةً، بتسخيره الأسباب.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾(٤٠)

٤٠- ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ المشركين والكفار ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ لأنهم كانوا يضللون أنفسهم بعبادة قوى وهمية، كعبادة الثالوث عند المسيحية، وقد يزعمون أنها ملائكة.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾(٤١)

٤١- ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أنت مولانا، ولا موالاة بيننا وبينهم ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ كانوا يعبدون الزيف والأوهام، لأن تعبير الجن مشتق من الخفاء ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ لشدة ما كانوا عليه من الضلال.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾(٤٢)

٤٢- ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ القيم الزائفة والأوهام والزعامات لا تفيد أصحابها، وإن أفادتهم موقتاً في الدنيا فهي تخذلهم في الآخرة ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ كنتم تكذبون أن أعمالكم السيئة وعبادتكم المادة ذات عواقب وخيمة، فلم تكترثوا.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(٤٣)

٤٣- ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ آيات ناطقة بالتوحيد ومبطلة للشرك ﴿قَالُوا﴾ وهو قول يقوله الكفار في كل زمن ﴿مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ فتمسكوا بتقليد الآباء والأجداد ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا﴾ القرآن ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ كلام لا مصداق له ﴿مُفْتَرًى﴾ بإسناده إلى الله عز

وحلّ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ نسبوا بعثته ﷺ إلى السحر لمّا عجزوا عن معارضتها.

﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾(٤٤)

٤٤- ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ﴾ سماوية ﴿يَدْرُسُونَهَا﴾ فتثبت لهم عقائدهم الفاسدة من شرك وعبادة الأوهام ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يدعوهم إلى الشرك.

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾(٤٥)

٤٥- ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الأمم التي جاءتها الرسل في الماضي ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ ما أوحينا إلى الأمم البائدة عن طريق رسلهم لم يبلغ معشار، أي عشر، ما نزل على قريش في القرآن الكريم ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ كيف كان إنكاري لتكذيبهم بما نزل عليهم من الدمار، والمغزى أن لا عذر للعرب بإنكار رسالة الإسلام فهي أقوى بعشر مرات على الأقل مما نزل على الأمم قبلهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(٤٦)

٤٦- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ أعظكم وأنصحكم بخصلة واحدة ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ بصحبة مجموعة منكم، أو منفردين ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ الأمر من البساطة بحيث لا يحتاج إلاّ للتفكير الموضوعي للتوصل إلى الإيمان والتوحيد ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ فليس من جنون في النبي كما تدّعون ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ينذركم بعواقب الأمور في الحياة الآخرة.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٤٧)

٤٧- ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ المعنى لم أطلب منكم تعويضاً مادياً دنيوياً على تبليغ الرسالة ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ من الثواب فقط ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فقد أبلغتم الرسالة، ولا تضرّونني شيئاً.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾(٤٨)

٤٨- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهقٌ، فيزيله، انظر [الأنبياء ١٨/٢١]، وأيضاً إن الله تعالى يقذف بالحق في قلوب عباده المؤمنين، أو الذين لديهم قابلية للإيمان، فيؤمنون ويزداد إيمانهم ﴿عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ يعلم ما في قلوب خلقه من ميول، وما جُبلت عليه.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾(٤٩)

٤٩- ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ وزهق الباطل، ببعثة النبي ﷺ ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾ الكفر والشرك ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ لأن الباطل في حد ذاته ليس سوى وهم، فكيف للوهم أن يفعل شيئاً؟

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾(٥٠)

٥٠- ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ وحدي أتحمّل عاقبة الضلال ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ والاهتداء بهدايته تعالى ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ للدعاء ﴿قَرِيبٌ﴾ من عباده.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾(٥١)

٥١- ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أيها الرسول، أو أيها المؤمن ﴿إِذْ فَزِعُوا﴾ فزع الكفار يوم القيامة ﴿فَلا فَوْتَ﴾ لا يفوتون الله عزّ وجلّ، وليس لهم من مفرّ يفرّون إليه ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ وليس أقرب من داخلهم ونفوسهم.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾(٥٢)

٥٢- ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ بالقرآن ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ المعنى لا يفيدهم الإيمان بعد أن فارقوا الدنيا، والبعد المعنوي بين الدنيا والآخرة لا متناهٍ.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾(٥٣)

٥٣- ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ﴾ بالقرآن ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في دنياهم ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ كانوا في دنياهم يُنظِّرُون بما ليس لهم به علم من عالَم الغيب ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ بُعد المسافة المعنوية بين عالَم المُشاهَدة وعالَم الغيب.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾(٥٤)

٥٤- ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من دخول الجنة، أو من العودة إلى الدنيا لتكون لهم فرصة ثانية، أو ما يشتهون من التوبة بعد فوات الأوان ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ لأن سنّة الله في أمثالهم لا تتغيّر ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ من الوحي، فكانوا يقارنون ما يمكن أن يفوتهم من ملذّات الدنيا وزخرفها على فرَض أن ليس مِن آخرة ولا بعث ولا حساب.

سورة فاطر -٣٥-

مكية

مقدمة

نزلت في النصف الأول من الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة سبأ الشكر لا يكون بالقول فقط بل بالعمل: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ (١٣/٣٣)، ثم في سورة فاطر العمل الصالح يرفع الكلم الطيب: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (١٠/٣٥).

وفي سورة سبأ الكفار مصرّون على إنكار الوحي مطلقاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (٣١/٣٤)، مع العلم أنّ ما سبق نزوله من الوحي على الأمم السالفة لم يبلغ معشار ما نزل في القرآن الكريم: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٤٥/٣٤)، ثمّ في سورة فاطر أن كفار قريش في زمانهم، والكفار في كل زمان، مستكبرون ينفرون من القرآن بالرغم من مزاعمهم أنهم على استعداد للهداية، إذ يصدّهم الاستكبارُ والمكر السيّئ عن القرآن: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ (٤٢/٣٥-٤٣).

وفي سورة سبأ أن ليس لدى الكفار من كتب سماوية تؤيد ما يذهبون إليه من ضلال: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ

نَذِيرٍ﴾ (٤٤/٣٤)، ثم في سورة فاطر أن الله تعالى أورث القرآن لأمة الإسلام فكان منهم الظالم، ومنهم الوسط ممن خلطوا عملاً صالحاً وعملاً سيئاً، ومنهم السابق بأعمال الخير: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٢/٣٥).

وفي سورة سبأ الكفار يؤمنون بعد الفوات فلا يفيدهم إيمانهم المتأخر: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٢/٣٤)، والسبب في ذلك تبينه سورة فاطر: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ (٣٧/٣٥).

محور السورة

إنّ أعمال الكفار رغم بشاعتها تبدو لهم حسنة: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (٨)، وعلى النقيض من ذلك فإن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب المنبثق عن عقيدة صحيحة ونية حسنة، أي إنّ الفعل أعلى من القول، ينال به صاحبُه العزّة، ويبور مكر السيئات: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (١٠)، والنتيجة أن موتى القلوب ليسوا كمَن يستفيد من العقل السليم: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٢٢) وهي القبور المعنوية وليست الحسية فقط، ومن ثم فإن العلماء وحدهم -لا سواهم- يخشون الله خشية حقيقية، وإن بلغت عبادة غيرهم لله ما عسى أن تبلغ، لأنه لا يخشى أحدٌ أحداً إلا مع معرفته، ولا يعرفه جاهل: ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٢٨).

وأن الله تعالى بعد أن وهب العقول لعباده أطال مكثهم في الدنيا، ولم يعاجلهم بالأخذ، لعلهم يتذكّرون ويتوبون: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ (٣٧)، بل إنه أنعم على عباده -بعد العقل- بالأدلة النقلية من الكتب السماوية ما يؤيّد العقل: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ (٣٧)، لكن الاستكبار والمكر السيّئ وقفَ حائلاً بين الحقيقة وبين منكريها: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ (٤٣)، غير أنّ الله تعالى يمهلهم للحساب ولا يهملهم: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ (٤٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١)

١ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي موجدهما ومبدعهما على غير مثال سابق، وأصْل الفطر الشق، كأنه تعالى شقّ العَدَم فأوجدهما ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ وسائط بينه وبين أنبيائه، والصالحين من عباده، يبلّغون إليهم رسالاته سبحانه، بالوحي وبالإلهام وبالرؤيا الصادقة ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ قد تكون إشارة إلى الوسائل المتعددة التي بواسطتها تنفُذ مشيئته تعالى في الكون ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ لأن الخلق في تغيّر وتجدّد دائمين ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يخرج عن إرادته شيء.

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢)

٢- ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ يطلقها ويرسلها ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ لا أحد يقدر على منعها ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ من رحمة أو غيرها ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فلا أحد يقدر على إرسالها ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل ما يشاء من

الأمور التي من جملتها الفتح والإمساك ﴿الْحَكِيمُ﴾ يفعل كل مل يفعل بحسب الحكمة والمصلحة.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾(٣)

٣- ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ راعوها واحفظوها، بمعرفة حقّها والاعتراف بها ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ فمن نعمه نعمةُ الإيجاد، ونعمة الإبقاء، ونعمة المطر، ونعمة إنبات النبات ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ بعد أن بيّنت الآية أنّه تعالى متفرّد بالألوهية وبالخلق وبرزق العباد، فكيف يُصرَفون عن التوحيد إلى الشرك؟

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾(٤)

٤- ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ أيها النبي، مع كل ما سبق من البيان والإعجاز ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من طبيعة المجتمعات الإنسانية أن دَرَجَت على تكذيب الرسل منذ القِدَم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ من سنّة الله في خلقه أن ترك للناس حرية الخيار، وإليه ترجع الأمور في بعث الرسل وهدي الأمم.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾(٥)

٥- ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ في البعث والحساب ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بمادّتها وبمباهجها وزخرفها ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي المبالغ في الغرور، وهو كل ما يغرّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وسلطان وشيطان، وهو من قبيل الضلالات التي تزيّن للمرء عملَه السيّئ، فيبدو في نظره حسناً، وتمنّيه بالجنة والمغفرة رغم المعاصي، فهوَ من قبيل التمنّي الخادع، انظر [لقمان ٣١/٣٣].

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(٦)

٦- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ بوساوسه السيئة ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بطرد وساوسه ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ لأنه يزيّن لمن يتّبعونه سوءَ عملهم، ويدعوهم إلى اتّباع الهوى والركون إلى ملذات الدنيا.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(٧)

٧- ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ باستجابتهم لوساوس الشيطان ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بصبرهم على الطاعة والتكليف.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(٨)

٨- ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ اعتقد السيّئ حسناً، كما في الآية (٦)، هل هُوَ كَمَن رأى عمله على حقيقته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ فيخلّيه لنفسه ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ يوفّقه للهداية بحسب استعداده ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ فلا تغتمّ، أيها النبي، وأيها المؤمن، إن لم يؤمنوا جميعاً، وإن لم يهتدوا إلى الصراط المستقيم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ يعلم ما يختارون ويقدّمون لأنفسهم من خير أو شر، فتلك سنّته تعالى في خلقه.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾(٩)

٩- مزيد من البراهين على النشور حتى الآية (٢٨): ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ بلد مات نباتُه من القحط ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ المطر أحيا الأرض بعد أن ماتت زروعُها ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ إحياء الأموات يوم الحساب، والبرهان على البعث.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾(١٠)

١٠- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ الشرف والمنعة اعتزازاً بشخصه ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ في الدنيا والآخرة ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ الكلام الحسن، والدعاء الذي لا ظلم فيه، الذي يستطيبه العقل السليم ولا يردّه، يصعد إلى الله تعالى ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ العمل الصالح يرفع الكلم الطيب إلى الله تعالى، وأيضاً: العمل الصالح يرفع صاحبَه ويشرّفه ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ يمكرون مكر السيئ، فيبتكرون الحجج الفاسدة ضد ما هو حقّ، وينكرون الحياة الآخرة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ مكرهم يفسد، لأنّ حججهم باطلة، فلا يحيق المكر السيئ إلاّ بأهله.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(١١)

١١- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون ٢٣/١٢]، ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ لقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون ٢٣/١٣]، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ من ذكر وأنثى ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ يعلمُ تعالى جميع خلقه ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ يزيد في عمره ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ في علم الله القديم يوم خلقَ السماوات والأرض ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه تعالى عن الأسباب.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١٢)

١٢- استمرار الخطاب لقوله: إن ذلك على الله يسير، ومنه الكثير من آيات الخلق التي تدهش العلماء بإعجازها: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ يكسر العطش ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ مياه الأنهار العذبة تستسيغ النفس شربها ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ مياه البحار شديدة الملوحة ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ اللولو والمرجان ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ السفن تمخر البحار ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ما فيه مصالحكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعرفون حقوقه تعالى، فتشكرون نعمه بالقول والعمل.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾(١٣)

١٣- ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ بكُرويّة الأرض ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ للحياة على الأرض ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ الأجَل يوم القيامة، يوم تتغير الأرض غير الأرض والسماوات ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ والتصرّف فيه ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من أوهامكم ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ مَثَل للشيء الدنيء الطفيف، كالقشرة على رأس نواة التمر، وكقشر الثوم، والمعنى؛ إن شركاء الوهم الذين تدعونهم لا يملكون شيئاً على الإطلاق، فالمُلك لله وحده.

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(١٤)

١٤- ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ هؤلاء الشركاء الذين تشركون ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم إمّا مخلوقات جامدة كالأوثان، أو وهمية من اختراع العقل، أو عاجزة كالزعماء والقدّيسين والأولياء ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يكفرون بعابديهم، كناية عن اكتشاف المرء للحقيقة يوم القيامة، وما كان عليه في دنياه من الوهم ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ الله تعالى.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(١٥)

١٥- ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أنتم بحاجة إلى نِعَمه تعالى: نعمة الإمداد بالحياة، ونعمة الصحّة، ونعمة الرزق، فالإنسان خُلِقَ ضعيفاً، [النساء ٢٨/٤]، ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ غنيّ عن عباده ومخلوقاته، مستحقّ الحمد على نعمائه، المحمود بذاته.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(١٦)

١٦- ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ لا تعرفونهم، ليسوا على صفتكم من الجحود والشرك، هذا في المعنى العام، وفي المعنى الخاص: إن يشأ يذهبكم أيها العرب، أو أيها المسلمون، ويأتِ بخلق جديد أقدر منكم على حمل رسالة الإسلام.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾(١٧)

١٧- ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ليس صعباً، إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، [يس ٨٢/٣٦].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾(١٨)

١٨- استمرار الخطاب من الآية (٨): ﴿وَلا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَى﴾ كل إنسان يتحمّل مسؤولية أعماله، فلا تحملُ نفسٌ إثمَ نفس أخرى، بل تحمل كل نفسٍ وزرها ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا﴾ نفسٌ مثقلةٌ بالأوزار، أي بالذنوب، تدعو الآخرين للمشاركة في حمل ذنوبها ﴿لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ فيستحيل، وليس من العدالة في شيء، نقل عبء الذنوب من نفس إلى أخرى ﴿وَلَوْ كَـانَ ذَا قُرْبَى﴾ ولو كان المدعو إلى المشاركة في حمل الذنوب من الأقرباء، وهذه الآية بالمناسبة تنفي العقيدة المسيحية القائلة بافتداء الناس من خطاياهم بالنيابة،

أي زعمهم بأنّ المسيح بموته المزعوم على الصليب، افتدى خطايا البشرية سلفاً، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ لأنهم توصّلوا إلى معرفته غائباً عن إدراكهم الحسّي ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ كما ينبغي ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ من تطهّرَ من الأوزار يقتصر النفع عليه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازي كلَّ مسؤول عن ذنبه، لا أحد غيره.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾(١٩)

١٩- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي بعد كل هذه الحجج التي بدأت بالآية (٩)، لم يبقَ للمُكابر المعاند إلاّ أن يكون أعمى القلب، إذ لا يستطيع إبصار الحقيقة كما يراها الذي على بصيرة.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾(٢٠)

٢٠- ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ ظلمات الجهالة ليست مثل نور العلم والمعرفة.

﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾(٢١)

٢١- ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ ثواب العالِم المؤمن ليس كعاقبة الكافر والجاهل.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾(٢٢)

٢٢- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ تشبيه الأحياء والأموات، بالعلماء والجهلاء، وأيضاً تشبيه المؤمنين بالأحياء، والكفار بالأموات بسبب موت مداركهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ مَن يشاء سماع الآيات سماع فهم وتدبّر، وليس مَن يسمعها سماع الببغاء، أو سماع الجحود والإنكار ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ أيها النبي، أو أيها المسلم، أو أيّها الداعية ﴿بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ليس

باستطاعتك إسماع المصرّين على الكفر، شبّهتهم الآية بالأموات في قبورهم، فلا سبيل لسماعهم، انظر [البقرة ٢/٦].

﴿إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾(٢٣)

٢٣- ﴿إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ بلا إكراه ولا إجبار، هذا كلّ ما في الأمر.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٢٤)

٢٤- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ داعياً إلى الحقّ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ بشيراً لِمَن آمن، ونذيراً لِمَن كفر ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ كل أمّة جاءها رسول من الرسل، فلم يبقَ لأحد من عذر بالجهل.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾(٢٥)

٢٥- ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ أيها النبي ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم العاتية ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الآيات البيّنات تكشف لهم الحقيقة ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ بالكتب المقدّسة ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ كالتوراة والإنجيل، فليس من المستغرب أن كذّبوا ويكذّبون النبي ﷺ.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾(٢٦)

٢٦- ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا على الكفر بلا توبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ كيف كان إنكاري عليهم، وما كان من عاقبة أمرهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾(٢٧)

٢٧- ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الإنسان ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ أخرج بالمطر نباتاً ذا ثمرات متنوّعة ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ خلق تعالى الجبال من طبقات جيولوجية تتجدد وتتراكم على مر العصور ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ هذه الطبقات الجيولجية،

المكوَّنة منها الجبال، ذات ألوان مختلفة كما يراها الناظر في مقاطع الجبال والكهوف والهضاب ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ومن هذه الطبقات الجيولوجية الأسود شديد السواد، كما هي الحال في صخور البازالت، لأنّ الغربيب هو الذي أبعدَ في السواد، فيقولون أسود غربيب، ومنه الغُراب.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(٢٨)

٢٨- ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ خلقها الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ العلماء يعرفون الله حقّ المعرفة فيخافونه ويرجونه، وهم العلماء الذين بالإضافة لعلومهم الدنيوية يتمتعون بجانب من المعرفة الروحانية، لأنهم يدركون من دراساتهم أنّ ما يلاحظونه بحواسّهم من عالم المشاهَدة لا يمكن أن يعبِّر عن كامل الحقيقة التي لا يمكن الإلمام بها إلاّ بالإقرار بوجود عالم الغيب، الذي يغيب تصوّرُه عن إدراك البشر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ كامل القدرة ﴿غَفُورٌ﴾ للتائبين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾(٢٩)

٢٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ ويتّبعون ما ورد فيه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ لأنّ الإنفاق يصدّق إيمانهم ﴿سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ الإنفاق سرّاً للنفل، وإنفاق العلانية للفرض ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ لن تفسد، ولن تكسد.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٣٠)

٣٠- ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ الله تعالى ﴿أُجُورَهُمْ﴾ بما يستحقّون ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من خزائن رحمته مايشاء ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ لهفوات المؤمنين العاملين ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعاتهم، مجازيهم عليها أكمل الجزاء.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾(٣١)

٣١- ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾ هو القرآن، وقوله: من الكتاب أي هو من جنس الكتاب أو جنس الكتب السماوية التي أوحيَ بها ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ القرآن يصدّق فقط ما تبقّى بين يديه من الوحي الصحيح في الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل، لأنّ الجزء الأكبر منها دخله التشويه وهو من كتابات البشر ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ محيط ببواطن أمورهم وظواهرها، ومن ذلك نواياهم.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾(٣٢)

٣٢- ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ أي القرآن، فلا كتاب بعده، وهو الموروث ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم المسلمون قاطبةً ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ ليس فقط بالتقصير في العمل بالكتاب، وإنّما أيضاً بالإسراف في الخطايا والإجرام ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ بأن خلطَ عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فهو متردّد بين العمل بالقرآن وبين مخالفته ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فأخلصَ العمل لله ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي التوفيق إلى الخيرات والسبق بها.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾(٣٣)

٣٣- ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ ذات النعيم الدائم ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ السابقون بالخيرات، وغيرُهم مَن يدخلها بفضل الله تعالى ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ كناية عن نعيم الجنة.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٣٤)

٣٤- ﴿وَقَالُوا﴾ الذين دخلوا الجنة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ ذهبتْ جميع أحزان الدنيا والآخرة، ومنها حزن معيشة الدنيا، وحزن المرض والضر، وحزن تقلّب القلب وخوف العاقبة، وحزن أن لا تُقبل الأعمال، وحزن أهوال الآخرة ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ لكثير من خطايانا، ولولا ذلك ما دخلنا الجنة ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل الشكر من عباده.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾(٣٥)

٣٥- ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ دار الإقامة الدائمة في النعيم الذي لا انتقال منه ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ من تفضّله وكرمه سبحانه، وليس باستحقاقنا ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب جسماني ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ تعب نفساني.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾(٣٦)

٣٦- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ لا يموتوا ميتة ثانية، بل يبقوا في العذاب ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ كلّ مبالغ في الكفر، مُصرّ عليه.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾(٣٧)

٣٧- ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يصيحون بأعلى صوتهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ يطلبون ويتمنّون لو تتاح لهم فرصة اختبار ثانية في الدنيا يعودون إليها، فيعملون عملاً صالحاً غير العمل السيّئ الذي كانوا يعملونه أول مرّة، فيأتيهم الجواب: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ﴾ ألم نمهلكم في سني حياتكم العمر الكافي ﴿مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ أي في عمركم، فكان لديكم العمر والفرصة الكافية والفطنة للتذكّر، وقالوا في العمر الكافي للتذكّر أقوالاً كثيرة تراوحت من العشرين إلى الستّين عاماً ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ بمختلف

أشكاله: فهنالك القرآن الكريم، وهنالك كمال العقل، وهنالك موت الأهل والأقارب، كلها تنذر بقرب الأجل ﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب بما كفرتم وبالغتم في الكفر ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم ﴿مِنْ نَصِيرٍ﴾ في الآخرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(٣٨)

٣٨- ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعلم كلّ غيب فيهما، لا يخفى عليه خافية ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ومن ذلك علمه تعالى بما في صدور عباده من النوايا والاستعداد، والمغزى؛ علمُه بأنّ الكفر قد تمكّن في قلب صاحبه، إذ صمّمَ على ما هو فيه من الكفر والضلال، بحيث لو عُمِّر إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبَدَه.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا﴾(٣٩)

٣٩- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ﴾ تتصرّفون فيها وتنتفعون منها كأنكم استُخلفتم عليها، كما تخلفون بعضكم بعضاً، أفراداً، ومجتمعات، وأمماً، ودُوَلاً ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ مَن استمرّ على كفره بعد أن لَطَفَ به الله تعالى وجعلَ له ما ينبّهه على ما يترتّب على الكفر، فيكون وبال كفره وجزاؤه عليه وحده ﴿وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا﴾ أشدّ البغض ﴿وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا﴾ في آخرتهم.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا﴾(٤٠)

٤٠- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ آلهتكم الوهمية، وشركاء الزيف من أوهامكم ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ حتى يستحقّوا الألوهية ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ شراكة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ للشركاء ﴿فَهُمْ﴾ المشركون ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ المعنى؛ إنّ كلّ ذلك لم يحصل، ويبدو أنّ

في الخطاب إشارة إلى المسيحية ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ من شفاعة الشركاء المزعومين ﴿إِلاَّ غُرُورًا﴾ ضلالات من قبيل التمنّي.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(٤١)

٤١- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾ السماوات والأرض كناية عن النظام الكوني، فالله تعالى وحده يحفظ النظام الكوني من الاضطراب والخلل بما أودع فيه من قوانين الحركة والفيزياء ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا﴾ يوم القيامة، عندما يختل هذا النظام، انظر سورة [التكوير ٨١/١-٦]، ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فلا أحد يمكنه تأخير القيامة وقتئذٍ ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ لا يعاجل الناس بتقديم القيامة مع كفر الكثيرين منهم، بل يعطيهم الفرص للتفكير وللتوبة.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾(٤٢)

٤٢- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وهم كفار قريش، وينطبق على غيرهم ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ رسول من الله ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ﴾ زعموا أن سوف يكونوا، في تلك الحال، أهدى من أمم اليهود والمسيحية ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو الرسول ﷺ، ﴿مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾ زادهم تباعداً عن الحقّ وهرباً منه.

﴿اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾(٤٣)

٤٣- ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ﴾ استمرار الخطاب من الآية المتقدّمة، أي ما زادهم إلاّ نفوراً بسبب استكبارهم استكباراً في الأرض ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ بحجج باطلة زاعمين أن القرآن مُفترى من عند محمد، فمكروا السيّئ من المكر في محاولة إبطال القرآن، والمكر منه السيّئ ومنه الحسَن، لقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ

وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال ٨/٣٠]، ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ يحيط ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ من سننه تعالى أن المكر السيئ يرتدّ على أصحابه بالسوء ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ في حبوط مكرهم ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ سننه تعالى في خلقه لا تتغير، وليس من شيء يحدث اعتباطاً.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾(٤٤)

٤٤- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ويدرسوا تاريخ الأمم قبلهم ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ عاقبة المكذّبين من الأمم، فلا شيء يشذّ عن سننه تعالى ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ في حضارتهم المادية، لكنها لم تصمد بسبب غياب البعد الروحاني منها، وهؤلاء المكذّبون لا يشذّون عن القاعدة ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ليس من شأنه أن يفوته أو يسبقه شيء ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ مبالغاً في العلم والمقدرة.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾(٤٥)

٤٥- ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ من الظلم والسيئات ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ لعاجل البشر بالعقوبة، ولما ترك من حيوان ولا إنسان يدبّ على ظهر الأرض ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إلى يوم القيامة، وهو الأجل المضروب للبشر ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ فيجازي كلاً منهم بما كسبوا.

سورة ياسين -٣٦-

مكية

مقدمة

نزلت في أواسط الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

في أواخر سورة فاطر أن المشركين من يهود ونصارى وغيرهم زعموا ويزعمون أنهم باحثون عن الحقيقة، ومع ذلك أحجموا عنها لما جاءهم بها الوحي القرآني: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤٢/٣٥)، وتفتتح سورة ياسين بأن النذير الذي جاءهم هو النبي عليه السلام: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٦/١-٣)، لإنذار الغافلين: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (٦/٣٦)، وتأكيد ذلك أن الله تعالى بعد أن بعث موسى وعيسى إلى بني إسرائيل، عزّز ببعث النبي ﷺ إلى الناس عامة: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ (١٤/٣٦).

وفي سورة فاطر أن الله تعالى أطال مكث الأفراد في الدنيا وأنزل عليهم الوحي لعلهم يتذكروا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ (٣٧/٣٥)، وفي سورة ياسين أن النذير يفيد فقط مَن لديه الفطرة السليمة والاستعداد للانتفاع بالذكرى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ (١١/٣٦)، فالأحدر بالعاقل

الاستفادة من ملكاته العقلية قبل أن يقضي عليها الهَرَم: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٨/٣٦).

محور السورة:

أن لا سبيل لسماع مَن أصرّ على إنكار الحقيقة: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠)، وأن الله تعالى لم يترك عذراً بالجهالة لأحد فبعث موسى وعيسى في مهبط الرسالات -القرية- ثم عزز بعثتهما ببعثة النبي الأحمد خاتم الأنبياء والرسل للناس كافةً: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ (١٤)، لكنّ الأكثرية درجوا على تكذيب الرسل رغم كل الدلائل التي تؤيدهم: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٠)، وفضّلوا عبادة الأوهام والمادة والسلطة والقيم الزائفة، خلافاً للفطرة السليمة، وخلافاً للعهد المأخوذ عليهم في الأصلاب: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٠)، ولم ينتهزوا فرصة العمر قبل فواتها بالهرم وتدهور المدارك العقلية: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٨)، بل إنهم يجادلون الحق بالباطل وقد نسوا مهانة خلقهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يس﴾(١)

١- ﴿يس﴾ قد تكون من الحروف المقطعات، انظر [البقرة ١/٢]، و﴿يس﴾ أيضاً بلغة قبيلة طيء تعني أيها الإنسان، أو يا أُنيْسن بالتصغير كما يقال يا بُنيّ تحبباً، والخطاب موجّه بالدرجة الأولى للنبي ﷺ وفي النداء إشارة لكون النبي ﷺ بشراً، وليس فوق جنس البشر، والخطاب أيضاً موجّه إلى البشر عموماً، كما هي الحال في سورة (طه) بمعنى يا رجُل، أو أيها الإنسان.

﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾(٢) ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٣) ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٤) ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾(٥)

٢- ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ المعنى: انظروا أيها الناس في هذا القرآن ذي الحكمة، أو المشتمل على أقصى درجات الحكمة، فهو برهان على كون النبي مرسلاً من الله تعالى: ٣. ﴿إِنَّكَ﴾ أيها النبي ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٤. ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على الطريق الوحيد المؤدي إلى الحق، وما عداه باطل، ٥. ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ هذا القرآن وحي إلهي بدليل اشتماله على الحكمة.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾(٦)

٦- ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ إن كان المقصود بالقوم، العرب، فقد أنذر إسماعيل آباءهم الأبعدين، وبلّغهم شريعة أبيه إبراهيم، عليهما السلام، حوالي العام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، ثم كانت بعثة النبي ﷺ في العام ٦١٠ للميلاد، فانقضى بينهما نحو ستةٍ وعشرين قرناً من الزمن، أما رسالات الأنبياء هود، وصالح، وشعيب، وإدريس، وذا الكفل، وغيرهم إلى مختلف أرجاء الجزيرة العربية، فلا نعرف تاريخ بعثاتهم على وجه التحديد، وعلى أية حال فقد يكون مغزى الآية انقطاع الأنبياء عن قريش لفترة طويلة من الزمن، ومن ثمّ تدهور التراث الفكري والأخلاقي الذي توارثه العرب عبر القرون عمّا جاء به الأنبياء، أما إن كان المقصود بالقوم الناس كافةً لأنّ رسالة الإسلام عالمية، ولأن السورة بدأت بتوجيه الخطاب إلى (يس) أي جنس الإنسان كافةً، فقد انقضت حوالي ستة قرون من الزمن بين بعثة عيسى عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل، ثم انتقال سلالة النبوّات من بني إسحاق إلى بني إسماعيل ببعثة النبي ﷺ.

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٧)

٧- ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي أكثر الناس، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف ١٢/١٠٣]، وقد حقّ القول عليهم

لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة ١٣/٣٢]، أي الكافرين منهم ﴿فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ لشدة عنادهم ومكابرتهم وتشنج عقولهم على التقليد.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾(٨)

٨- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ﴾ كناية عن إنكارهم الحقيقة وكفرهم المتعمّد ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ رؤوسهم مرفوعة للأعلى بسبب الأغلال في أعناقهم، كناية عن عنجيّتهم وتكبّرهم وسوء استعدادهم، مستكبرين عن اتّباع الرسل، شامخين برؤوسهم، وقد سدّوا أبواب النظر فيما ينفعهم، كما في آية [البقرة ٧/٢].

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ (٩)

٩- ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ فلا يتقدّمون فكرياً ولا يرجعون، كناية عن ماديتهم المحضة، ومنتهى الركود الروحاني لديهم ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، لا يسمعون ولا يبصرون الحقيقة، وليس معنى ذلك أن الله تعالى فرض ذلك عليهم ابتداءً، وإنما نتيجة خيارهم الحر وسوء استعدادهم.

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾(١٠)

١٠- ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ كما في آية [البقرة ٦/٢]، لأنهم صمّموا سلفاً على إنكار الحقيقة ولم يعطوا أنفسهم فرصة التفكير، ولا فرصة تقويم الرسالة السماوية من حيث جدارتها.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾(١١)

١١- ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ الذكر هو القرآن، واتّباعه بهذا المعنى دراسته وفهمه ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ﴾ بالغيب لأنه يفوق التصوّر البشري ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ إذ استفاد من ملكاته الفكرية التي حباه الله بها.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾(١٢)

١٢- استمرار الخطاب، والمعنى أن كلاً من المؤمنين والكفار اختاروا لأنفسهم، والجزاء يلقونه في الآخرة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ يوم القيامة ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من عمل صالح أو طالح ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ التي أبقوها بعدهم من الحسنات: كالعلم الذي علّموه، أو الكتاب المفيد الذي ألّفوه، وما بذلوا في إصلاح المجتمع، ومن السيئات: كمبادئ الشر والفساد التي أحدثوها وسنّوها للمفسدين ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من أعمالهم ﴿أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ لا يفوت منها شيء.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾(١٣)

١٣- بعدما تقدم بالآيات (١-١٢) من نزول القرآن الحكيم على البشرية، وأن أكثر الناس مع ذلك معرضون عن الحقيقة، تضرب الآيات (١٣-٣٠) مثلاً ببعث الرسل موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ القرية في عُرف القرآن هيَ المجتمع، وقد رأى محمد أسد أن المقصود بها مجتمع شرق البحر الأبيض المتوسط ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ بُعثَ فيه موسى وعيسى ومحمد، عليهم السلام.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾(١٤)

١٤- ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ موسى لاقى أشد العنت من بني إسرائيل، ثم انحرفوا بعده إلى الوثنية السافرة، انظر شرح [البقرة ٢/٥١]، وعيسى آخر أنبياء

بني إسرائيل رفضه قومُه ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ هو محمد ﷺ بعث إلى الناس كافةً ﴿فَقَالُوا﴾ الرسل إلى أقوامهم ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ من الله تعالى.

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾(١٥)

١٥- ﴿قَالُوا﴾ الأقوام لرسلهم ﴿مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ولستم من جنس الملائكة، فلا تفضلون علينا بشيء ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الوحي الذي تدّعون، وقولهم ﴿الرحمان﴾ دليل على إقرارهم بالألوهية، مع إنكارهم الرسالة، وتوسلهم بالشفعاء والوثنية ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ فأنتم طلاّب زعامة بما تدّعون، وأمثال هؤلاء الناس منكري الوحي يزعمون أنهم مؤمنون، ولكن دون السماح لإيمانهم التدخّل في سلوكهم الحياتي اليومي لما في ذلك من قيود أخلاقية يفرضها الوحي عليهم، ولأنهم يريدون التصرف في الدنيا على هواهم.

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾(١٦)

١٦- ﴿قَالُوا﴾ الرسل لأقوامهم ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ استشهدوا عليهم بعلم الله تعالى.

﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾(١٧)

١٧- ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ تبليغاً ظاهراً بيّناً، بلا إكراه.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١٨)

١٨- ﴿قَالُوا﴾ لرسلهم بعد أن فشلوا في النقاش ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ كما كانت عادة العرب في التفاؤل والتشاؤم بحسب طيران الطائر الذي يلاحظونه يمنةً أو يسرة، فيتفاءلون ويتيامنون بما يوافق شهواتهم إن طار يمنةً، ويتشاءمون بما لا يوافقها إن طار يسرةً ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾ عن دعوتكم لنا وإصراركم ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إضافة إلى الرجم، يريدون التخلص من الرسل ودعوتهم.

﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾(١٩)

١٩- ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ حظّكم ونصيبكم من الخير والشر معكم، ومرتبط بإيمانكم وأعمالكم، إن تعملوا خيراً فخير، أو شراً فشر ﴿أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ بما يلزم تذكيركم به من الوحي والميثاق، تنكرونه اتّباعاً لهواكم ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ في ضلالكم، تجاوزتم الحد في المعصية، وليس من اعتدال في سلوككم، فخسرتم أنفسكم إذ هدرتم إمكاناتكم الروحانية ولم تخضعوا لقيم الأخلاق المنصوص عليها في الوحي.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾(٢٠)

٢٠- ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ ليس رجلاً بعينه، وقد يكون كناية عن الأقليات الضعيفة الفقيرة المؤمنة التي تتبع الرسل في بادئ دعوتها كما هي العادة ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ دعوة الأقليّات للأكثرية الجاحدة.

﴿اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(٢١)

٢١- ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ الرسل لا تدعوكم لمطامع شخصية ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ إلى الحق، وأنتم على النقيض من ذلك.

﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢٢)

٢٢- ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فأيّ عقل سليم وأيّ فطرة سليمة تمنعني من عبادة الله الذي خلقني اختراعاً وابتداعاً ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب يوم البعث.

﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنْقِذُونِ﴾(٢٣)

٢٣- ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ اخترعتموها من أوهامكم ﴿إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ إذ لا وجود حقيقي لهم ﴿وَلا يُنْقِذُونِ﴾ من الحساب والجزاء.

﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٢٤)

٢٤- ﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لو فعلت ذلك.

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾(٢٥)

٢٥- ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ اسمعوا دعوتي لكم سماع فهم وتدبّر، ولا ترفضوها قبل دراستها وتقويمها.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾(٢٦)

٢٦- ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ أصرّوا على إغلاق عقولهم فقتلوه، فدخل الجنة، وتمنّى لو أن قومه يدركون ما آل إليه مصيرُه من النعيم.

﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾(٢٧)

٢٧- ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ من ذنوبي ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ في الآخرة.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾(٢٨)

٢٨- ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ لا يحتاج الأمر لإنزال جنود من السماء لعقاب الكفار.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾(٢٩)

٢٩- ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ الخمود بمعنى السكون، وقد يكون في التعبير رمز خفيّ للبعث بعد الموت، لأن الخمود ليس فناءً، والقصة قد تكون رمزية، وهي مَثَل كما ذكرَت الآية (١٣)، وإهلاك الأقوام الكافرة بالصيحة، أو بالزلازل حدثَ للأمم البائدة.

﴿يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(٣٠)

٣٠- ﴿يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ الحسرة الغمّ على ما فات والندم عليه، فكأنّ المتحسّر انحسرت عنه قواه من فرط ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ [مريم ١٩/٣٩]، أي يوم القيامة، عندما يغتمّ الكفار على ما فاتهم في الدنيا ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أكثر الناس يختارون صمّ آذانهم عن دعوة الرسل فيخسرون أنفسهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ﴾(٣١)

٣١- ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ من الأمم، إما بالصيحة كما حدث للأمم البائدة الآية (٢٩)، أو بالتدهور والانحطاط التدريجي ثم السقوط كما حدث للأمبراطوريات والحضارات القديمة والحديثة نتيجة الانكباب على المادة وتجاهل القيم والأخلاق ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ هذه الأمم ليس لديها من فرصة ثانية تعود إليها بعد أن حان أجلها.

﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾(٣٢)

٣٢- ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا﴾ يوم القيامة ﴿جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ للحساب.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾(٣٣)

٣٣- بعد أن أجملت الآيات (١٣-٣٢) قصة المجتمع الذي جاءه المرسلون الثلاثة، والعبر منها، تنتقل الآيات (٣٣-٤٦) إلى بيان الإعجاز في بعض الآيات الآفاقية:

٣٣- ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ﴾ دلالة عظيمة ﴿الأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ معجزة إحيائها بعد أن كانت ميتة قاحلة ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالمطر ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ من جنس الحبوب كالقمح والشعير والأرز.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾(٣٤)

٣٤- ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ الينابيع تجري بها الأنهار.

﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾(٣٥)

٣٥- ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ من ثمر النخيل وغيره ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ من العصير والدبس وغيرهما ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النِعم.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾(٣٦)

٣٦- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ الحيّة وغير الحيّة، كالضوء والظلام، والموجب والسالب في الكهرباء والمغناطيس، والحر والبرد، وغيره ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ﴾ كالزوجية في النباتات ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الذكر والأنثى ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ لا يدركون كنهه حتى الآن.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾(٣٧)

٣٧- ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ كما يُسلخ جلد الشاة، استُعير لسلخ الضوء عن جانب من الكرة الأرضية في أثناء دورانها حول نفسها، فيبقى الظلام ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ بعد انتقال المنطقة المعنيّة من منطقة الضوء إلى منطقة الظلام.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(٣٨)

٣٨- ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ في جري المجموعة الشمسية ضمن مدارها ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ في خلق الكون.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾(٣٩)

٣٩- ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ في دورانه حول الأرض ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ حتى عاد من كونه قمراً بدراً فصار هلالاً كالعرجون، من الانعراج، ويقال لعود النخلة عرجون في انحنائه، كما هو هلال القمر في أوائل الشهور القمرية وأواخرها، والقديم لأنّ عرجون النخلة يصبح مصفرّاً بعد تقادم الزمن عليه، كما هو لون هلال القمر.

﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٤٠)

٤٠- ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ في مداره حول الأرض ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ بل يتتابعان الواحد تلو الآخر ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ الشمس في مدارها ضمن المجموعة الشمسية، والقمر في مداره حول الأرض.

﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾(٤١)

٤١- ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ﴾ رسالة ودلالة ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ذرية بني آدم من البشر عموماً ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ في جنس السفن في البحار والأنهار ﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء بالناس وغيرهم، والمغزى أن عبقرية البشر في اختراع أنواع السفن بتقنياتها المتجددة ليست سوى مظهر من مظاهر الإعجاز في خلق الإنسان وما أودعه الله تعالى فيه من المقدرة والذكاء.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾(٤٢)

٤٢- ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ﴾ من مثل السفن ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من أنواع المواصلات الأخرى في البحر والبر والجو.

﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾(٤٣)

٤٣- ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ لا مغيث يحفظهم من الغرق عندما تحل بهم الكارثة، إلاّ الله تعالى كما في الآية التالية ﴿وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ فلا تنفعهم وقتئذٍ كل أنواع التقانة التي توصّلوا إليها، كما حدث للباخرة التيتانك.

﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾(٤٤)

٤٤- ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا﴾ فقط رحمة الله تنقذ مَن تنقذ وقت وقوع الكوارث ﴿وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ فيعودون إلى الاستمتاع بحياتهم الدنيا لحين حلول آجالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٤٥)

٤٥- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من المعاصي في عالَم المشاهدة، فالله تعالى شهيد عليكم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ واتّقوا ما ينتظركم في عالَم الغيب من العواقب المترتّبة على أعمالكم في الدنيا ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، والنتيجة أنهم لا يتّقون كما هو مذكور بالآية التالية:

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾(٤٦)

٤٦- ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الآيات التكوينية المتضمّنة المعجزات، كالتي تحدّثت عنها الآيات المتقدّمة (٣٣-٤٥)، أو آيات الوحي في الرسالات السماوية كما في القرآن الكريم ﴿إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ إعراض على وجه التكذيب والاستكبار، والآيات (٤٦-٥٤) تبين عواقبه:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(٤٧)

٤٧- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا﴾ في عمل الخير ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ لأنّ المال مال الله، رزقكم إياه بطريق التفضّل والإنعام ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء، كأنهم لا يعلمون سنّة الأسباب والمسببات والتسخير ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ يمعنون في اتهام غيرهم بالضلال، ولا يراجعون أنفسهم في احتمال أن يكونوا هم الضالّين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٤٨)

٤٨- ﴿وَيَقُولُونَ﴾ منكرو الآخرة يقولون للمؤمنين على سبيل الاستهزاء والتحدّي: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ بوقوع يوم القيامة والحساب ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم؟

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾(٤٩)

٤٩- ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يوم الحساب ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ وهم يختصمون بعضهم مع بعض في أعمالهم الدنيوية، أو يختصمون مع المؤمنين في جدلهم العقيم حول حقيقة المسؤولية والبعث.

﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾(٥٠)

٥٠- ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في شيء من شؤونهم ﴿وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ إذا كانوا خارج بيوتهم، لقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ [الأنبياء ٢١/٤٠].

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾(٥١)

٥١- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ من القبور ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ يسرع الأموات إلى ربهم بلا خيار لهم.

﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾(٥٢)

٥٢- ﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا﴾ يا هلاكنا احضر فهذا أوانك ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ من قبورنا ورقودنا؟ فيأتيهم الجواب، أو هم يجيبون أنفسهم بعد استيعابهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ فيما وُعدوا من قيام الساعة وضرورة الحساب.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾(٥٣)

٥٣- ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ لفصل الحساب في طرفة عين.

﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٥٤)

٥٤- ﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الجزاء من جنس العمل إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، فيوفّى المؤمنون أجورهم

ويزيدهم الله تعالى من فضله أضعافاً مضاعفة، ويُجازى المحرمون بعملهم الطالح.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾(٥٥)

٥٥- ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ﴾ شغلهم النعيم عن كل ما يخطر بالبال ﴿فَاكِهُونَ﴾ مشتق من الفكاهة، وقالوا: الفاكه طيب النفس الضحوك الفرح.

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾(٥٦)

٥٦- ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ أي من أمثالهم وأشكالهم في الإيمان والإحسان، وأيضاً قد يكونوا أزواجهم المؤمنين والمؤمنات الذين كانوا معهم في الدنيا ﴿فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ كناية عن منتهى السعادة والسلام الروحاني الذي يتمتعون به.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾(٥٧)

٥٧- ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ كناية عن سعادتهم ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ كل ما يتمنّونه في متناولهم، وأيضاً دعاؤهم مستجاب.

﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾(٥٨)

٥٨- ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ استمرار الخطاب من الآية المتقدّمة، أي لهم ما يدّعون، من الدعاء المستجاب، واستجابته السلام الروحاني المطلق من الربّ الرحيم.

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾(٥٩)

٥٩- الآيات (٥٩-٦٥) تصوّر حال المجرمين في الآخرة: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ انفردوا عن المؤمنين إلى مصيركم من الجزاء.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(٦٠)

٦٠- ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ لا تطيعوا وساوسه، ولا تعبدوا من الآلهة المزعومة الباطلة، انظر [طه ١١٥/٢٠] و [البقرة ٣٨/٢]، فالسخافة المتضمّنة في إسباغ صفات الألوهية على بعض المخلوقات يعدُّها القرآن مكافئة لعبادة الشيطان، لأن اسم الشيطان مشتقّ من فعل شَطَنَ أي ابتعد كثيراً عن الحقيقة ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وساوسه السيئة ظاهرة العداوة لكم، وعواقبها وخيمة في القريب العاجل وعلى المدى البعيد.

﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾(٦١)

٦١- ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي﴾ وحدي ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ كل ما عداه من الشرك باطل.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾(٦٢)

٦٢- ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا﴾ أجيالاً كثيرة، انظر [الإسراء ٦٢/١٧]، ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ تعتبرون بعاقبة ضلالهم؟ انظر [الإسراء ٦٣/١٧].

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾(٦٣)

٦٣- ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ الخطاب للغالبية المجرمة منهم، الآية (٥٩)، وكنتم توعدون مراراً على لسان الرسل، ولكنكم تمسّكتم بالإنكار والمعصية.

﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾(٦٤)

٦٤- ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بنتيجة كفركم، وتجاهلكم المتعمد للحقيقة.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٦٥)

٦٥- ﴿الْيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ كناية عن عجزهم عن الإتيان بأعذار عن أعمالهم الخاطئة ومعتقداتهم الفاسدة.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾(٦٦)

٦٦- الآيات (٦٦-٦٨) تنبه إلى عدم استفادة المحرمين من كثير من المَلَكات التي كرّم الله تعالى بها جنس البشر:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ أن نجعلهم، أي جنس البشر، مجرّدين من أي مقدرة على التمييز بين الخطأ والصواب، بخلاف ما كرّمناهم في الواقع ﴿لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ كناية، أن لو شاء الله تعالى لخلقهم عَمين عن أي مسؤولية أخلاقية ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ وفي تلك الحالة لانحرفوا عن الصراط المستقيم ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ فأنّى لهم، وقتئذٍ، إبصار الحقيقة؟

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾(٦٧)

٦٧- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ لو كانت مشيئته تعالى أن يكون الإنسان مجرّداً عن مقدرة الخيار بين الصواب والخطأ ﴿لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ لأصبحوا في حالة من الركود الفكري ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ فلا يكون لديهم حافز للتقدم أخلاقياً، ولا التراجع عن موقع الخطأ.

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾(٦٨)

٦٨- ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ الإنسان خُلقَ ضعيفاً، والزمن المُتاح أمامه قصير إذ لا يلبث أن يتقدم في السنّ ويهرم ويشيخ، وتتدهور قواه الجسمية والعقلية، فعليه ألاّ يسوّف ويوحّل خياره الأخلاقي، بل عليه في أقرب وقت الاستفادة من إمكاناته العقلية وملكة الخيار الحر التي حباه الله بها ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أفلا يستفيدون من عقولهم قبل أن يصل بها الأمر إلى حالة من التقهقر والخرف؟

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾(٦٩)

٦٩- في الآيات (٦٩-٨٣) عودة إلى موضوع الآيات (١-٥) بأول السورة عن القرآن الكريم وأصالته من حيث كونه وحي إلهي:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ للنبي ﷺ، لأنهم زعموا أنّ القرآن شعر، والخطاب موجّه إلى المجرمين المشار إليهم بالآيات المتقدّمة، الذين فشلوا في الاستفادة من عقولهم السليمة ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ لا يستقيم أن يكون القرآن شعراً ﴿إِنْ هُوَ﴾ القرآن ﴿إِلاَّ ذِكْرٌ﴾ يذكّر الإنسان بفطرته السليمة كما يذكره بالميثاق ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ مبين للحق بأسلوب ظاهر الإعجاز اللغوي ما لم يستطع أحدٌ معارضته، بخلاف أساليب الشعر المألوفة، انظر [الشعراء ٢٦/٢٢٤-٢٢٧] و [الإسراء ١٧/٨٨].

﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(٧٠)

٧٠- ﴿لِيُنْذِرَ﴾ النبي ﷺ ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ مَن لا يزال قلبه وعقله حيّاً، فيستجيب لهدي القرآن ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الذين ماتت ملكاتهم العقلية، وانحرفت فطرتهم السليمة، فغطّت الحقيقة عن أعينهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾(٧١)

٧١- بعد نزول الوحي بالهدي الإلهي لبني آدم، مزيد من البراهين على تمكين الإنسان في الأرض:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ لأجل انتفاعهم بها ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ مجازاً ﴿أَنْعَامًا﴾ من مختلف أنواع الماشية ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ يستفيدون منها لشتى الأغراض.

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾(٧٢)

٧٢- ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ فصارت غير مستعصية عليهم، وأصبح الإنسان مسؤولاً أخلاقياً عن كيفية التعامل معها والرفق بها ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ للمواصلات والتنقل ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ من لحومها.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾(٧٣)

٧٣- ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ في الحراثة، ومن جلودها وصوفها وأوبارها ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من لبنها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النِعم؟

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾(٧٤)

٧٤- ومع ذلك، ومع هذا الإنعام الكبير فقد أشرك الكثير منهم: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ وهمية أسبغوا عليها من صفات الألوهية، كالأصنام والزعماء ورجال الدين ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ ظانّين أن هذه الآلهة الوهمية تفيدهم بشيء.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾(٧٥)

٧٥- ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ لا يفيدون عبّدتهم في شيء ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ العابدون مُعدّون وجاهزون للدفاع عن آلهتهم المزعومة في الدنيا.

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(٧٦)

٧٦- ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ أيها النبي، وأيها المؤمن، دع هؤلاء المشركين وشأنهم إن هم أصرّوا على ضلالهم، ولا تحزن عليهم إن ثابروا على شركهم ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فنحاسبهم على سرّهم وعلانيتهم، ومقاصدهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾(٧٧)

٧٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ كيف يغفل الأكثرون عن هذ الإعجاز الهائل في تحول الإنسان من نطفة صغيرة حقيرة، إلى شخص بالغ عاقل ذي مقدرة عقلية على المحاكمة والنقاش والجدال في الحق والباطل؟

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(٧٨)

٧٨- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ ذلك الإنسان الغافل عن الإعجاز في خلقه ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ يسأل ذلك لانغماسه في الحياة المادية، ولغفلته عن كل ما هو روحاني، فلا يستطيع تصوّر عالم الغيب، فينكر البعث، ومن ثم ينكر وجود الله سبحانه.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(٧٩)

٧٩- ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فليس ذلك من الغرابة في شيء ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ لايعجزه شيء.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾(٨٠)

٨٠- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ سواء كان هذا الشجر حطباً، أو تحوّل إلى شكل آخر من أشكال الطاقة كالنفط أو الفحم.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾(٨١)

٨١- ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ بإعجازهما الهائل ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أن يخلق مثل هؤلاء الأفراد الجاحدين فيبعثهم بعد الموت ﴿بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ قدرته تعالى على الخلق لامتناهية، كما في الآية التالية.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(٨٢)

٨٢- ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ في الخلق والإيجاد والتكوين ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ كناية عن مجرّد المشيئة العليا.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٨٣)

٨٣- ﴿فَسُبْحَانَ﴾ تنزيهاً له تعالى عمّا زعموه من العجز، وعمّا أضافوا إليه من الشرك ﴿الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كل شيء خاضع لمشيئته ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب.

سورة الصافات -٣٧-

مكية

مقدمة

نزلت في أواسط الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

إذا فهمنا أن كلمة (الصافات) تعني الآيات والسور القرآنية المصفوفة بنظم وتماسك مُحكَمين، فيكون هنالك ارتباط بين افتتاح سورة ياسين المتقدمة بقوله تعالى: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ (٣٦/١-٢) وبين افتتاح سورة الصافات بقوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ (٣٧/١-٣)، لأن (حكيم) و(محكم) بمعنى واحد، فتكون الإشارة للنظم المحكم في الآيات والسور القرآنية المصفوفة صفّاً.

أما إذا فهمنا من كلمة (الصافات) أنها الرسالات السماوية المتتالية التي نزلت على الرسل، فيكون هنالك ارتباط بين قوله تعالى في سورة ياسين المتقدمة: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ (٣٦/١٣-١٤)، وقوله تعالى: ﴿يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٦/٣٠)، وبين افتتاح هذه السورة بقوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ (٣٧/١-٣) إشارة لتتالي بعث الرسل وتنزّل الرسالات على بني آدم التي تزجرهم عن الضلال وتتلو عليهم الذكر.

وفي سورة ياسين أن الكفار كانوا يتطيرون من بعث الرسل: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨/٣٦) ثم في سورة الصافات أنهم يتخبطون ويرجمون بالغيب: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ (٣٧/٦-٨).

وفي سورة ياسين أن لا فائدة من إنذار المصرّين على الكفر: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠/٣٦)، والسبب تبيّنه سورة الصافات أنهم مستكبرون ومتمسّكون بالتقليد: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ (٣٧/٣٥-٣٦).

محور السورة

أن الآيات القرآنية التي تتلو الذكر، وتزجر عن الضلال، مصفوفة بإحكام ونظم متقنين مما يوجب التفكر في إعجازها والتعمّق في معانيها: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ (١-٣)، بدلاً من التخبط والرجم بالغيب ومحاولة التوصل إلى الحقيقة بطرق غيبية كما يفعل الكفار: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ (٦-٨)، وأن خلق الإنسان ومن ثم بعثه للحساب ليس بشيء أمام الإعجاز الهائل في خلق الأكوان المحيطة به: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ (١١)، وأن بعثة خاتم الأنبياء والرسل لم تكن سوى استمرار لما سبقها من الرسالات السماوية التي انحرف أكثر أتباعها عن مسارها حتى بُعث النبي الأحمد برسالة الإسلام التي صدّقت الوحي الصحيح الذي جاء به المرسلون فصارت المعيار النهائي للحق من الباطل: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٧)، ولكن

المقلدين متمسكون بعقيدة الآباء: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ (٦٩-٧٠)، فمن اليهود من تمسك بعقيدة الشعب المختار، ومن النصارى مَن تمسّك بعقيدة الخطيئة الأصلية والفداء بالنيابة، فظلموا أنفسهم: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (١١٣)، وقد زعموا كما زعم الكفار والمشركون في الماضي أن لو كان في كتب آبائهم ما يؤيد التوحيد لاتبعوه: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٦٧-١٦٩)، فلما جاءهم القرآن به أنكروه: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (١٧٠)، فوجب على المؤمنين التولّي عنهم حتى يتحقق النصر للإسلام أو يحين الحساب يوم القيامة: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ (١٧٤-١٧٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾(١)

١- ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ إشارة إلى المنظومة القرآنية المشتملة على السور والآيات من سورة الفاتحة حتى سورة الناس، فهي مرتبطة بعضها مع بعض بصفّ وبإحكام متقنيْن، وقد تكون الإشارة أيضاً إلى الرسالات السماوية المتتالية التي جاء بها الرسُل على مرّ العصور، إذ جاءت الرسالات متدرّجة بحسب مستوى الأمم التي وُجّهت إليها حتى خُتمت برسالة الإسلام للناس كافّة.

﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾(٢)

٢- ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ الزجر بمعنى الحث، وبمعنى المنع والنهي، لأن آيات القرآن تتضمّن النواهي الشرعية، وهي تزجر العباد عن الأعمال المنكرة وتُلهم الخير، كما الرسالات السماوية جميعاً.

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾(٣)

٣- ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هي كل ما يُتلى من آيات كتاب الله، وسمّي القرآن ذِكراً لأنه يذّكر بالميثاق الفطري، انظر [الأعراف ١٧٢/٧].

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾(٤)

٤- ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ رسالة التوحيد فحوى الرسالات السماوية، وفحوى الرسالة القرآنية، بأن الخالق واحد لا شريك له، ولو كان في الكون غير الله لفسد النظام الكوني كما تشير الآية التالية.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾(٥)

٥- ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الأكوان التي لا حصر لها ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ كل خط من خطوط الطول للكرة الأرضية يعدّ مشرقاً ومغرباً في الوقت ذاته بسبب دوران الأرض حول نفسها، انظر [المعارج ٤٠/٧٠]، وهذا الإحكام في خلق السماوات والأرض من دلائل التوحيد.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾(٦)

٦- ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ الدنيا: التي يمكن مشاهدتها من الأرض ﴿بِزِينَةٍ﴾ عجيبة مهيبة ﴿الْكَوَاكِبِ﴾ وهي زينة الكواكب، أما باقي السماوات وما فيها من الأكوان الهائلة فلا تُشاهد من الأرض، وحديثاً ترصُد جانباً قليلاً منها المراصد الفضائية العاملة في الفضاء الخارجي.

﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾(٧)

٧- ﴿وَحِفْظًا﴾ أي وحفظنا السماء الدنيا حفظاً ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ﴾ من شياطين الإنس والجن ﴿مَارِدٍ﴾ المتمرّد على الله سبحانه.

﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾(٨)

٨- ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى﴾ قالوا: إن الملأ الأعلى هم الملائكة، والمقصود بالأعلى العلوّ المعنوي ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ المعنى أنّ كل

محاولة من جانب شياطين الإنس والجن لمعرفة الغيب وما وراء الطبيعة بالتنجيم وبأساليب ملتوية مصيرها إلى الفشل والعذاب.

﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾(٩)

٩- ﴿دُحُورًا﴾ أمثال هؤلاء المنجّمين يُدحرون دحوراً أي يُطردون ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ عذاب دائم.

﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾(١٠)

١٠- ﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ اختلس المعلومة ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ فيحبط ما ظنّ أنّه توصّل إليه من معلومات حزئية، والنتيجة؛ إن جنس البشر لا يمكنه إدراك شيء من علوم الغيب.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ﴾(١١)

١١- ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ اسأل هؤلاء الذين يفضّلون التنجيم والتخبّط والتنظير على الهدي الإلهي الذي جاءت به الصافّات ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ البشر أقوى خلقاً وأمتن بنيةً؟ أو أصعب خلقاً وأشقّ إيجاداً؟ ﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ من الملائكة والأكوان الهائلة بما فيها من المجرّات والنجوم والكواكب ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ﴾ جنس البشر ﴿مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ﴾ التراب المختلط بالماء، فما أهون خلقهم أمام خلق الكون.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾(١٢)

١٢- ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ أيها النبي، وأيها المؤمن، من قدرته تعالى ومن الإعجاز في هذا الخلق الهائل ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ الكفار في استكبارهم وماديتهم يسخرون وينكرون البعث.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ﴾(١٣)

١٣- ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ بالميثاق، وبالصافّات، وبما ولدوا عليه من الفطرة السليمة، وتوحيد الخالق والإقرار بألوهيته وربوبيته ﴿لا يَذْكُرُونَ﴾ بل يفضّلون ما نشؤوا عليه من تقليد ديانة الآباء والأجداد، وعبادة الأوهام، أو يلوذون بمادينهم واستكبارهم وتكالبهم على الدنيا تهرباً من أي مسؤولية أخلاقية.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾(١٤) ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(١٥)

١٤- ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ معجزة من الرسل ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخرية.

١٥- ﴿وَقَالُوا﴾ لرسلهم، أو لغيرهم ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ينسبون معجزات الرسل إلى السحر.

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾(١٦) ﴿أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾(١٧)

١٦- ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾

١٧- ﴿أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ إمعان منهم في إنكار البعث كي يعبثوا في الدنيا بحسب أهوائهم بلا رادع من دين أو أخلاق.

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾(١٨)

١٨- ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ وأنتم صاغرون لا خيار لكم في البعث.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾(١٩)

١٩- الآيات (١٩-٣٩) تصور حال الطواغيت وأتباعهم في الآخرة، والحوار الرمزي الذي يدور بينهم:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ صيحة واحدة، وهي مجاز عن بعثهم ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ أحياء يبصرون.

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾(٢٠)

٢٠- ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ يـا هلاكنا احضر، يودّون يوم القيامة لو أنّهم هالكون، وأن تكون ميتتهم نهائية ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء، كما في الحديث: «كما تدين تُدان»، أي هذا اليوم الذي يُجازى فيه النـاس بأعمـالهم، أقرّ المنكرون به ولذا تمنّوْا الهلاك سلفاً.

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾(٢١)

٢١- فيُقال لهم: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ تُفصل فيـه المظـالم ﴿الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ وهو قول الكفار بعضهم لبعض، أو قول الملائكة لهم.

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾(٢٢) ﴿مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾(٢٣)

٢٢- ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُـوا﴾ خطاب الله تعالى للملائكة، أو الملائكة بعضهم لبعض ﴿وَأَزْوَاجَهُـمْ﴾ أي أمثالهم وأشباههم من قُرنـاء السوء ﴿وَمَـا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ من الزعماء والطواغيت الذين زعموا فيهم الألوهية.

٢٣- ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ إلى طريق الجحيم الذي استحقوه بعملهم.

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾(٢٤)

٢٤- ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ سوف يُسـألون عـن عقـائدهم وأعمـالهم التي كانت في دنياهم.

﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ﴾(٢٥)

٢٥- ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ﴾ يقال لهم: عجزتم أن ينصر بعضكم بعضاً في آخرتكم.

﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾(٢٦)

٢٦- ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون مذعنون خاضعون لا حيلة لهم.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾(٢٧)

٢٧- ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يتقاذفون المسؤولية.

﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾(٢٨)

٢٨- ﴿قَالُوا﴾ الأتباع للرؤساء ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ في الدنيا ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ كناية عن جهة الخير، لأن العرب تتفاءل باليمين، والمعنى: كنتم تخدعوننا أيها الزعماء وتزعمون أنّ ما نقوم به لأجلكم هو من قبيل الخير، واليمين أيضاً كناية عن القوة والنفوذ، فيكون المعنى في هذه الحالة إنكم بنفوذكم وقهركم وسلطانكم قسرتمونا على الضلال.

﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٢٩)

٢٩- ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تنصّلَ الرؤساء من الأتباع، وقرناء السوء من أشباههم، بحجة أنّ الأتباع كانوا ضعاف الإيمان.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾(٣٠)

٣٠- ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ لم يكن باستطاعتنا قسركم وقهركم ولا سلب حرية اختياركم ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ تجاوزتم الحدود في الكفر والمعاصي من تلقاء أنفسكم لأن نفوسكم مالت إلى الشر.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾(٣١)

٣١- ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ بما كنّا عليه جميعاً من الضلال لسوء استعدادنا وسوء خيارنا في دنيانا ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ العذاب لا محالة، والإشارة لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة ١٣/٣٢]، أي الكافرين منهم.

﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾(٣٢)

٣٢- ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ تتمة كلام الرؤساء لأتباعهم، والغيّ الخيبة، والمعنى:إنّا وقعنا في الخيبة جميعاً بما كنّا وإياكم في الضلال.

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾(٣٣)

٣٣- ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ رؤساء الضلال وأتباعهم، أو قرناء السوء وأشباههم، مشتركون في العذاب، كما كانوا مشتركين في الغواية.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾(٣٤)

٣٤- ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ قوله سبحانه، أي الحكمة والعدالة اقتضت أن تكون عاقبة المجرمين في آخرتهم متناسبة مع ما كانوا عليه في دنياهم من الغيّ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾(٣٥)

٣٥- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ بغرض دعوتهم للتوحيد ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن القبول، بل يشركون آلهتهم المزعومة وطواغيتهم.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾(٣٦)

٣٦- ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا﴾ سواء كانت هذه الآلهة مادية كالطواغيت، أو وهمية كالجري وراء الشهوات والزعامات ﴿لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ يزعمون أن القرآن من ابتكار محمد وليس وحياً إلهياً، في مسعى منهم لإنكار مسؤوليتهم الأخلاقية والعبث على هواهم.

﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٣٧)

٣٧- ﴿بَلْ جَاءَ﴾ محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالدين الحق لأنه ثابت بالعقل ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين سبقوه، لأن الديانات السماوية جاءت جميعاً بأسس واحدة متضمنة التوحيد ومكارم الأخلاق.

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ﴾(٣٨)

٣٨- ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المجرمون ﴿لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ﴾ بسبب سوء اختياركم وإصراركم.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣٩)

٣٩- ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فالجزاء ليس اعتباطاً وإنّما مترتب بصورة طبيعية على ما كنتم تعملون في دنياكم، فهو مرتبط بأعمالكم ارتباط السبب بالمسبب.

﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾(٤٠)

٤٠- الآيات (٤٠-٦١) تبين مآل عباد الله المخلصين، في مقابل الطواغيت وأتباعهم المشار إليهم آنفاً:

﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ عباد الله المخلصين ليسوا كذلك، ففي حين يُعاقب المجرمون بجرمهم، فإن عباد الله المخلصين يُجزون أضعافاً مضاعفة بالنسبة إلى ما عملوا، انظر [الأنعام ٦/١٦٠].

﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾(٤١) ﴿فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾(٤٢) ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾(٤٣)

٤١- ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ من الرزق المادي، ٤٢. ﴿فَوَاكِهُ وَهُمْ مُّكْرَمُونَ﴾ مكرمون بالرزق الروحاني من السكينة والطمأنينة بالإضافة للرزق المادي.

٤٣- ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ النعيم المادي والروحاني.

﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾(٤٤) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾(٤٥) ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾(٤٦)

٤٤- ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ من السعادة ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾.

٤٥- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ من نهر معين، ظاهر للعيان، أو نابع من العيون.

٤٦- ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ صفة الكأس.

﴿لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾(٤٧)

٤٧- ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يغتال عقولهم ﴿وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ لا يصابون بالشمالة، ولا يصابون منها بالصداع.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾(٤٨) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾(٤٩)

٤٨- ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ قاصرات النظر على أزواجهنّ ﴿عِينٌ﴾ مفردها عيناء، وهي واسعة العين في الجمال.

٤٩- ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ كالجوهر المصون، انظر أيضاً [الواقعة ٥٦/٣٥-٣٧].

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾(٥٠)

٥٠- ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ القصد من الحوار الرمزي من الآية (٥٠) حتى الآية (٥٩) بيان الاستمرارية بين الحياة الدنيا والآخرة.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾(٥١) ﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾(٥٢)

٥١- ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ من قرناء السوء كان لي في الدنيا.

٥٢- ﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ بالبعث والحساب؟

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾(٥٣)

٥٣- ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ لمبعوثون ومُجازون؟ لأن الدِّين بمعنى الجزاء، والخلاصة أن قرين السوء كان ينكر الآخرة والحساب، ويحضّ الآخرين على معتقده.

﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾(٥٤)

٥٤- ﴿قَالَ﴾ القائل المشار إليه بالآية (٥١) موجهاً كلامه لعباد الله المخلصين المشار إليهم بالآية (٤٠): ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ لما آلَ إليه مصير قرين السوء الذي كان ينكر الآخرة؟

﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾(٥٥)

٥٥- ﴿فَاطَّلَعَ﴾ على أهل النار ﴿فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ في وسطها.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾(٥٦) ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾(٥٧)

٥٦- ﴿قَالَ﴾ مخاطباً قرين السوء ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ كدت تهلكني لو اتبعتك.

٥٧- ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ أن منّ عليّ بالتوفيق وبالعصمة ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في العذاب مثلك.

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾(٥٨) ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(٥٩)

٥٨- استمرار خطاب القائل لقرين السوء: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾؟

٥٩- ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى﴾ في الدنيا، فتكون ميتة نهائية وفناء للروح والجسد كما كنت تزعم؟ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ فليس هنالك من بعث بعد الموت ولا حساب، كما كنت تحاول إقناع نفسك وإقناع الآخرين؟

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٦٠)﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ﴾(٦١)

٦٠- ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المآل في الجنة ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لِمن آمن بالآخرة وعمل لها.

٦١- ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ﴾ في دنياهم.

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾(٦٢)

٦٢- ﴿أَذَلِكَ﴾ المآل في الجنة ﴿خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ في جهنم؟

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾(٦٣)

٦٣- ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ من حيث إن شجرة الزقوم ترمز إلى عذاب جهنم، ويبدو أنها المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء ١٧/٦٠].

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾(٦٤)

٦٤- ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ الشجرة في وسط الجحيم، وهي فتنة للظالمين، لأنّ عذاب جهنم من أمور الغيب ولا يقاس بأمور الدنيا.

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾(٦٥)

٦٥- ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ غبار الطلع معروف في النخيل وفي الأشجار المثمرة، وفي الخطاب استعارة لفظية ومعنوية، وتشبيه طلعها برؤوس الشياطين دليل على منتهى قبحها وكراهيتها.

﴿فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾(٦٦)

٦٦- ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ المحرمون ﴿لآكِلُونَ مِنْهَا﴾ من ثمارها ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ تتمة الاستعارة، والمغزى؛ إنّ ما يأكل المحرمون في الآخرة ليس سوى ثمرة من ثمار أعمالهم وجرائمهم الدنيوية.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾(٦٧)

٦٧- ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ يشوب تلك الشجرة ويخالط طلعها وثمارها ماء شديد الحرارة لا يغني عن الظمأ.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾(٦٨)

٦٨- ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ المجرمون ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ وتلك خلاصة الآيات الرمزية (٦٢-٦٨) التي صوّرت الجحيم عبر شجرة الزقّوم التي يعاني منها المجرمون في آخرتهم، لأنهم جمّدوا عقولهم وأصرّوا على التقليد في دنياهم كما تبيّن الآية التالية:

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾(٦٩)

٦٩- ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ وجدوا ﴿آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ الآباء على غير هدى، يشركون، ويعبدون المادة والأوهام والطواغيت، المشار إليها بالآية (٣٦).

﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾(٧٠)

٧٠- ﴿فَهُمْ﴾ الكفار ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ يقلّدون آباءهم وأجدادهم ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يسرعون في التقليد بلا تفكير ولا رويّة، وهكذا يوضح القرآن أن اتّباع عقائد الآباء والأجداد بصورة عمياء، وعدم تحكيم العقل، وتجاهل الهدي الإلهي الذي نزل به الوحي، هي الأسباب الرئيسية المؤدية لعذاب الآخرة المشار إليه بالآيات (٦٢-٦٨).

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾(٧١)

٧١- ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ من أمثالهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف ١٢/١٠٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾(٧٢)

٧٢- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ﴾ ينذرونهم بالبعث والحساب والعواقب.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾(٧٣)

٧٣- ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ إذ لم ينفع فيهم الإنذار.

﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾(٧٤)

٧٤- ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين استفادوا من نعمة العقل، ومن هدي الرسل.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾(٧٥)

٧٥- الآيات (٧٥-١٤٨) تحكي جانباً من قصص الرسل: نوح، وإبراهيم، وموسى وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس، لإبراز بعض العبر منها بما يناسب ما تقدّم من الآيات (٦-٧٤)، وفي هذه القصص أيضاً عودة لموضوع الآيات (١-٥) لجهة الصافّات أي الرسالات السماوية التي تتالت على الأمم:

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ بعد أن أيس من إيمان قومه، وبعد أن لبث فيهم بدعوهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً [العنكبوت ١٥/٢٩]، ونداؤه قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ [نوح ٥/٧١]، وقوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [نوح ٢١/٧١]، ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ ليس أحسن من استجابته تعالى للدعاء.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾(٧٦)

٧٦- ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ الكرب العظيم أي الغم الشديد، وهو الطوفان.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾(٧٧)

٧٧- ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قد يقصد من الذرية الذين كانوا معه على السفينة، وقد تكون ذريته المعنوية أي من اتّبع دعوته بعد ذلك، وخلافاً لزعم العهد القديم ليس في القرآن الكريم ما يدل أن الطوفان كان عامّاً في البشرية كلها، وإنّما اقتصر فقط على المنطقة التي كان فيها قوم نوح شمال العراق.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾(٧٨) ﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾(٧٩)

٧٨- ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ أي بالذكر الجميل في الأمم من بعده.

٧٩- ﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(٨٠) ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾(٨١)

٨٠- ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ بالذكر الجميل من بعده، وبنعمة السلام الروحاني.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾(٨٢)

٨٢- ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ من قومه الذين أصرّوا على إنكار الرسالة فداهمهم الفيضان.

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ﴾(٨٣)

٨٣- ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ﴾ من عقيدته ﴿لإِبْرَاهِيمَ﴾ دعوة كليهما بالتوحيد واحدة، والرسالات السماوية نزلت برسالة واحدة وهي تكمل بعضها بعضاً.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٨٤)

٨٤- ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ سليم من فساد العقائد، ومن التقليد، مطابق للفطرة السليمة، ولمنطق العقل السليم، كما هو سليم من الشرور.

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾(٨٥)

٨٥- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ قالها استخفافاً بأوثانهم وبمعبوداتهم من النجوم والكواكب، وخطابه موجّه لأبيه وكبار قومه، ولمزيد من التفصيل عن بعثة إبراهيم وبدايتها في أور كلدان بالعراق انظر شرح [الأنعام ٧٤/٦].

﴿أَإِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾(٨٦)

٨٦- ﴿أَإِفْكًا آلِهَةً﴾ أكذباً وبهتاناً ﴿دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ تعبدون من دون الله ما هو إفك؟ أي كذب فاضح؟ فتلك المعبودات من نسج خيالكم.

﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٨٧)

٨٧- ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ المغزى هل يجوز أن تكون الأوثان والنجوم والكواكب التي تعبدون مشاركة لله تعالى في الألوهية؟ وهي ليست سوى مخلوقات؟ فالأوثان من صنع أيديكم، والنجوم والكواكب من مخلوقاته تعالى.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾(٨٨)

٨٨- ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ لأنهم كانوا يعبدون الشمس والقمر، ونظرته في الشمس والقمر تعريضاً بعبادتهم لها، كما في آيات [الأنعام ٧٦/٦-٧٨].

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾(٨٩)

٨٩- ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ إنّ هذا ممّا يدعو إلى السقم، أو المرض النفسي، أو الغثيان، أن تعبدوا من المخلوقات كالشمس والقمر.

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾(٩٠)

٩٠- ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ تركه كبار القوم وراء ظهورهم ولم يستجيبوا لدعوته، بعد المحاجّة التي دارت بينهم، انظر شرح آيات [الأنعام ٨٠/٦-٨٣].

﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ﴾(٩١)

٩١- ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ﴾ ذهب خِفيةً إلى أصنامهم التي يعبدونها ﴿فَقَالَ﴾ للأصنام ﴿أَلا تَأْكُلُونَ﴾ من الأطعمة التي يقدمها لكم عَبَدَتكم؟ وفي ذلك مزيد من التعريض بسخافاتهم، وقد يكون أنه قال ذلك علانيةً استخفافاً بمعبوداتهم، ولكي يسمعه العوام من الناس، آملاً أن يفيقوا من غفلتهم ويعتبروا.

﴿مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ﴾(٩٢)

٩٢- ﴿مَا لَكُمْ﴾ أيها الأصنام ﴿لا تَنطِقُونَ﴾ لستم جديرين بالنطق، إذ أنتم جمادات نحتها عَبَدَتُكم بأيديهم.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾(٩٣)

٩٣- ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ عاجَلَ الأصنام بالضرب بكلّ قواه، محطّماً إياهم.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾(٩٤)

٩٤- ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أسرع كبار القوم بالعودة إلى إبراهيم وقد أضمروا له الشر، بعد أن سمعوا بما فعلَ بأصنامهم.

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾(٩٥)

٩٥- ﴿قَالَ﴾ إبراهيم لكبار القوم ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ بأيديكم؟

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(٩٦)

٩٦. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ الله تعالى خالقُكم وخالق الأصنام، فكيف تعبدون المخلوقات وتتركون الخالق؟

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾(٩٧)

٩٧- ﴿قَالُوا﴾ استكباراً وعناداً ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ صرحاً من المواد القابلة للاشتعال ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ أي في البنيان وهو يشتعل، والواضح أنّ مزاج كبار القوم، بما فيه من التشنج والاستعلاء، لم يسمح لهم بمزيد من المحاجّة مع إبراهيم، فلم يكن لهم بدّ من الرد عليه بالحرق بعد أن حطّم أصنامهم.

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾(٩٨)

٩٨- ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ بالشر ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ إذ أخفقوا في مسعاهم وخرج إبراهيم سالماً، لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء ٢١/٦٩].

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(٩٩)

٩٩- ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ إنّي مهاجر، من هذه الأرض التي رفض أهلُها رسالتي، إلى حيث يهديني ربّي.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(١٠٠)

١٠٠- ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من الذرية الصالحة، وكان متقدماً وزوجته في السنّ.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾(١٠١)

١٠١- ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وهو إسماعيل عليه السلام.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾(١٠٢)

١٠٢- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ بلغ إسماعيل من السن مرحلةً يستطيع أن يسعى مع أبيه لتحقيق أهدافه، بعد أن فهم إيمان أبيه وشاركه فيه ﴿قَالَ﴾ إبراهيمُ لابنه ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ قال الرازي: اختلف الناس في أنّ إبراهيم عليه السلام كان مأموراً بما رأى في المنام، أم لا؟ وقد يكون

أنّ إبراهيم اعتقد أنّ إرادة الله اقتضت ذبح إسماعيل، ثمّ بيّنت الأحداث الفعلية عكس ذلك ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قالها لإسماعيل على سبيل المشورة ﴿قَالَ﴾ إسماعيل ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ مبالغةً في طاعة أبيه فيما اعتقد أنها إرادة الله ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ على هذا الامتحان، والملاحظ أنّه علّق صبره على مشيئة الله.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾(١٠٣)

١٠٣- ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ استسلما وانقادا وأذعنا، لأنه يُقال سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ صرعه أبوه على شقّه فصار جانب من جبينه على الأرض، وقالوا: إن التليل والمتلول هو المصروع.

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾(١٠٤)

١٠٤- ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ناداه الله تعالى: أن يا إبراهيم قد صدّقتَ الرؤيا.

﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(١٠٥)

١٠٥- ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ إذ أنت على وشك تنفيذها، وبذلك بلغتَ المغزى منها، وهو استعدادك للتضحية بأعزّ ما لديك ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ بإعفائهم من مشاقّ الفتنة.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾(١٠٦)

١٠٦- ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ الاختبار الذي يبيّن بلا أي التباس المخلصين من غيرهم، والبلاء أيضاً المحنة البيّنة الصعوبة، وهي المحنة التي اجتازها إبراهيم بنجاح، واحتياز مثل هذه المحنة يعدّ امتيازاً ما بعده امتياز، انظر أيضاً شرح قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة ١٢٤/٢].

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾(١٠٧)

١٠٧- ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ زعموا في العهد القديم (سفر التكوين ١٣/٢٢)، أن إبراهيم وجد أمامه كبشاً فقدّمه قرباناً تأكله النار، انظر [آل عمران ١٨٣/٣]، غير أنه ليس أعظم من مئات ألوف الأضاحي يذبحها المسلمون كل عام في موسم الحج اقتداءً بما فعله جدهم الأكبر إبراهيم.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾(١٠٨)

١٠٨- ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ لإبراهيم أو لإسماعيل أو كليهما من الذكر الجميل ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ في الأجيال القادمة التي اتّبعت ملّته.

﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾(١٠٩)

١٠٩- ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ نعمة السلام الروحاني على إبراهيم بعد المحنة العظيمة التي اجتازها.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(١١٠) ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾(١١١)

١١٠- ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل هذا الجزاء العظيم ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يجتازون المصائب والمحَن، انظر قوله تعالى في [البقرة ١٢٤/٢ و ١٥٥].

١١١- ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(١١٢)

١١٢- ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ بعد إسماعيل ﴿نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وإسحاق الجد الأكبر لأنبياء بني إسرائيل.

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾(١١٣)

١١٣- ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إبراهيم ﴿وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ وهكذا يرفض القرآن الكريم زعم اليهود أنهم

الشعب المختار لمجرّد نسبهم إلى جدّهم الأكبر إسحاق وإبراهيم، ولأن كل إنسان مرهون بعمله، والنسب لا أثر له في الهدى والضلال، كما أنّ الظلم في الأعقاب لا يعود بالنقيصة على الأصول.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾(١١٤)

١١٤- ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ بالنبوّة، بناء على صلاحهما، وليس لكونهما من ذرية إسحاق، فالصلاح ليس مرتبطاً بالضرورة بالنسب كما سبق بيانه.

﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾(١١٥)

١١٥- ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ من بني إسرائيل ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ من أسر فرعون، ومن الغرق في أثناء عبورهما البحر إلى سيناء.

﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾(١١٦)

١١٦- ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ بإغراق فرعون وجيشه في البحر ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ على فرعون.

﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾(١١٧)

١١٧- ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ وهو التوراة التي أوحيت إلى موسى لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة ٥/٤٤].

﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(١١٨)

١١٨- ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ في دعوة فرعون وملئه، وفي دعوتهما بني إسرائيل.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾(١١٩)

١١٩- ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا﴾ الذكر الجميل ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ في الأجيال القادمة من يهود ونصارى ومسلمين.

﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾(١٢٠) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(١٢١) ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾(١٢٢)

١٢٠- ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ السلام الروحاني يتنزّل عليهما.

١٢١- ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ مثل هذا الجزاء العظيم.

١٢٢- ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(١٢٣)

١٢٣- ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ بُعثَ إلياس إلى بني إسرائيل بعد انشقاق مملكة سليمان إلى مملكتين: الشمالية إسرائيل، والجنوبية يهوذا، وقد ارتكس ملوك إسرائيل إلى الوثنية مراراً وعبدوا آلهة الفينيقيين (بعل) وذلك مذكور بتفصيل في العهد القديم.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾(١٢٤)

١٢٤- ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ألا تتقون الوثنية، وارتكاسكم فيها؟ بعدما جاءكم من التوحيد برسالة موسى؟

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾(١٢٥) ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾(١٢٦)

١٢٥- ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ تعبدونه، بعل: اسم جنس لآلهة الوثنية الفينيقية ﴿وَتَذَرُونَ﴾ عبادة ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ الله تعالى.

١٢٦- ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ متولّي شؤونكم ورزقكم، في حين أن الوثن بعل لا يقدر على شيء من ذلك.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾(١٢٧)

١٢٧- ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بنو إسرائيل الذين انحرفوا نحو الوثنية، والفينيقيون، كلاهما كذّبوا إلياس ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ للحشر والحساب.

﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾(١٢٨)

١٢٨- ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ يُحشرون إلى الجنة.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾(١٢٩)

١٢٩- ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إلياس الذكر الجميل ﴿فِي الآخِرِينَ﴾.

﴿سَلاَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾(١٣٠) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(١٣١) ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾(١٣٢)

١٣٠- ﴿سَلاَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ السلام الروحاني يتنزّل عليه، وقد ذكر الزمخشري أنّ لزيادة الياء والنون معنى في اللغة السريانية، وشبيه بذلك سيناء وسينين، وكثيراً ما يتصرّفون في الأسماء غير العربية، وقيل هو جمع إلياس بمعنى إلياس وأتباعه.

١٣١- ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ بتنزّل السلام الروحاني عليهم.

١٣٢- ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(١٣٣)

١٣٣- ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهو ابن أخي إبراهيم بُعث إلى القرى التي نُسبت إليه، وهي قرى لوط على الساحل الشرقي للبحر الميت، انظر [الأعراف ٧/٨٠-٨٤] و [هود ١١/٧٤-٨٣].

﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾(١٣٤)

١٣٤- ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ من القرية التي كانت تعمل الخبائث [الأنبياء ٢١/٧٤].

﴿إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾(١٣٥) ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾(١٣٦)

١٣٥- ﴿إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ امرأته كانت تميل لشذوذ قومها فهلكت معهم، ولذا استثنتها الآية من قوله ﴿وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾.

١٣٦- ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ من قومه.

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾(١٣٧) ﴿وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(١٣٨)

١٣٧- ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾

١٣٨- ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾ نهاراً وليلاً في طريق ذهابكم وإيابكم إلى بلاد الشام، فتشاهدون مناطق الحمم البركانية التي قضت عليهم، وطريق الشام المجاور لقرى لوط ظاهر في الصور الجوية لتلك المنطقة ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ فتلك عبرة على مرّ العصور لمن يستخدم عقله على النحو السليم.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(١٣٩)

١٣٩- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ بُعث إلى الآشوريين في بابل في عاصمتهم نينوى التي لا تزال بقاياها ماثلة على شاطئ دجلة المقابل لمدينة الموصل.

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾(١٤٠)

١٤٠- ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أصلُه الهرب من السيد، وهو مجاز، والواضح إنّ معظم قومه أصرّوا على رفضه حتى ذهب مغاضباً كما في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ [الأنبياء ٢١/٨٧]، إذ هرب من قومه من دون إذن ربه ﴿إِلَى

الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ وحدَ سفينة مملوءة بالركاب على شاطئ البحر المتوسط فلاذَ بالركوب فيها.

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾(١٤١)

١٤١- ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ القصة مذكورة في العهد القديم بتفصيل (سفر يونس)، وخلاصتها أن السفينة تعرضت للغرق وهي في عرض البحر بسبب العواصف الهوجاء، فقال الركاب هنالك رجل بيننا هارب من ربّه قد عرّضنا للخطر وسوف نعرف من هو بطريق القرعة، فخرجت القرعة على يونس ثم ألقوه في البحر حتى هدأت العاصفة ونجت السفينة.

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾(١٤٢)

١٤٢- ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾ بعد أن ألقوه في البحر ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أعمال يونس أوصلته إلى هذه النتيجة.

﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾(١٤٣)

١٤٣- ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ بقوله: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي أنزّهكَ يا الله تنزيهاً لائقاً بك عن كل نقص وسوء، وأن يعجزك شيء ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ظلمت نفسي، وظلمت قومي بتعريضهم للهلاك، إذ تخليت عنهم من غير أمر، وبخلاف ما اعتاد عليه الأنبياء، انظر شرح [الأنبياء ٨٧/٢١].

﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(١٤٤)

١٤٤- ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ﴾ في بطن الحوت ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ من دون أي إمكانية للنجاة.

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾(١٤٥) ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾(١٤٦)

١٤٥- ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ على الساحل في منطقة قاحلة من النبات ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ في حالة من السقم النفسي بعد المحنة التي مرّ بها.

١٤٦- ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ تظلله كالخيمة.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾(١٤٧) ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾(١٤٨)

١٤٧- ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ وهم أهل نينوى.

١٤٨- ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ إلى أن حانت آجالُهم، وهي فرصتهم الثانية للتوبة بعد أن عاد يونس إليهم، انظر قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس ١٠/٩٨].

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾(١٤٩)

١٤٩- بعد أن أكملت الآيات (٧٥-١٤٨) قصص بعض النبيين مع أقوامهم إشارةً لقوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ (١)، أي الرسالات السماوية المتتالية، يعود الخطاب لشرح بعض مذاهب المشركين وبيان قبحها وسخافتها، ومن ذلك أنهم نسبوا البنات لله سبحانه، انظر أيضاً شرح آيات [النحل ١٦/٥٦-٥٩]، وفي ذلك أيضاً عطف على قوله تعالى بالآية (١١): ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ لأنّ العرب زعمت أنّ الملائكة من جنس الإناث وأنها بنات الله سبحانه، مع أنهم يكرهون الإناث لأنفسهم.

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾(١٥٠)

١٥٠- ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ فذلك ليس في عالم المشاهدة، وإنما الكفار يتخبطون فيما لا يعلمون.

﴿أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾(١٥١) ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(١٥٢)

١٥١- ﴿أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ﴾ لشدة كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ﴾ بلا برهان عقلي ولا نقلي.

١٥٢- ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ ينسبون الأولاد لله تعالى ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في زعمهم.

﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾(١٥٣) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(١٥٤) ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾(١٥٥)

١٥٣- ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ في زعمكم؟

١٥٤- ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فهذه الأحكام باطلة بداهةً؟

١٥٥- ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ إن العقول السليمة تنكر ذلك، في إشارة إلى الآية (١٣).

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾(١٥٦) ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(١٥٧)

١٥٦- ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ﴾ برهان أو حجّة ﴿مُبِينٌ﴾ فلا بد من برهان عقلي أو نقلي يؤيده.

١٥٧- ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ من الوحي ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾(١٥٨)

١٥٨- ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ﴾ بين الله ﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ﴾ مع أنها من مخلوقاته ﴿نَسَبًا﴾ بزعمهم ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ للحساب والجزاء.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(١٥٩)

١٥٩- ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيهاً لله تعالى عن كل نقيصة، وعمّا زعموا من وجود النسب بينه وبين الجِنّة، وعن كل وصف لا يليق بكماله وعظمته.

﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾(١٦٠)

١٦٠- ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ قد تكون (إلاّ) بمعنى(لكن)، والمعنى ليس التخبّط والكفر من شأن عباد الله المخلصين.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾(١٦١)

١٦١- ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها الكفار ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من الأوهام والطواغيت والمادة والشهوات.

﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾(١٦٢) ﴿إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾(١٦٣)

١٦٢- ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ على ذلك ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ ليس بإمكانكم، أيها الكفار، أن تفتنوا وتضلّوا معكم من الناس إلاّ مَن يختار الضلال بمحض اختياره.

١٦٣- ﴿إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ فيكون من أصحاب الجحيم.

﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾(١٦٤)

١٦٤- انتقال الخطاب لبيان منزلة جميع المخلوقات عنده تعالى بحسب درجاتهم: ﴿وَمَا مِنَّا﴾ من المخلوقات ﴿إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ عند الله تعالى، من مؤمنين أو كفار، ومن أحياء أو جمادات:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾(١٦٥)

١٦٥- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ المخلوقات من أحياء وجمادات منصاعون لمشيئته تعالى، طوعاً أو كرهاً.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾(١٦٦)

١٦٦- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ كل مظاهر الطبيعة من أحياء وجماد تسبّح بحمده تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء ١٧/٤٤]، وأيضاً: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء ٢١/٧٩].

﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾(١٦٧)

١٦٧- ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ الكفار يخدعون أنفسهم ويقولون بعد فوات الأوان:

﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الأَوَّلِينَ﴾(١٦٨) ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾(١٦٩)

١٦٨- ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا﴾ من الوحي ﴿مِنَ﴾ كتب ﴿الأَوَّلِينَ﴾ يزعمون أن لو نزل عليهم كتابٌ من جنس الكتب السماوية التي نزلت على أحدادهم الأوّلين لآمنوا.

١٦٩- ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ لكنّهم كفروا بالقرآن الكريم لمّا جاءهم مع أنه الكتاب المعجز والمهيمن على ما قبله من الكتب: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة ٥/٤٨].

﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(١٧٠)

١٧٠- ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ بالقرآن الكريم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾(١٧١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾(١٧٢)

١٧١- ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ سبقت كلمته تعالى منذ الأزل بنصر الرسل لقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر ٤٠/٥١].

١٧٢- ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ أي الرسل.

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾(١٧٣)

١٧٣- ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ من أتباع الرسل ﴿لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ليس بالضرورة بالقوة والحرب، ولكن بغلبة المنطق والإقناع والحجة الأقوى.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾(١٧٤)

١٧٤- ﴿فَتَوَلَّ﴾ أيها النبي، وأيها المؤمن في كل عصر ﴿عَنْهُمْ﴾ عن المصرّين على الكفر، إذ لا إكراه في الدين ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ دعهم لعلهم يتوبون، أو حتى تحين آجالُهم، لأنّ الناس مكرّمون بحرية الفكر.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾(١٧٥)

١٧٥- ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ انظر إليهم من زاويتهم لما هم عليه من حرية الفكر وخداع النفس وظنهم أنهم على الصواب ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ الحقيقة إن في الدنيا أو في الآخرة.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾(١٧٦)

١٧٦- ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ لأنهم يتهكمّون ويزعمون أنّ القرآن من عند النبي وليس وحياً، ويستعجلون العذاب إمعاناً في التحدّي قائلين: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال ٨/٣٢].

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾(١٧٧)

١٧٧- ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ في دارهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ إذ لم ينفع الإنذار معهم.

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾(١٧٨) ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾(١٧٩)

١٧٨- ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ دعهم يأخذوا فرصتهم بعد إنذارهم.

١٧٩- ﴿وَأَبْصِرْ﴾ عقليتهم وضلالهم ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ الحقيقة في حينه.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(١٨٠)

١٨٠- بعد النظر للمصرّين على الكفر من هذه الزاوية لم يبقَ سوى الصبر والتسبيح بحمده تعالى والسلام على الرسل:

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيهاً لله تعالى عن كل نقيصة، وعن مشابهته للبشر، وعمّا يصفون له من الصفات التي لا تليق بعظمته وألوهيته.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾(١٨١)

١٨١- ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ السلام الروحاني عليهم، وسلامتهم من كل مكروه وكرب، بما يليق بهم.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١٨٢)

١٨٢- ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مستحق الحمد على نعمائه المادية والمعنوية، أن بعثَ الرسُل، وختمَ بإنزال القرآن رسالةً للعالمين، ولم يترك العباد يتخبطون على غير هدى.

سورة ص -٣٨-

مكية

مقدمة

نزلت في النصف الأول من الفترة المكية حوالي العام الخامس من البعثة النبوية.

ارتباط السورة بما قبلها

افتتحت سورة الصافّات المتقدمة بالإشارة إلى الإحكام في نظم آيات القرآن الكريم: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ (١/٣٧)، وفي أواخر سورة الصافات زعْم الكفار أن لو جاء التوحيد في كتب آبائهم لاتبعوه: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٦٧/٣٧-١٦٩)، ولكن عندما جاءهم القرآن بالذكر الذي كانوا يترقّبون كفروا به: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (١٧٠/٣٧)، ثم تفتتح سورة ص بالإشارة للذكر وهو القرآن الكريم: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١/٣٨)، ثم قوله تعالى أن ذوي الألباب فقط ينتفعون به: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٢٩/٣٨).

ونظيره قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي فيه كل ما يلزم أن تعلموه لضمان كرامتكم وسعادتكم، أفلا تستخدمون عقولكم لفهمه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٠/٢١).

محور السورة

أن القرآن الكريم نزل على البشرية بكل ما تحتاج أن تتذكره وتحيط به علماً لتحقيق كرامتها وسعادتها: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١)، ومع ذلك فالمصرّون على الكفر غارقون في كبرهم الزائف وفي استعلائهم وفي ظنهم بالاكتفاء الذاتي بما عندهم من العلم: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾(٢).

بل إنهم يبررون ضلالهم بزعم ضلال غيرهم من المجتمعات التي عبدت وتعبد آلهة متعددة، كعقيدة التثليث عند المسيحية: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾ (٧)، وضلالهم ليس مقتصراً على التشكيك في شخص النبي ﷺ: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ بل يتجاوزه إلى التشكيك بفحوى رسالته: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ (٨).

لكنّ التشكيك بمغزى الخلق والحياة يؤدي بأصحابه بالضرورة إلى نبذ المقاييس الأخلاقية وإلى العمى الروحاني: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ومن ثم يؤدي بهم إلى عذاب الآخرة: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧).

وقد جاءهم النبأ العظيم أو الرسالة العظيمة التي هي القرآن الكريم فأعرضوا عنه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (٦٧-٦٨)، مع أنه ليس للإنسان من عذر في الإعراض، فقد سبق أن علّمه تعالى الأسماءَ كلها، انظر آية [البقرة ٢/٣١]، أي المقدرة على التفكير المجرد ومن ثم المقدرة على تمييز الحق من الباطل، وتفوُّق الإنسان على غيره من المخلوقات بالفكر والعقل ما يفسر قولَه تعالى أنه خلقه بيديه: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (٧٥).

ثم إن القرآن الكريم ليس للعرب وحدهم بل رسالة عالمية للناس كافة: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٧)، ولسوف يأتي الوقت، إن في الدنيا أو في

الآخرة، الذي يدرك الجميع معانيه ويفقهون مغزاه: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾(٨٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾(١)

١- ﴿ص﴾ الله أعلم بمراده، انظر شرح آية [البقرة ٢/١]، ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ المعنى: انظروا أيها الناس في هذا القرآن الذي فيه من التذكير بالفطرة السليمة، والتشريف والتكريم لبني آدم، انظر [الإسراء ٧٠/١٧] و [البقرة ٣١/٢]، وإنقاذه من هوان الشرك وعبادة الأوهام، ففي القرآن كل ما يحتاج الإنسان أن يتذكّر للتوصّل إلى الكرامة والسعادة.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾(٢)

٢- ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ﴾ ومع ذلك فالمصرّون على الكفر ينكرون القرآن وإمكانية الوحي الإلهي، لأن الإقرار بذلك يترتب عليه مسؤوليتهم تجاه الله سبحانه، مما يتعارض مع عزتهم الوهمية واستكبارهم واعتقادهم بالاكتفاء الذاتي ﴿وَشِقَاقٍ﴾ فكأنهم جعلوا أنفسهم في شقّ، والهدي الإلهي في شقّ آخر، أي على طرفي نقيض.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾(٣)

٣- ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ من الأمم والحضارات البائدة التي أصرّت على الكفر فآل مصيرها الطبيعي إلى الانحطاط والزوال ﴿فَنَادَوْا﴾ مستغيثين بعد فوات الأوان ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ استغاثتهم كانت بعد أن لم يكن لهم من نجاة، لأنّ المناص الملجأ والنجاة، و﴿لاتَ﴾ بمعنى ليسَ، فيكون تقدير الخطاب: فنادوا حين لا مناص لهم.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾(٤)

٤- ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ الرسول منهم أي من جنسهم من البشر، أو أمّي كما كانت قريش، فكيف يمكن أن يكون نبياً بزعمهم؟ وهذه العقلية غير مقتصرة على قريش بل سائدة في كل عصر لدى الكثير من الناس ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ﴾ نسبوا إعجاز القرآن إلى السحر ﴿كَذَّابٌ﴾ بزعمهم؛ إذ ينسب القرآن إلى الله تعالى.

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾(٥)

٥- ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي وماذا عن سلطانهم وحبروتهم الذي يظنّون؟ إذ يعتقدون أنفسهم أنصاف آلهة يتصرّفون في الدنيا على هواهم ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ بزعمهم، أن تُنسب المقادير إلى الله تعالى وحده.

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾(٦)

٦- ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ الملأ كبار القوم الذين إذا حضروا المجالس تمتلئ القلوب والعيون من مهابتهم ﴿أَنِ امْشُوا﴾ يحضّون الأتباع على البقاء على دينهم ﴿وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ اثبتوا على عبادتها ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ يُراد بنا من نوائب الدهر فلا بد من الصبر عليه.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾(٧)

٧- تتمة كلام الملأ: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ في ملّة المسيحية، لأنهم يقولون بالتثليث، وبألوهية عيسى، وينكرون التوحيد ﴿إِنْ هَذَا﴾ من الدعوة إلى التوحيد ﴿إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ افتراء، لأنهم اعتادوا على عبادة الأوثان والأيقونات وتأليه زعمائهم ورجال الدين من بينهم.

﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾(٨)

٨- تتمة كلام الملأ: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ على النبي ﴿الذِّكْرُ﴾ الوحي ﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾ ونحن رؤساء الناس وأشرافهم، والأحدر أن ينزل الوحي علينا؟ وذلك

شبيه بقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف ٤٣/٣١]، أي على رجل عظيم من فارس أو الروم، أو من مكة أو الطائف، ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ المغزى أنهم في شكّ من القرآن، وليس في شخص النبي، لأنّ القرآن يعارض شركهم وأهواءهم ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ المترتّب على إنكار القرآن.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾(٩)

٩- ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ رحمة الله بهذا المعنى هي الوحي الإلهي، بدليل آية [هود ١١/٦٣]، والمعنى؛ هل يظنّون أن التصرّف بمنصب النبوّة عائد إليهم؟ ﴿الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ يهب النبوّة لِمَن يشاء بحسب الحكمة.

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾(١٠)

١٠- ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هل يظنّون أنّ بإمكانهم يوماً السيطرة على الكون والطبيعة ممّا هو من خصائص الألوهية فقط؟ ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ فليستخدموا كل إمكاناتهم إن استطاعوا.

﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ﴾(١١)

١١- ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ﴾ مهما تكاتفَ الكفار وتعاضدوا وتحزّبوا، بعضهم مع بعض، فمصيرهم في النهاية إلى الزوال عندما يختارون إنكار الحقيقة.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ﴾(١٢)

١٢- الآيات (١٢-١٦) تضرب أمثلة على الأمم المهزومة المشار إليها بالآية المتقدمة: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قريش ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ﴾ فرعون ذو الأوتاد: تشبيه لثبات ملك فرعون ورسوخ سلطته ببيت ثابتة أوتاده في الأرض.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ﴾(١٣)

١٣- ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أصحاب الأيكة قوم شعيب في مدين ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ كأنهم تحزّبوا وتكاتفَ بعضُهم مع بعض في إنكار الأنبياء والرسل والوحي الإلهي.

﴿إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾(١٤)

١٤- ﴿إِنْ كُلٌّ﴾ من الأقوام المذكورة ﴿إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ استحقّوا العقاب كنتيجة طبيعية لتكذيبهم.

﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾(١٥)

١٥- ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ﴾ أي قريش أو غيرهم من المكذّبين ﴿إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يترتب عليها هلاكهم ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ عندما يحين موعدها فلا شيء يفوق الزمن المقدّر لهلاكهم.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾(١٦)

١٦- ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا﴾ قالوه على سبيل السخرية، أي عجّل لنا قسطنا من العذاب ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ولا تمهلنا ليوم الحساب، قالوه إمعاناً في التحدّي، وهذا القول يقوله الكفرة والجهلة في كل زمن.

﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(١٧)

١٧- ﴿اصْبِرْ﴾ أيها الرسول، وأيها المؤمن ﴿عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من العناد والمكابرة، ودعهم وشأنهم، فليس على المؤمن سوى الذكرى، انظر [الأعلى ٨٧/٩]، ﴿وَاذْكُرْ﴾ في نفسك، أو اذكر لهؤلاء المكذّبين قصة داوود وغيره من الأنبياء مثل سليمان، وأيوب، وإبراهيم وإسحاق ويعقوب، وإسماعيل واليسع وذا الكفل، الذين سوف يرد ذكرهم، لاقوا أشد العنت والتكذيب من أقوامهم، كما لاقى النبي من قومه، لعلهم يتوبون، فلا تيأس من إيمانهم، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ ذا القوّة على أداء الطاعات ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجّاع إلى ربه بالاستغفار.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾(١٨)

١٨- ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ جميع المخلوقات حتى الجماد منها، والبهائم تسبح الله تعالى، وقيل سُمّيت بهائم لكونها وأحوالها قد أُبهم على غالب الخلق: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء ٤٤/١٧]، فما بال هؤلاء المكذبين يجحدون؟ وقد أنعم الله تعالى عليهم بالعقول وعلّمهم الأسماء كلها، انظر [البقرة ٣١/٢].

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾(١٩)

١٩- ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ حتى الطيور التي لا عقل لها ولا إدراك كالإنسان ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ كل من الجبال والطيور تؤوب أي ترجع لله تعالى بالتسبيح.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾(٢٠)

٢٠- ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ قوّيناه ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ النبوّة وكمال العلم وإتقان العمل، انظر [النساء ٥٤/٤] حيث تساوي الحكمة بالنبوّة ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ بتمييز الحق من الباطل.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾(٢١)

٢١- وهنا تعطي السورة مثالاً لكون داوود أوّاباً أي رجّاعاً بالاستغفار، الآية (١٧): ﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ أيها النبي، أو أيها القارئ ﴿نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ المتخاصمَيْن ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ تسلّقوا سور المحراب الذي كان داوود يصلّي فيه.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾(٢٢)

٢٢- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهم كانوا مَلَكَيْن على صورة بشر ﴿قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ أي نحن خصمان، وسنرى في الآية التالية أن

أحدهما تقمّصَ شخصية داوود، والآخر تقمّصَ شخصَ قائده العسكري - أوريا- ولم يدرك داوود ذلك حتى نهاية القصة ﴿بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ ظلمَ أحدُنا الآخر، أي داوود ظلمَ أوريا ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ لا تتجاوزه ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ إلى وسط طريق الحق، بزجر الباغي وإرشاده إلى منهج العدل.

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾(٢٣)

٢٣- ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ وهي أخوّة الدين، أو أخوّة الصداقة والألفة ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ هذه القصة الرمزية تشير إلى زعم اليهود في العهد القديم أن داوود، وهو على سطح قصره، لمح زوجة أحد قادته -أوريا- وهي عارية تستحم في بيتها، فأمر بإحضارها ودخلَ بها، كما أمرَ أن يوضع زوجها في مقدمة الجبهة حتى قُتل، ثمّ تزوج داوود من المرأة -باث شيبا- فأنجبت له سليمان (سفر صموئيل الثاني ١١/٣-٢٦)، وكان لداوود وقتئذٍ تسعٌ وتسعون زوجة (نعجة)، والقائد العسكري أوريا لم يكن له سوى هذه الزوجة (نعجة واحدة)، وهذه القصة يناقضها القرآن الكريم من جهتين: أولاً: أن داوود لم يأمر بإرسال أوريا إلى الجبهة ليُقتَل وإنما ضغطَ عليه أن يطلّق زوجته حتى يتزوجها برضاه، وثانياً: أنه لم يدخل في المرأة حتى تزوجها.

﴿فَقَالَ﴾ أحد الخصمين للآخر، أي داوود للقائد في القصة الرمزية ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ المعنى: تنازل عن النعجة أي عن زوجتك وملّكنيها، أي طلّقها حتى أتزوجها، قال الرازي: إنه كان مألوفاً في أهل ذلك الزمان أن يسأل أحدهم الآخر أن يطلّق امرأته حتى يتزوجها ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ ضغطَ عليّ وغلَبني في طلَبه، فلم أطِق أن أردّه، وهو قول أوريا القائد.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (٢٤)

٢٤- ﴿قَالَ﴾ داوود لأحد الخصمين أمامه: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ أن يضم زوجتك إلى زوجاته ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ أي الشركاء الذين يختلط بعضهم مع بعض ﴿لَيَبْغِي﴾ ليتعدّى ﴿بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بلا مراعاة لحق الشراكة والصحبة والألفة، فالمخالطة توجب كثرة المنازعة والمخاصمة ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم يحفظون هذا الحق ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ هم قليل جداً ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ﴾ الظنّ هنا بمعنى اليقين، والمعنى اكتشف داوود وقتئذٍ فجأةً وأيقن أنّ المتخاصمَيْن يمثّلان قصته مع القائد أوريا وأن الله تعالى قد ابتلاه: ﴿أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ اختبره تعالى، وفشل داوود في الاختبار لجهة ارتكاب خلاف الأوْلى ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ خرّ من ركوعه ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾ رجع إلى الله تعالى بالتوبة.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾(٢٥)

٢٥- ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ ما استغفر منه ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾ قربى ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ المرجع الحسن في الآخرة.

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾(٢٦)

٢٦- ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ في أرض فلسطين تحكم فيها بشرع الله ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في قصة داوود مع بات-شبا إشارة إلى أن الأنبياء معرّضون لاتّباع الهوى، لجهة ارتكاب خلاف الأوْلى، وإنهم يتوصلون للعصمة بجهاد النفس

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ إذ لم يأخذوا يوم القيامة في الحسبان.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾(٢٧)

٢٧- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾ ولكن خلقناهما بمعنى ومغزى ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الكفار يظنّون أنّ الخلق تمّ اعتباطاً بلا معنى، وفي ذلك محاولة للتهرب من مسؤولياتهم، ما يؤدي بهم إلى العمى الروحاني ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ إذ لا مفرّ لهم من المسؤولية والحساب.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾(٢٨)

٢٨- ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ﴾ فتفقد الحياة مغزاها إن لم يكن هنالك ثواب وعقاب في الآخرة ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ بلا أي اعتبار للعدالة؟

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾(٢٩)

٢٩- بعد أن ذكرت الآية (٢٦) إنّ داوود حكم بشرع التوراة، وبيّنت الآيتان (٢٧-٢٨) أن الخلق ذو مغزى، تبيّن هذه الآية أن القرآن الكريم مهيمن على شرع التوراة، ومصحح لما اختلقَ اليهود من افتراءات على أنبيائهم داوود وسليمان وغيرهم:

﴿كِتَابٌ﴾ أي هذا كتابٌ، وهو القرآن الكريم ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أيها الرسول، وأيها الإنسان ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الخيرات ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ ليتفكّروا في الآيات، وإن الحياة الدنيا مرحلة أولى تتبعها الآخرة ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ ذوو العقول النيّرة.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(٣٠)

٣٠- ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ سليمان رجّاع إلى الله تعالى بالاستغفار، كما أبوه داوود.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾(٣١)

٣١- ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ بعد الظهر ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ الجياد جمع جواد، والصافنات من الخيل التي ترفع إحدى قوائمها عند السكون وطرف حافرها على الأرض، والمعنى أنها إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة بأحسن الأشكال، وإذا جرت كانت سراعاً في جريها، والمعروف أن سليمان كان محبّاً للخيل، حتى إنه كان يتاجر بها على نطاق واسع، مع مصر في الجنوب ومع الحثيين في الشمال.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾(٣٢)

٣٢- ﴿فَقَالَ﴾ سليمان في أثناء عرض الجياد عليه ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أحببت كلّ ما هو خير ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ لأنني أذكر الله دوماً، وما فتئ سليمان يكرر الذِكر: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ توارت الجياد عن الرؤية بحجاب البعد، أو حجاب المسافة، بعد جريها لمسافات طويلة.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾(٣٣)

٣٣- قال سليمان لأصحابه بعد أن توارت الجياد بحجاب البعد: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي الجياد ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ صار يمسح سوقها وأعناقها بيديه، حبّاً بها، وتحبباً إليها، والمغزى أن محبة الله الحقيقية تقتضي محبة مخلوقاته.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾(٣٤)

٣٤- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ الفتنة هي الاختبار والابتلاء ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ اختبار سليمان بجعله بجرد جسد مادي على كرسي العرش

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ نجح سليمان في الاختبار إذ رجع إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار، بعد أن أدرك إن المُلك الدنيوي لا يستقيم إذا لم يكن فيه من البعد الروحي والشرع الإلهي.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾(٣٥)

٣٥- ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ روحياً خاصّاً ﴿لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ لا يتوارثه الناس كما يتوارثون الملك المادي ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ تهب الخير لمن تشاء.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾(٣٦)

٣٦- ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ بأساطيله التجارية في البحر الأحمر وفي البحر الأبيض المتوسط، انظر [الأنبياء ٨١/٢١] و [سبأ ١٢/٣٤]، ﴿رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ تسير الريح بأساطيله حيث يريد، جزاءً لتواضعه ورغبته في مُلك مادي وروحي.

﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾(٣٧)

٣٧- ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ شياطين الإنس والجن ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ يعملون في توريد المواد وبناء المعبد.

﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾(٣٨)

٣٨- ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ رُبط بعضهم إلى بعض بالقيود، قال الألوسي: إن المراد تمثيل كفّهم عن الشرور بالإقران في الأصفاد، وليس هنالك قيد ولا تقييد حقيقةً.

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٣٩)

٣٩- ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ لك من المُلك ﴿فَامْنُنْ﴾ بالعطاء لِمَن يستحق ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ عن العطاء لِمَن لا يستحق ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تُحاسب عليه.

﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾(٤٠)

٤٠- ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾ قربى ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ في الآخرة، وهنا يكتمل الخطاب الذي بدأ بالآية (١٧) تصحيحاً لما في العهد القديم من افتراءات على داوود وسليمان.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾(٤١)

٤١- بعد أن ذكرت الآيات (١٧-٤٠) ما أنعم به تعالى على داوود وسليمان من النعم الكثيرة، تنتقل الآيات (٤١-٤٤) إلى النقيض من ذلك وهو البلاء الذي اختُصّ به أيوب من المحن، ليُعلم أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد، وفي ذلك حضّ للنبي ﷺ أن يصبر على سفاهة قومه:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ النُّصْب: التعب والعناء والشر والبلاء، وقد تكرر في القرآن الكريم أن لا سلطان للشيطان على الناس إلا الوسوسة، فيكون مسّ الشيطان لأيوب من هذا القبيل.

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾(٤٢)

٤٢- ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ وهو إيحاء الله تعالى لأيوب: والركض هو الدفع القوي بالرجل ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فلما ضرب الأرض برجله نبعت منها عين باردة من الماء، يبدو أنه اغتسل فيها وشرب منها فكان فيها الشفاء، ونهاية معاناته الجسمية والنفسية، انظر شرح [الأنبياء ٢١/٨٣-٨٤].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٤٣)

٤٣- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ من الذرية بدلاً من المتوفّين منهم ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ من ذوي الصبر تنبيهاً على أنّ من صبر ظفر.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(٤٤)

٤٤- ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ حزمة من الحشيش أو النباتات بها مئة عود ﴿فَاضْرِبْ بِهِ﴾ زوجتك ضربة واحدة تعادل مئة ضربة ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ لأن أيوب كان قد حلف إن برئ من مرضه أن يضربها مئة ضربة، وقيل: السبب أنها اعترضت على صبره وشدة إيمانه، وقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ على المحنة ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ الصابر ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجّاع إلى الله تعالى بالتوبة وبالاستغفار.

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾(٤٥)

٤٥- ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ ذوو الإرادة القوية والبصيرة الصحيحة، وما لاقوه من عنت من أقوامهم.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾(٤٦)

٤٦- ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أي ذكرى الدار الآخرة، لأنها الدار في الحقيقة، وإنما الدنيا مجاز، وقد جعلهم تعالى خالصين لها لتذكرهم إياها على الدوام، وحضّهم الناس على الاستعداد لها.

﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾(٤٧)

٤٧- ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ المختارين من أبناء جنسهم ﴿الْأَخْيَارِ﴾ الفاضلين عليهم في الخير.

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾(٤٨)

٤٨- ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ﴾ فصّل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لكون محمد ﷺ من ذريته ﴿وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ الفاضلين في الخير.

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾(٤٩)

٤٩- ﴿هَذَا﴾ ما تقدّم من ذكر الأنبياء المشار إليهم ﴿ذِكْرٌ﴾ لأنهم لاقوا المعاندة من أقوامهم، ولم يكن الأمر مقتصراً على محمد ﷺ وقريش ﴿وَإِنَّ

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتّقون الشهوات والتكالب على الدنيا ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ في الآخرة، والمآب المرجع، وحسن المرجع كما هو مذكور في الآيات (٥٠-٥٤).

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾(٥٠) ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾(٥١) ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾(٥٢) ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾(٥٣) ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾(٥٤)

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾(٥٥)

٥٥- ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ الذين طغوا على الرسل وكذبوهم، والذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ في جهنم، وهنا تصوّر الآيات (٥٥-٦٥) حواراً رمزياً بين الطغاة وأتباعهم، والمغزى أن الطغاة لا يغنون عن أتباعهم شيئاً في الآخرة.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(٥٦) ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾(٥٧) ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾(٥٨)

٥٨- ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ﴾ من أشكال العذاب ﴿أَزْوَاجٌ﴾.

﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾(٥٩)

٥٩- ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ مع الطغاة المشار إليهم بالآية (٥٥)، وهو فوج الأتباع الذين اتّبعوا الطغاة، وقوله ﴿مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ أي فوج من الأتباع يدخل النار معكم أيها الطغاة، يُقاسون فيها من العذاب ما تُقاسون ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ وهو قول المتبوعين ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ الأتباع والمتبوعون معاً.

﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾(٦٠)

٦٠- ﴿قَالُوا﴾ الأتباع لزعمائهم ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ قدّمتم العذاب لنا في آخرتنا، إذ غرّرتم بنا في الدنيا واتبعناكم على ضلال ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ فبئس المقر في جهنم.

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾(٦١)

٦١- ﴿قَالُوا﴾ أي الأتباع أيضاً ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ العذاب، من الطغاة الذين كانوا زعماءَ لنا، فاتّبعناهم على ضلال حيّاً في الدنيا ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ لأنهم ضلّوا وأضلّونا.

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ﴾(٦٢)

٦٢- ﴿وَقَالُوا﴾ الطغاة بعضُهم لبعض ﴿مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ﴾ الطغاة وزعماء الكفر يبحثون عن موقع الفقراء وضعاف المؤمنين في آخرتهم، لأنهم كانوا يسخرون منهم ويعدّونهم من الأشرار بسبب تصديقهم الرسل.

﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾(٦٣)

٦٣- ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ جعلناهم موضعاً للسخرية في الدنيا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ المعنى ما لنا لا نراهم معنا في النار؟

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾(٦٤)

٦٤- ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ﴾ لا بد أن يتحقق في الآخرة ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ بين الأتباع والمتبوعين، والمغزى من هذا التخاصم والتقاول بين الطرفين أنّ مَن يظلم نفسه ويرى عقول الآخرين من زعماء الضلال أفضل من عقله، فيتبعهم، يظلم نفسه في النتيجة.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(٦٥)

٦٥- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ لكم أيها الناس، أن يؤول مصيركم لمثل مصير زعماء الضلال وأتباعهم من الذين ظلموا عقولهم ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ﴾ لا سلطة حقيقية إلا لله، وأما زعماء الكفر والضلال فسلطتهم ليست سوى وهْم ﴿الْوَاحِدُ﴾ لا إله غيره ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب على أمره.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾(٦٦)

٦٦- ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ بغفر لمن يشاء بحسب الحكمة.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾(٦٧)

٦٧- ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول للمنكرين ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ما أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً، وإن الله تعالى واحد لا شريك له، نبأ في غاية الأهمية والعظمة، والنبأ أيضاً كل ما ينبئ به القرآن الكريم، لأن السورة تبدأ وتختم بالإشارة إليه، والنبأ العظيم أيضاً الإنذار بالآخرة لقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنْ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ ٧٨/١-٢].

﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾(٦٨)

٦٨- ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أعرضتم عنه أيها الناس بسبب تماديكم في الغفلة.

﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾(٦٩)

٦٩- ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ما كان للرسول أن يعلم قصة الخلق إلاّ عن طريق الوحي، والملأ الأعلى هم الملائكة في قصة الخليفة إذ قالوا: أي فائدة في خلق البشر الذين سوف يفسدون ويسفكون الدماء؟ انظر [البقرة ٢/٣٠-٣٤]، هذه القصة التي تكررت ست مرات في القرآن الكريم، كل مرة منها ترد بزاوية وعبرة مختلفة عن الأخرى، انظر [البقرة ٢/٣٠-٣٤] و [الأعراف ٧/١١-٢٥] و [الحجر ١٥/٢٨-٤٤] و [الإسراء ١٧/٦١-٦٥] و [الكهف ١٨/٥٠] و [ص ٣٨/٦٩-٨٥]، وفي هذه القصة تركيز على موضوع الحسد والكِبْر الذي منع إبليس من السجود لآدم.

﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾(٧٠)

٧٠- ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أُنذركم أنّ مَن ينكر وجود الله، أو يشرك به، يعرّض نفسه للدمار الروحي، وهكذا تختم السورة بالآيات (٦٥-٨٥) بذكر قصة الخليقة:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾(٧١)

٧١- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ من التراب والمواد العضوية التي فيه.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(٧٢)

٧٢- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ سوّيتُ جسده لما خُلقَ له من الأمور الحياتية ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ كناية عن إحيائه، قال الألوسي: ليس ثمة نفخ ولا منفوخ، وإنما إفاضة الحياة في الجسد ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ تكريماً له بعد أن تعلم الأسماءَ كلها [البقرة ٢/٣١]، أي المقدرة على الفكر المجرّد والتمييز بين الحق والباطل.

﴿فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾(٧٣)

٧٣- ﴿فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ سجود تكريم، انظر [الإسراء ٧٠/١٧].

﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(٧٤)

٧٤- ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ استكباراً ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ في علم الله تعالى منذ الأزل، لكي تكون الدنيا مسرحاً لصراع الحق والباطل، واستكبار إبليس وكفره كناية عن مكابدة الإنسان عناصر الشر في الدنيا.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾(٧٥)

٧٥- ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ مغزى قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لأنّ الإنسان متفوق بدرجات كثيرة على غيره من المخلوقات

إذ كرّمه تعالى بموهبة الفكر المجرّد واستيعاب المفاهيم وحرية الخيار ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ على مَن خلقتُ بهذه المواهب التي انفرد بها بنو البشر ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أم تظنّ نفسك من ذوي الدرجات العلا؟

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾(٧٦)

٧٦- ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ من عنصر غير مادي ﴿وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ من مادة التراب والماء، وهكذا غفل إبليس عن فوقية البشر بما حباهم تعالى من المواهب المذكورة آنفاً، بغض النظر عن خلق الإنسان من طين.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾(٧٧)

٧٧- ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ من منزلتك الملائكية التي كنت فيها ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود من كل خير وكرامة، فالرجم كناية عن الطرد لأن المطرود يُرجم بالحجارة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾(٧٨)

٧٨- ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ حرماني إياك من رحمتي ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ إلى يوم الحساب حيث توفّى الجزاء كاملاً.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(٧٩)

٧٩- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ أي أمهلني، لأنّ الإنظار الإمهال ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ مغزى الإنظار تمكين إبليس القيام بدوره في إغواء من يستطيع إغواءه من البشر حتى قيام الساعة، والنتيجة أن يكابد الإنسان عناصر الشر الدنيوية.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾(٨٠)

٨٠- ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ من الذين تمّ إمهالهم.

﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾(٨١)

٨١- ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ إلى يوم يعلمه الله، ولا يعلمه أحدٌ سواه، وهو يوم القيامة.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٨٢)

٨٢- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأوقعنّهم في الغواية، أي في الخيبة والضلال.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(٨٣)

٨٣- ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإني عاجز عن إغوائهم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر ٤٢/١٥].

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾(٨٤)

٨٤- ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ أي لا أقول إلا الحقّ.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٨٥)

٨٥- ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ من الغاوين، الذين بمحض اختيارهم تبعوا طريق الضلال.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾(٨٦)

٨٦- ﴿قُلْ﴾ لهم أيها النبي ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على القرآن ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ دنيوي ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ لستُ من الذين يتصنّعون ويدّعون ما ليس فيهم، فلا أنتحل النبوّة، ولا أتقوّل القرآن، ولا أدّعي أني فوق جنس البشر.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾(٨٧)

٨٧- ﴿إِنْ هُوَ﴾ القرآن الكريم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ وهكذا تختم السورة بالنقطة التي بدأت منها بقوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ لأن القرآن يذكّر الإنسان بالميثاق وبفطرته السليمة.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾(٨٨)

٨٨- ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ بأنه الحق والصدق ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ يوم القيامة، أو بعد الموت عندما يأتيك الخبر اليقين أيها الكافر أو الجاحد.

سورة الزمر -٣٩-

مكية

مقدمة

نزلت في أواسط الفترة المكية، واشتق اسمها من الإشارة لزمر الذين أصروا على الكفر، وزمر الذين اتقوا المشار إليهم بالآيات (٧١ و ٧٣).

ارتباط السورة بما قبلها

اختتمت سورة (ص) المتقدمة بقوله تعالى عن القرآن الكريم: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (٣٨/٨٧-٨٨)، وتفتتح سورة الزمر بأنه تنزيل من العزيز الحكيم: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (٣٩/١).

وفي سورة (ص) يبرر الكفار ضلالهم بضلال أتباع الديانات الأخرى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾ (٣٨/٧)، ثم تبين سورة الزمر أنّ على الإنسان اتّباع أحسن الهدي أي القرآن: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (٣٩/١٨).

محور السورة

وجوب الإخلاص في العبادة، ونفي الشرك والشركاء المزعومين، لأن الشرك وما فيه من حطّ لكرامة الإنسان يؤدي بالمشركين إلى خسارة أنفسهم وأهليهم نتيجة اتخاذهم القرار الخاطئ: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١٥).

وأن على المرء أن يستخدم حجة العقل والنظر والاستدلال للنظر في ما بين يديه من الكتب المقدسة فيتّبع أحسن الهدي وهو القرآن الكريم الذي بقي على

أصالته منذ نزوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ (١٨)، لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٢٣)، وقوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٨)، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (٥٥).

لكنّ عزوف الكفار عن القرآن وعن التوحيد ناتج من خشيتهم مواجهة مسؤولياتهم الأخلاقية وما يترتب عليها من نتائج لازمة لها، في حين أن إقبالهم على عبادة الشركاء الوهميين يعفيهم من ذلك بحسب ظنهم: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٥)، بل إنهم ينسبون ما بهم من نعم في الدنيا إلى حذاقتهم وذكائهم ومكرهم مع أنها قد تكون فتنة لهم: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٩).

بالمقارنة مع نصر المؤمنين على أنفسهم، الأمر الذي يضمن نجاتهم: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦١)، ومع ذلك فالجهلة مصرّون على عبادة الأوهام والزيف: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (٦٤)، بتأثير التكبر والإعجاب بالنفس ما يوردهم المهالك: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٢)، التكبر الذي هو موضوع سورة غافر التالية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(١)

١- ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ القرآن ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ وحده لا من غيره ﴿الْعَزِيزِ﴾ القادر على كل شيء ﴿الْحَكِيمِ﴾ أفعاله مترتبة على الحكمة.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾(٢)

٢- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ لفظ الإنزال يُشعر بأنه تعالى أنزله على عبده محمد دفعة واحدة، في حين لفظ التنزيل بالآية (١)، يُشعر بأنه تعالى أنزله على عبده نجوماً، أي نجماً نجماً، على سبيل التدريج، انظر آية [النجم ٥٣/١]، فكيف الجمع بين المعنيين؟ والجواب: إن الإنزال هو حكمه تعالى بنزول القرآن على عبده كاملاً، ثم أوصله إليه نجماً نجماً وفق المصالح وظروف البعثة، وهذا هو التنزيل ﴿بِالْحَقِّ﴾ مشتملاً على براهين التوحيد والنبوة والمعاد والتكاليف، فهو حق يجب العمل به ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ﴾ وحده ﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ له الطاعة الخالصة من شوائب الشرك والرياء، كما في الآية التالية:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾(٣)

٣- ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الله الذي يجب أن يُخصّ بإخلاص الطاعة له، لأنه المتفرد بصفات الألوهية التي من جملتها الاطلاع على السرائر والضمائر وما قد يكون فيها من شوائب الشرك والرياء ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ المشركون الذين أشركوا في العبادة الأشخاصَ المولهين والملائكة والقديسين، وأشركوا الصور والتماثيل والأيقونات والأضرحة، قائلين لأنفسهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ زعموا أن الشركاء ليسوا سوى وسطاء يقربونهم إليه تعالى، يرجون شفاعتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يحكم الله يوم القيامة بين المشركين وبين المخلصين فيما اختلفوا فيه من التوحيد والشرك، كما يحكم بين المشركين وزعمائهم الذين أضلوهم، انظر [سبأ ٣٤/٣١-٣٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ لا يوفق للهداية ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾

يكذب على نفسه، انظر [الأنعام ٦/٢٤]، ﴿كَفَّارٌ﴾ المصر على الكذب والكفر يحجب الحقيقة عن نفسه، فهو غير قابل للاهتداء لسوء استعداده وسوء جبلّته.

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(٤)

٤- ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إشارة إلى المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء في الآية السابقة، وهي إشارة خاصة للمسيحية الذين زعموا أن المسيح ابن الله، وهذا القول منهم يناقض صفات الكمال والعظمة لله سبحانه، فهو ليس بحاجة للولد أو الذرية ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً له عن النقص ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ لا يشاركه في الألوهية أحد ﴿الْقَهَّارُ﴾ يقهر عباده بالموت.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾(٥)

٥- ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ كل ما في الكون ذو معنى، ولا يوجد شيء مصادفة، وكل مخلوق يؤدي وظيفة معينة، انظر [ص ٢٧/٣٨]، والخطاب استمرار لما تقدّم، فلا معنى ولا مبرر لوجود الذرية، ومن دلائل قدرته وكمال عظمته تكوير الليل والنهار: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ في إشارة واضحة لكروية الأرض ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ منقادين لأمره عزّ وجل، سخرهما للحياة على الأرض ﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ الشمس في مدارها ضمن المجموعة الشمسية، والقمر في مداره حول الأرض ﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ كامل القدرة لا يعجزه شيء ﴿الْغَفَّارُ﴾ لذنوب التائبين.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾(٦)

٦- ومن دلائل وحدانيته أيضاً خلق البشر والأنعام: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ البشر كلهم مخلوقون من أنفس متماثلة فهي من ثمَّ نفس واحدة ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الزوج في اللغة يطلق على الجنسين فالمرأة زوج الرجل، والرجل زوج المرأة، والمعنى أنه تعالى خلق زوجها من جنسها، وهو قول أبي مسلم الأصفهاني ذكره الرازي، وشبيه بذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل ١٦/٧٢]، انظر أيضاً [النساء ٤/١]، ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ من الضأن اثنين: الكبش والنعجة، ومن المعز اثنين: التيس والعنز، ومن الإبل اثنين: الجمل والناقة، ومن البقر اثنين: الثور والبقرة، وقد ذُكرت في سورة الأنعام لجهة ما كانوا يحرمونه في الجاهلية [الأنعام ٦/١٤٣-١٤٤]، في حين ذُكرت هنا لبيان أنها من رزق الله تعالى، لأنّ البشر معتمدون عليه تعالى بالكلية بعد أن خلقهم من نفس واحدة.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، انظر [الحج ٢٢/٥]، ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة الرحم والبطن وظلمة قبل الولادة ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ على الإطلاق في الدنيا والآخرة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولو كان في السماوات والأرض آلهة إلاّ الله لفسدتا، انظر [الأنبياء ٢١/٢٢] ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ عن هذه الحقائق؟

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(٧)

٧- بعد بيان نزول القرآن، والدلائل المشار إليها آنفاً فإنّ عاقبة الكفر والشكر تعود على صاحبها دون غيره: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ غنيّ عن إيمانكم وشكركم ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ لما فيه من الضرر على العباد، فالجحود يعود سلباً على صاحبه ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لما فيه من نفعكم،

ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه، انظر [لقمان ١٢/٣١]، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الوزر هو الحمل الثقيل، وهو أيضاً الإثم لأنه يُثقل صاحبه، والمعنى أنه لا تحمل حاملةٌ حملَ أخرى، أو لا تأثم آثمةٌ بإثم أخرى، وهو مبدأ المسؤولية الفردية في الإسلام بأن لا يحمل أحد ذنب غيره، لأنهم كانوا يعتقدون أنّ بعضهم يستطيع أن يحمل إثم بعض، ومن جهة ثانية فقد اخترعت المسيحية فكرة (الخطيئة الأصلية) وابتدعوا أن المسيح افتدى واحتمل خطاياهم سلفاً نيابة عنهم ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ويحاسبكم كلاً بعمله، وليس بعمل غيره ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعلم ما في صدوركم من النوايا والدوافع.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾(٨)

٨- وهذه الآية تبيّن حال المذبذبين أنصاف المؤمنين: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ﴾ من مرض وفقر وغيره من المكاره ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعاً إليه ممن كان يدعوه من دون الله في حالة الرخاء، لعلمه أنّ مَن دون الله عاجز عن كشف المضرة ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ إذا أنعم الله تعالى عليه تفضّلاً منه ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾ نسي الضر الذي كان يدعو الله تعالى لإزالته ﴿مِن قَبْلُ﴾ التحويل ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شركاءَ ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ فلا يقتصر الضلال على نفسه بل يدعو غيره إلى الضلال إما بفعله أو بقوله، لأنّ اللام لام العاقبة ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ زمناً قليلاً أو تمتعاً قليلاً ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فهي النتيجة الطبيعية لأمثاله.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(٩)

٩- ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ القائم بواجب الطاعات والعبادات في ساعات الليل بعيداً عن الرياء، هل يمكن أن يكون مساوياً في العلم والأجر؟ للكفار والمذبذبين المذكورين آنفاً؟ ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ يحذر ما يؤدي لعذاب الآخرة من الكفر والمعاصي ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ فيفوز بما يرجو من النعيم ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك؟ فاستفادوا من نعمة العقل ونعمة الوحي ﴿وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ رغم أن وسائل العلم متاحة لهم ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ الذين يعملون بما يعلمون.

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١٠)

١٠- ﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول تلخيصاً للآيات (٧-٩): كذلك قال الله ربكم:

﴿يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا﴾ معصية ﴿رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ العمل ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ وهي الجنة ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ للذين يبغون الهجرة إلى أرض يمارسون فيها عباداتهم بحُرية بعيداً عن الاضطهاد، ويمارسون الدعوة، انظر شرح [النساء ٤/٩٧]، وأما ما ذكره الفقهاء من تقسيم الدنيا إلى دار إسلام ودار كفر فقد كان انعكاساً لأوضاع راهنة فُرضت على الأمة، وليس تعبيراً نظرياً عمّا يجب أن يكون أبد الدهر ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ يُوفّى الصابرون على المحن الدنيوية من مرض وبلاء، فوق إحسانهم ﴿أَجْرَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وأمّا ما نالوه في الدنيا فهو عاجل حظهم.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾(١١)

١١- ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ وحده بلا شرك ولا رياء، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ٦/١٤]، فالمطلوب الجمع بين الإسلام وبين البراءة من الشرك بكافة أشكاله.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾(١٢)

١٢- ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فالرسول أوّل من أسلم من أمّته، وهو أيضاً أول المسلمين قاطبةً لأنه أكملهم إيماناً وعملاً، وهو معلّمهم وقدوتهم وسيّدهم، انظر [الأنعام ٦/١٤].

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١٣)

١٣- ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عذاب يوم القيامة.

﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾(١٤)

١٤- ﴿قُلِ اللَّهَ﴾ وحده ﴿أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ من الشرك الظاهر والخفي، ومن غير طلب شيء بالمقابل.

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾(١٥)

١٥- بعد الموعظة البليغة بالآيات (١٠-١٤) لم يبقَ سوى تفويض الأمر لحرية الفرد مع بيان العاقبة لمن يختار الكفر: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ من دون الله، من الشركاء والأنداد المزعومين، واعبدوا المادة والثروة والزعامة والجاه ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بمحض اختيارهم ﴿وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ سوف يجدون أنفسهم وحيدين يوم القيامة فلا أهل ولا أحبّاء ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أن يجد الإنسان نفسه وحيداً، ناهيك عن العذاب الذي سوف يرد وصفه:

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾(١٦)

١٦- ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ تمثيل عذاب جهنم بما نعرف في الدنيا من المحسوس ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ التهويل بطريق الإبهام ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ اتقوا ما يؤدي بكم إلى أوخم العواقب.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾(١٧)

١٧- ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ الذين أعرضوا عن عبودية كل ما سوى الله، والطاغوت مشتق من الطغيان، وهو كل رأس في الضلال، كالزعيم من شياطين الإنس والجن، وعبادة الطاغوت بمعنى الطاعة المطلقة له ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أقبلوا إليه تعالى إقبالاً كليّاً معرضين عمّا سواه ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ بالثواب من الله على ألسنة الرسل أو الملائكة عند حضور الموت وحين الحشر ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ الموصوفين بالآية التالية:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(١٨)

١٨- ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الذين يستخدمون حجة العقل والنظر والاستدلال للنظر في ما بين أيديهم من الكتب المقدسة فيتّبعون أحسن الهدي وهو القرآن الكريم الذي بقي على أصالته منذ نزوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ وفقهم للهداية ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ أصحاب العقول السليمة التي تخلّت عن التقليد والعصبية.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾(١٩)

١٩- ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ المشار إليهم بالآيات (١٥-١٦)، بعكس الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه ﴿أَفَأَنْتَ﴾ أيها النبي ﴿تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ المعنى لا تستطيع ذلك إذا أصرّ الكافر على كفره وتمسّك بالتقليد ولم يتّبع أحسن القول.

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾(٢٠)

٢٠- ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ عودة إلى المشار إليهم بالآيات (١٧-١٨)، ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وصف الجنة بالمعهود من الدنيا ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ فذلك من المحال عليه تعالى.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٢١)

٢١- ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الإنسان، وعلى الأخص الإنسان الجاحد المشار لأمثاله بالآيات (١٥-١٦)، ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة لدورة الماء في الطبيعة ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ أحيا النبات من العدم ثم جعله حطاماً بانتهاء دورته ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في إنزال المطر وإحياء النبات ثم جعله حطاماً ﴿لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لأن أولي الألباب من أصحاب العقول السليمة الخالصة من شوائب الخلل والتقليد يتذكّرون من هذا المثل حال الدنيا وقصر لبث الإنسان فيها فلا يغترون ببهجتها ولا يفتنون بها.

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٢٢)

٢٢- ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ من ذوي الألباب المشار إليهم في الآية المتقدمة، ومعنى شرح الصدر الإراحة من الهمّ والغمّ، وبالمقابل فالعرب تسمّي الغمّ والهمّ ضيقَ صدر، والمغزى أن إقبال المرء على الإسلام يرافقه إزاحة الغمّ والهمّ من الصدر ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ لأن المرء يصبح على يقين من أمور الدنيا والآخرة، وتتمة الخطاب محذوف وتقديره: إن الذي انشرح صدره للإسلام ليس كَمَن بقي يتخبط في الظلام ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الذين إذا قرئ عليهم القرآن اشمأزوا واستكبروا وازدادت قلوبهم

قساوة، وهنالك معنى آخر؛ إذ يُحتمل أن يكون في الخطاب محذوف وتقديره: فويل للقاسية قلوبهم من نسيان ذكر الله، أي بحذف المضاف، وهو شائع في التنزيل، انظر إعراب القرآن للزجاج، الباب الثاني ﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ذوو القلوب القاسية الذين يشمأزون من سماع القرآن، أو يهملون دراسته، يقعون في أقصى درجات الضلال.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(٢٣)

٢٣- في هذه الآية عودة إلى بداية السورة بالآيات (١-٢)، وهي في الوقت ذاته استمرار للآية المتقدمة لأن انشراح الصدر للإسلام مترتب على قراءة القرآن وفهمه واستيعاب معانيه:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ هو القرآن الكريم ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ لأن القصص والحقائق تتكرر فيه من عدة أوجُه فهي تشبه بعضها بعضاً ﴿مَثَانِيَ﴾ بمعنى التكرير والإعادة ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ من الرهبة ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ تسكن وتطمئن إلى ذكر رحمته تعالى ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ مَن يشاء الهداية، أو يشاء تعالى أن يوفقه للهدى ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ﴾ لسوء استعداد الفرد ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ فيخليه تعالى لنفسه ويخذله ولا يجبره على الهدى.

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾(٢٤)

٢٤- ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ عطف على الآية (٢٢) واستمرار لمعنى القاسية قلوبهم من ذكر الله لأنهم سوف يواجهون عذاب الآخرة بوجوههم وليس من شيء يتّقون به، وتتمة الخطاب محذوف تقديره: هل يكون كَمَن هو آمن من العذاب؟ ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ استخدام

الفعل الماضي في الخطاب للإشعار بتحقق العذاب لا محالة ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي هذا العذاب نتيجة طبيعية لما كسبتم لأنفسكم وليس اعتباطاً.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾(٢٥)

٢٥- ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كذّبوا الرسل والوحي ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ ظنّوا أنفسهم في مأمن من العذاب بإنكارهم الآخرة والمسؤولية، وغاب عنهم أن العذاب مترتب على التكذيب.

﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(٢٦)

٢٦- ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ عذاب الذل والهوان في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ من عذاب الخزي في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ نظام الأسباب والمسببات.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٢٧)

٢٧- عودة إلى موضوع الآيات (١،٢،٢٣)، وبعد أن ذكرت الآيات (١٦، ١٩، ٢٠، ٢٤، ٢٦) أحوال أهل الجنة وأصحاب النار، تبيّن هذه الآية أن القرآن الكريم يضرب الكثير من الأمثال بما يعهده الناس من المحسوس في الدنيا، تمثيلاً لما لا نعرفه من عالم الغيب: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ لما هو خارج إدراك البشر ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيتّعظون.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(٢٨)

٢٨- ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ نزل على العرب أولاً بلغتهم ليفهموه ويحيطوا بمعانيه، وثانياً ليكونوا واسطة الرسالة إلى العالم أجمع لكونهم أمّة أمّية لم يسبق لها التعصّب إلى رسالة أو رسالات سابقة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء ٢٦/١٩٨-١٩٩]، بالنظر لتعصب الأعجمين لما هم عليه من التمسك بالتقليد، انظر شرح [يوسف

٢/١٢]، ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ خالٍ من التفاوت والاختلاف والخلل، انظر [النساء ٨٢/٤]، وهو أيضاً واضح خالٍ من الغموض، متماسك ومتناسق ومحكم، غير ملتبس ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ العواقب السيئة.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(٢٩)

٢٩- استمرار الخطاب من الآية (٢٧) في ضرب الأمثال:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً﴾ مشركاً ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ رجل مملوك، له أسياد كُثُر متشاكسون، أي مختلفون عسرون، كناية عن كثرة معبوديه، فهو مشرك يتنازعه معبودوه ﴿وَرَجُلاً﴾ ورجلاً موحّداً ﴿سَلَمًا﴾ خالصاً ﴿لِرَجُلٍ﴾ فرد، أي له سيد واحد فقط ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ المعنى لا يستويان، الأول في لوم وعناء دائمين، والثاني في راحة بال وسكينة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وحده، بعد إبطال القول بالشركاء ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أكثر الناس مشركون ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله وحده مستحق الشكر على نعمائه.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾(٣٠)

٣٠- بعد أن ضربت الآية المتقدمة مثلاً بالمشركين والموحّدين، وأن أكثر الناس مشركون، تبين هذه الآية والتي تليها أن الحسم بين المشركين وبين دعوة النبي لهم يكون يوم القيامة: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أيها النبي ﴿وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ لا محالة، لأن الدنيا ليست دار قرار، والمشركون في غفلة عظيمة كأنهم ينكرون الموت.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾(٣١)

٣١- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ إذ لا سبيل لردع المشركين عن شركهم رغم الدلائل القاهرة، بسبب تمسكهم بالتقليد وابتعادهم عن الفكر المستقل، فلا ينفتحون على الحقيقة إلا في الآخرة.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾(٣٢)

٣٢- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ بزعم تعدد الآلهة، أو الزعم بتجسد الإله في بشر، أو بنسب بعض خصائص الألوهية للقديسين والأولياء ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ كذّب ببعثة النبي ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ مثوىً لا مفرّ منه، والسبب أن الكافر يجلب الدمار على نفسه.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(٣٣)

٣٣- ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هم الرسل والأنبياء ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ هم أتباع الرسل ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ يتّقون عذاب جهنم، بنتيجة أعمالهم المترتبة على تصديق الرسل.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣٤)

٣٤- ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ من حسن المآب ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا العبادة والعمل.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣٥)

٣٥- ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ بعد أن صدّقوا الرسل وعملوا بحسب صدقهم، يسقط العقاب عنهم على أكمل الوجوه ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أجورهم متناسبة مع أحسن أعمالهم.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(٣٦)

٣٦- ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ عطف على الآية (٣٣)، والمقصود أن الله تعالى يكفي عبده محمداً ﷺ شرور الكفار، كما يكفي غيره من الرسل ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ أيها الرسول، أو أيها المؤمن ﴿بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الآلهة

المزعومة، والمنسوب إليهم من خصائص الألوهية أحياءً كانوا أم أمواتاً، كما يخوفونك بالزعامات وأصحاب النفوذ ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ﴾ لدرجة أن يغفل عن كفايته تعالى لعبده ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى خير ما.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾(٣٧)

٣٧- ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ ليس من مضلّ يستطيع أن يصرفه عن طريق الخير ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالب على أمره ﴿ذِي انْتِقَامٍ﴾ ينتقم من مروّجي الشر، والانتقام بهذا المعنى يفيد تحقيق العدالة.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٣٨)

٣٨- ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يقولون ذلك بصورة عفوية؛ لأن فطرة العقل شاهدة بصحة هذا القول ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الشركاء المزعومين أو الأشخاص المؤلهين ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ لا يستطيعون كشف الضر إذ لا خالق سواه ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ فيمنعها سبحانه عني؟ ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ يكفيني في جميع أموري من إصابة الخير ودفع الشر ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لعلمهم أن كل ما سواه تحت ملكوته.

﴿قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(٣٩)

٣٩- ﴿قُلْ يَاقَوْمِ﴾ الذين تنكرون الحقيقة ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ اعملوا كل ما بإمكانكم في الإنكار، فالعواقب تعود عليكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ كل ما بإمكاني في سبيل الله ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في المستقبل القريب والبعيد:

﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾(٤٠)

٤٠- ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ في الحياة الدنيا، والمغزى أنّ استسلام المجتمع للكفر وللقيم الزائفة يؤدي به إلى الانحطاط الروحي، ومن ثمّ إلى الكوارث الاجتماعية والعذاب الدنيوي ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾(٤١)

٤١- عودة لموضوع الآيات (١، ٢، ١٨، ٢٣، ٢٧، ٢٨):

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿لِلنَّاسِ﴾ لأجل الناس قاطبةً ولأجل مصالحهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ متضمناً ومبيّناً الحق ﴿فَمَنْ اهْتَدَى﴾ بهدي القرآن ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ يكون ذلك لمنفعته ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عن هدي القرآن ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ يكون ذلك وبالاً عليه ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ لا تستطيع، وليس من واجبك أن تجبرهم على الهدى، فلست مسؤولاً عن سلوكهم وما وظيفتك إلاّ البلاغ.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤٢)

٤٢- قال الرازي عن ارتباط هذه الآية بما قبلها: إن الهداية أشبه بالحياة واليقظة، والضال أو الغافل الذي يتوصل للهداية أشبه بالنائم الذي يستيقظ على الحقيقة، كما أنّ الضلال أشبه بالموت، انظر [الأنعام ٦/١٢٢]:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ التوفّي يعني أخذ الشيء وافياً، وقد استعمل التعبير مجازاً بمعنى الموت لأن الإماتة تقتضي استيفاء جميع الإشارات الحيوية من النفس بشكل دائم ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ تشبيه النوم بالموت لأن الأنفس وقت النوم تبدو غائبة عن الوعي مؤقتاً وإلى حدّ ما ﴿فَيُمْسِكُ﴾ اللهُ تعالى الأنفسَ ﴿الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ الدائم ﴿وَيُرْسِلُ الأُخْرَى﴾ يرسل الأنفس النائمة فيعيدها إلى اليقظة ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إلى حين موتها الدائم،

ويجب الانتباه هنا إلى دقيقة وهي التفريق بين النفس وبين الروح، فالموت هو للنفس، أما الروح فلا تموت بل تستمر في الحياة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كيفية تعلق الأنفس بالأجساد، والفرق بين النفس والروح.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾(٤٣)

٤٣- ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ مع كل هذه البراهين القاهرة على قدرته تعالى، فإن معظم الناس يميلون إلى تجاهلها، بل يظنون أن الشفيع يمكنه أن يشفع من دون إذنه تعالى، وقد نقض القرآن الكريم ظنهم بقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء ٢٨/٢١]، ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا﴾ الشفعاء ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ من المقدرة ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنهم إما جمادات أو أموات أو شخصيات مؤلهة أو آلهة مزعومة.

﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٤٤)

٤٤- ﴿قُلْ لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ يملك الشفاعة كلها، فلا يستطيع أحد أن يشفع عنده إلا أن يكون المشفوع له مرتضىً والشفيعُ مأذوناً له بالشفاعة، وما في ذلك من تكريم للشفيع والمشفوع له ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يتصرف أحد بدون إذنه ورضاه ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فتتحقق العدالة في الآخرة على أتم وجه.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(٤٥)

٤٥- ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ ولم تُذكر معه آلهتهم ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ لأن الإيمان بالآخرة يتضمّن اعترافهم بالمسؤولية الأخلاقية ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ من المعبودات الوهمية ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لأن تلك المعبودات لا تفرض عليهم أي مسؤولية.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(٤٦)

٤٦- نتيجة الخلاف بين المؤمنين والكفار: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق، انظر شرح [الأنعام ٦/١٤]، ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ﴾ الغيب ما يغيب عن إدراك البشر ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ ما تدركه حواسهم من عالم المشاهدة ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ من المهتدين، ومن الضالين، المشار إليهم بالآيات (٤١-٤٥)، ﴿فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من العقائد، لأن الإنسان مكرّم بالعقل وبحرية الخيار فيتحمل مسؤولية خياره كما هو مذكور في الآيات التالية:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾(٤٧)

٤٧- ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ظلموا أنفسهم بالكفر وبإنكار الآخرة ﴿مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المغزى أن جميع أعمالهم (الحسنة) في الحياة الدنيا، ولو كانت مضاعفة، تذهب هباءً فلا تفديهم من عذاب يوم القيامة للسبب المذكور تالياً: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ يصبح واضحاً لهم أن مآل الإنسان في الآخرة، وسعادته أو تعاسته فيها، مترتبة بشكل طبيعي على سلوكه وحسن استخدام ملكاته العقلية في الدنيا من الإيمان أو الكفر.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(٤٨)

٤٨- ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ من عقائد فاسدة ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أحاطت بهم حقيقة الحياة بعد الموت، والحقائق التي جاء بها الأنبياء والرسل، بعد أن كانوا يستهزئون بها.

﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(٤٩)

٤٩- بعد أن بينت الآية (٤٣) إنهم اتخذوا شفعاء من دون الله، وإن قلوبهم تشمئز من ذكر الله وحده، الآية (٤٥)، تضيف هذه الآية خصلة أخرى من خصالهم الفاسدة:

﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ يفزعون إلى الله تعالى عند وقوعهم في الضرّ من مرض أو فقر ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾ أعطيناه على سبيل التفضّل ﴿نِعْمَةً مِنَّا﴾ كالعافية والغنى ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ أوتيتُ النعمة أو شيء منها ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ أي استحقاقي لها كان بسبب مهارتي وحذاقتي لا غير ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ ردّ لقوله ذلك، فهي فتنة على سبيل الاختبار المقصود منها إظهار حقيقة المفتونين أو لتصفيتهم وتمحيصهم، انظر شرح [الأنفال ٨/٢٥]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون أن التخويل كان على سبيل الاختبار، كي تبرز خصال المرء إلى حيّز الواقع.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٥٠)

٥٠- ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ لأن الكلام عن جنس الإنسان ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا، وما أغنى عنهم ذلك الاعتقاد الباطل.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾(٥١)

٥١- ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ من الأعمال والعقائد الفاسدة ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ﴾ المشركين في كل زمن ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ فتلك قاعدة عامة، لأنّ أمور الدنيا والآخرة لا تسير اعتباطاً ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ لا يستطيعون التنصل من العواقب ولا الهرب منها.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٥٢)

٥٢- استمرار الخطاب من الآية (٤٩): ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يبسط ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لمن يشاء أن يقدر، فلا يكون للإنسان يد في ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ إشارات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بمدلولات الأمور والحكمة منها، فكم من عاقل كادح قُدر عليه رزقه، وكم من جاهل مبذّر بُسط له في رزقه.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٥٣)

٥٣- ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ الذين أفرطوا في المعاصي، من أمثال المشار إليهم بالآية (٤٩)، ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ لا تيأسوا من مغفرته سبحانه، فتوبوا إليه قبل أن تداهمكم المنية وقبل فوات أوان التوبة، انظر الآية التالية (٥٤)، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ بالتوبة والإنابة، انظر شرح آية [النساء ٤٨/٤] حيث تستثني الشرك لما فيه من مذلة للإنسان ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ المراد؛ التنبيه على أنه لا يجوز أن يظن العاصي أنه لا مفرّ له من العذاب البتة، لأن مَن اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله، فعليه أن يتوب ويعود عن غيّه عاجلاً قبل الفوات، انظر قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام ٥٤/٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء ١١٠/٤].

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾(٥٤)

٥٤- استمرار الخطاب، والمغزى: لا تقنطوا من رحمة الله فتظنوا أنه لا يقبل توبتكم: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ارجعوا إليه وتوبوا ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ في الدنيا قبل الآخرة ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ بعد فوات أوان التوبة، وفي الحديث: ((مَن آيس العباد من التوبة فقد جحد كتاب الله، ولكن

لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله تعالى عليه))، ذكره الألوسي، وأخرجه الطبري، وفي الآية التالية الأمر باتّباع هدي القرآن قبل مجيء العذاب بغتةً:

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾(٥٥)

٥٥- ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن الكريم خُتمت به الرسالات السماوية، انظر الآية (١٨)، اتّبعوا هديه وتعاليمه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ فجأة بلا سابق إنذار ﴿وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ بقرب وقوعه.

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾(٥٦)

٥٦- استمرار الخطاب من الآية السابقة والمعنى: أنذرُكم وآمرُكم باتّباع هدي القرآن كراهة أن تقول نفسٌ بعد فوات الأوان: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ التفريط هو التقصير، والمعنى حصول الحسرة، في وقت متأخر، على التقصير في طاعة الله ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ اعتراف الجاحد المقصّر أنه كان من المستهزئين بالحقيقة وبدين الله تعالى وأهله.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(٥٧)

٥٧- ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ نسي الجاحد أو تناسى أن الله تعالى أنعم عليه بنعمة العقل، وببعث الرسل، وتنزيل الوحي، وحرية الخيار، فلم يستفد منها في دنياه شيئاً.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٥٨)

٥٨- ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ عودة إلى الدنيا مرة ثانية ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ زعمَ الجاحد أن لو كانت له فرصة أخرى في الدنيا لكان من المحسنين، وهذا الزعم تكذّبه الآية التالية، انظر شرح آية

الأنعام: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام ٦/٢٨].

﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(٥٩)

٥٩- ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ في الحياة الدنيا ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ ولم تستفد من نعمتيْ العقل والوحي ﴿وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ أعمى الاستكبار بصيرتك ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ تعمّدتَ تغييب الحقيقة عن نفسك.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾(٦٠)

٦٠- ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بأن زعموا له شركاء، أو زعموا أن الله يتجسد على شكل بشر، أو نسبوا من صفات الألوهية للزعماء والأولياء ﴿وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ من الذل والهوان، فهي مسودّة على المجاز أو في الحقيقة، كناية عن تعاستهم، على النقيض من الذين ابيضّت وجوههم، انظر [آل عمران ٣/١٠٧]، الذين في غاية السعادة ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فبعد أن كانوا متكبّرين في حياتهم الدنيا أصابهم الذل والهوان في الآخرة.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٦١)

٦١- ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي بفوزهم على أنفسهم وشهواتهم ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ يسلمون من أي مكروه ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا يحزنون على فوات شيء من دنياهم.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾(٦٢)

٦٢- ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ هو الوكيل على خلقه، يتولّى حفظ مخلوقاته، فالأشياء محتاجة إليه في بقائها، وتستمدّ وجودها منه.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٦٣)

٦٣- ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ مفاتيح الغيب ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ جحدوها ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يخسرون أنفسهم، وليس أكبر من خسارة النفس.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾(٦٤)

٦٤- ﴿قُلْ﴾ لهم أيها النبي أو أيها المؤمن: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ الذين يجهلون الصواب من الخطأ، والحق من الباطل؟ أي تريدون منّي عبادة الأوهام والزيف؟

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٦٥)

٦٥- ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أيها النبي، وأيها الإنسان ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ بالله تعالى ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ يفشل ويبطل ثوابه ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المشار إليهم بالآية (٦٣).

﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(٦٦)

٦٦- ﴿بَلِ اللَّهَ﴾ وحده ﴿فَاعْبُدْ﴾ إنقاذاً لك من مذلة الشرك والهوان ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لله أن منحك نعمة العقل وأتبعها بالوحي.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٦٧)

٦٧- عودة إلى موضوع الآيات (٦٠-٦١)، حيث تلخص هذه الآية إلى آخر السورة مآل المؤمنين الذين أخلصوا العبادة في مقابل مآل الكفار الذين اختاروا تغييب الحقيقة عن ناظرهم:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ لم يفهموه حق الفهم، ولم يدركوا كنهه، والخطاب عن المشركين ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الكون بكامله لا شيء بالنسبة إليه ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ اليمين كناية عن سيطرته الكاملة، وهيمنته سبحانه على ملكه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيهاً له عن الشركاء العاجزين عن أي شيء من ذلك.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾(٦٨)

٦٨- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يوم القيامة ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ أغشي عليهم ﴿إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هم المشار إليهم بقوله: ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل ٢٧/٨٩]، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ إلى الحقيقة.

﴿وَأَشْرَقَتْ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾(٦٩)

٦٩- ﴿وَأَشْرَقَتْ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ انظر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور ٢٤/٣٥]، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي صحائف الأعمال، انظر قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء ١٧/١٤]، ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ يشهدون بأداء رسالاتهم ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ يشهدون على أنفسهم، انظر قوله تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام ٦/١٣٠]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور ٢٤/٢٤]، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ بل تتحقق العدالة على أكمل وجه.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(٧٠)

٧٠- ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ الله تعالى أعلم بما كانوا يفعلون في دنياهم، فيحاسبهم بأعمالهم، انظر قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة ٩٩/٧-٨].

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(٧١)

٧١- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا على الكفر ﴿إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ جماعات ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ على سبيل التوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ من جنسكم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ من الوحي الذي نزل لمصلحتكم ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يوم القيامة ﴿قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أقرّوا بسوء اختيارهم، ومعصيتهم بلا توبة.

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾(٧٢)

٧٢- ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الذين تكبّروا على الأنبياء والرسل والوحي، وهكذا تبيّن الآية أن الكبرياء الرائف أصل الكفر، انظر قوله: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل ١٦/٢٢].

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾(٧٣)

٧٣- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أبوابها مفتّحة لهم قبل وصولهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ من المعاصي ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(٧٤)

٧٤- ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ﴾ أرض الجنة مجازاً ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

﴿وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٥)

٧٥- ﴿وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ مجازاً، لأن العرش كناية عن سلطانه تعالى على خلقه ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ بين العباد ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على تحقق العدالة.